أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

رِوَايَة

سَحَر خَلِيفَة

أصلٌ وفصلْ

scanned by jamal hatmal

دار الآداب

أصل وفصل

سحر خليفة

أصل وفصل

رواية

دار الآداب - بيروت

أصل وفصل

سحر خليفة/كاتبة فلسطينية

الطبعة الأولى عام 2009

ISBN 978-9953-89-087-6

حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّيّ مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير - بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت - لبنان

هاتف: 861633 (01) - (03)861632

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

لا تقولوا لي لم أقل شيئاً جديداً،

أسلوب ترتيب العناصر هو الجديد.

باسكال

أصــل

ستّي زكية

كانت ستِّي زكيَّة القحطان أحلى راوية ورواية. كانت تقصّ علينا القصص فننسى العالم ونسرح وندوخ وندخل معها عبر الكانون عوالم مسحورة لها نوافذ تنفتح على أفق أزرق، فنعلو ونطير كعلاء الدين. تلك القصص كانت حواديت. أمّا عن الناس، فتقول فلان قال كذا... وتبدأ بالقص وبالتقليد حتى تظنّ أنَّك تسمع ما قال فلان شخصيًّا، يعني صوته، يعني نَفسه، يعني الشخرات وهو يضحك أو يتجشّأ، فنضحك ونقول: آه يا ستّي، ما أحلاك! لكنَّها حين تهلِّل نبكي ونموت في داخلنا لأنَّ التهليل يُذيب الإحساس ويخرج منَّا حنانٌ دافقٌ مثل المطر ودموع الحب. أمّا القمر فله قصّة، قصّة تتعلَّق بالتنجيم. يعني تفتح، يعني تكشف، يعني تقول: انكشف وبان، فيجمد فينا خفقان القلب.

SCANNED BY JAMAL HATMAL

قالت أمي في ذاك الليل: هل انكشف؟ ماذا رأيت؟ قالت: يا حرام! قالت: قولي! قالت: يا حرام. هتفت أمّي: من هو؟ من مات؟ قالت: آلاف، ناس مثل النمل، وعلم كبير يسقط من فوق ويغرق بالدم. الدم للركب، آه يا ويلي! وبكت وبكينا وما زلنا نرتعد بخوف.

كنَّا نجلس في ذاك الليل على الشرفة. ستِّي تمسك بصفحة مرآة، وظهرها مقلوب لوجه القمر، والقمر بدر كالمرآة، أبيض ناصع، وبوجه جميل. كانت صيفًا، وكانت الطريق إلى حيفا قد سُدّت بمدافع ودبابات. كنّا صغارًا، وكنّا نسمع نشرة أخبار تقلقنا وتقول اليهود أخذوا يافا، أخذوا حيفا، أخذوا صفد، أخذوا الرملة. وبدأت جيوشنا تتراجع، وبدأ التاريخ يهرب منّا. كنَّا صغارًا، وكنَّا نخاف ممّا نسمع. لكنَّ الكبار كانوا أشطر. ثم مع الوقت هبط التاريخ وباتوا أصغر. لماذا؟ ما السرّ؟ قالوا سقطت وها هم في القدس. قالت أمّي: هذا كذب، هذه إشاعات. هيّا نفتح. القمر يقول ما لا نعرف. وكان ما كان وقالت ستِّي: آه يا ويلي. يا حرام، يا حرام! وظلَّت تقول كلمة يا حرام حتى ماتت، وصرنا يا حرام!

أمّا ما قصّة ذاك الفتح فهي التالي. الدنيا ليل، والقمر الكامل كالفضّة، وأمّي تجلس خلف الجدّة تقرأ آيات من القرآن، وستّي تمسك بصفحة مرآة تكشف فيها. أحيانًا تمرّ بضع ساعات ولا تكشف، وأحيانًا بضع دقائق فتقول: فتح. فتسكت أمّي وتقول: هسّ، ولا نصّ كلمة. ولا نكون بحاجة لذاك التنبيه، إذ كلمة فتح تعني القمر بدأ يفتح، أي يتنبَّأ، أي ستّي تقول ما يكشفه داخل مرآة. هل يتحرَّك؟

يعني الأشياء والعوالم داخل مرآة تتحرَّك؟ كانت تقول: مثل السينما، مثل الأفلام. يعني أفلام أنور وجدي وعبد الوهّاب وليلى مراد في شاشات تحكي بوضوح. لكنَّ القمر لا يتكلَّم، فقط الصور مثل السينما من غير كلام. أي صور تتحرَّك وبني آدميين يمشون ببطء، وكذا الأشياء تتحرَّك. صور ورموز ومعانٍ لا نفهمها إلاَّ حزراً. نحزر ما معنى ذاك الرمز وتلك الصورة. يعني العَلم حين تهاوى فوق الرؤوس في برك الدم كان النكبة، فبكت ستّي وقالت: راحت، ضاعت البلاد. وبدأت تبكي فحدّقت الأم وقالت بخوف: لا مش معقول! فقالت ستّي وهي ترمي بتلك المرآة: أقول لك راحت، ضاعت البلاد، والناس يا حرام مثل النمل، والدم للركب، آه يا ويلي. ورمت المرآة.

كان ذلك قبل النكبة ببضعة أشهر، وكنَّا ما زلنا نتفاءل، وكان العرب مثل النمل، وجيوش زاحفة من سيناء ومن العراق ومن الأردن. كنَّا نظنّ أنَّ القوة هي بالكثرة. كنَّا نظنّ أنَّ العرب أقوى وأهمّ، مثل العيلة. لكنَّ القمر قال قوله وانكفأ العلم فوق رؤوس تغرق بالدم. هل كانت ستّي تتخيَّل؟ أنا لا أعرف. أنا حتى الآن لا أعرف. أحيانًا أقول مثل الأحلام، يعني تفسير تلك الأحلام. لكنّي أعود وأتذكَّر ما قال القمر عن أشياء لم نفهمها في ذاك الوقت ثم مع الزمن تحقَّقت على سطح الأرض. فما سرّ القمر ومرآته وهل من تفسير؟ وهل هذا ما يذكره بعض النشطاء في ذاك العلم أو ذاك الفن عن قوى خفيَّة ننكرها لأنَّنا بالأصل لا نعرفها؟ أنا لا أعرف. وقد كنت أقول وأنا أصغر، وأنا ما زلت أتفلسف، تلك خرافات نبدعها أو نصنعها حتى نفهم، وتكون النتيجة لا نفهم. والآن أقرّ بعد كل السنين، وبعد تجارب تخترق العظم: انا لا

أفهم. لكنّ ستّي الأمّيّة، وما كانت تقرأ أو تكتب، وكانت أمّيّة على السكّين، كانت تفهم. وهذا ما قصدت بلغة القمر. يعني المخبوء والغائب والمستبطن في أزمنة فوق الإنسان.

جدّي الفنّان

وجدّي أيضًا كان غريبًا في جوّ غريب. كان فنّانًا بالفطرة رغم عمله بالميكانيكا. كان يدير ـ في ذاك الزمن المتأرجح بين حوافر تركيا المندحرة وجيوش الحلفاء المنتصرة ـ جهازًا أسموه بالبابور. كان جدّي يدير البابور. يفكّه بيديه كلعبة أطفال. يزيل الصدأ ويزيّته ويشحّمه ويجعله يدور مثل الساعة. كان يحبّه، يحبّ البابور. يحب الصوت المندفع من أركانه مثل المدفع. ومن ذاك الصوت ورعشات الأذن المرتجفة تحت الضربات المنسجمة مثل الإيقاع يسمع نغمات ومقامات تعصف جوّاه مثل الشهوة ونداء الجنس فيهرع للدار مثل المجنون ويخرج قانونًا مخبوءًا خلف خزانة ويبدأ بالعزف. وتراه ستّي منشغلاً عن كل الدنيا ومن فيها بتلك الأوتار وشعره منبوش كدجاجة وأصابعه مثل الأسماك تسبح وتلعبط وتتقافز وتصدر ألحانًا عاصفة ثم رقيقة فتهمس بخشوع: هسّ، ولا كلمة، خلّيه يرتاح. كانت تحسّ، كانت تفهم أنّ القانون

بالنسبة له حاجة ملحَّة مثل التفريغ، مثل الشبع، مثل الشهوة ونداء الروح.

وجدّي أيضًا كان ذكيًّا، كان يفهم لغة الأرواح عبر القانون وصبا ونهاوند وسيِّد درويش. أمّا أخوها وكان جميلاً بعيون زرقاء خابية مثل الإفرنج فكان غبيًّا. كان أبوها يجلس ليلاً ليسمِّع للولد سور القرآن والمحفوظات وجدول الضرب وما تعلَّمه عند الكتّاب. يقول له بصوت هادر: سمّع، اقرأ . فيرتبك الولد ويتلوَّى ويقول عن السورة صورة وعن القدَر قِدر وعن خمسة بستّة تساوي ستّين. فيصيح أبوه: وله يا حيوان، لسّه امبارح كانت ثلاثين. وله يا زكيّة. وتكون هي عند الكانون حيث تحمّص أرغفة الخبز:

ـ وله يا زكيَّة، خمسة بستّة؟

فتقول بخوف:

ـ تساوي ثلاثين.

ـ وسبعة بأربعة؟

ـ ٢٨.

ـ وسبعة بسبعة؟

ـ ٤٩.

فينزل بالكفّ على عنق الابن ويقول بغيظ:

ـ شايف يا حمار؟ حتى البنات تعرف هذا. وإنت أَتْيَس من أتيس بنت.

ويلتفت إليها ويسألها:

ـ وشو حفظت كمان؟ هات لنسمع!

فتبدأ بقراءة ما حفظته عن ظهر قلب وتتلو القرآن والمحفوظات وجدول الضرب من غير كتاب. يعني ستّي كانت أشطر، لكنّ أخاها الأفندي هو من أرسلوه إلى الكتّاب. أمّا هي، فظلّت أمّيّة على السكّين. لكنَّها رغم ذلك كانت موهوبة وقويَّة وتحبّ الحياة. وحين كبرت صارت زوجة رجل صنديد يدير البابور مثل الساعة ويعزف القانون مثل المجنون ويمشي على الأرض فيهزّ السوق. ورغم ذلك، ما كانت تسمع كلامه حين يمنعها عن الزيارات والاستقبالات. كانت تحبّ الزيارات وشمّ الهوا. تخرج من الدار وهي تهرول حتى لا تضيع فقرة صغيرة ممّا يقال أو يقدّم عند الجارات. وفي يوم ما حلف عليها إن هي خرجت ألاّ تكون على ذمّته حين ترجع. فتحت الباب وقالت بعناد:

ـ لأ أنا خارجة.

ـ وتكوني طالق يا زكيَّة؟

هزّت كتفيها وأعادت:

ـ لأ أنا خارجة.

ـ طب والطلاق؟ أنا صرت حالف!

ـ أَخْرج فتوى من عند الشيخ، دبّر حالك.

ولفّت غطوتها على رأسها وشدَّت الرضيع إلى صدرها وخرجت تركض. وجلست في العرس وهي تصفِّق مع جموع النساء. وحين صاح

الطفل ألقمته ثديها وهي تردِّد لازمة الغناء لامرأة ترقص وتتمايل وسط النسوة ثمّ أخرى ثمّ أخرى حتى انتهت مراسم العرس. وحين عادت كانت الشمس قد غابت وشبابيك الجيران مغلقة ويغطّي الزقاق ظلام دامس. ورأته يجلس على العتبة ينتظر بحزن. كان الغضب قد تلاشى وحلّ محلّه حزن ساحق. إذ إنَّ زوجته الجميلة أُمّ الأولاد باتت طالقًا وحرامًا عليه. فبعد خروجها ولومها لعدّة ساعات لام نفسه لأنَّه تسرَّع وحلف اليمين وخرب بيته. وقد كان عليه أن يتوقَّع أنَّ زوجته الجميلة كانت تختلف عن كلّ النساء لأنَّها سليلة عائلة شريفة تمتدّ أصولها إلى جذر النبي. يعني عائلة مشهورة بأصالتها وشهامتها وانكشاف السرّ واختراق الغيب. فأبوها شيخ متصوِّف وجدّها ولي له حضرة وجدّتها معروفة بقدرتها على مكالمة الجنّ ورؤية أحلام تتحقَّق في وضح النهار. وهكذا عاد إليها أو عادت إليه عبر الفتوى. استخرج فتوى من عند الشيخ وأخرج كفّارة وصام عن الأكل ولم يقرب زوجته عدّة أيام. ومن ذاك اليوم حرَّم أن يرمي عليها الطلاق أو يمنعها عمّا ترغب. يعني ستّي كانت أقوى. لكنَّها رغم القوة كانت أميّة على السكين. ولهذا حين مات الزوج بضربة بابور سحبه إليه وفرم نصفه وجدت نفسها من غير معيل. إذ إنَّ ميراث الفقيد صار هباء حين سرقه كبير العيلة، سليل العائلة النبوية وكليم الجنّ.

كبير العيلة

كان عمّها، كبير العيلة، رجلاً مهيبًا محترمًا بجبّة واسعة كالوطواط وعمامة ضخمة بحجم القدر. كان يجلس في حوش الدار حول البركة تحت النارنج فيقصده الناس للتبرُّك وسماع النصح من الشيخ الجليل ذي العمامة والأصل الشريف. كان يحفظ سور القرآن وأحاديث الرسول وما قال عليّ وما قال عمر ويفتي ويشرِّع ويفسِّر ويقول للناس: صوموا تصحّوا. فيسألونه: حتى المرضى؟ فيقول بثقة: الصوم يشفي من القرحة ومن الغازات. وكذا الزواج المتعدِّد يشفي من الفسق والغواية وحبّ النسوان. كما أنَّ اللحية الممتدّة تحدّ من الفتنة والإغراء. ولهذا كانت لحيته مثل الجاعد وفي ذمّته طابور نساء وفقّس منهنّ مليون ولد. فكنت ترى أنحاء الدار مثل الحسبة وسوق الإثنين. لكنَّ الحوش حيث الديوان والدكّة ونصف دستة من الأراجيل كان مزارًا لا يدخله إلاّ الوجهاء والمحتاجون ومن كان بحاجة للفتوى حتى يأمن معصية الله.

إذن عمّها كان شريفًا من أصل شريف. ولهذا حين مات الزوج وخلف لها ألف مجيديَّة ذهبيَّة وسبيكة ذهب ذهبت للعمّ فور الحادث وقالت همسًا: خذ يا عمّي. ألف مجيديَّة ذهبيَّة وسبيكة ذهب مال الأيتام. خذ خبّئها حتى تنتهي مراسم الدفن وحصر الإرث وما شابه. أطفالي القُصّر سيكونون تحت وصاية عدّة أعمام. وهؤلاء هل هم أمناء؟ هل هم تقاة ويخافون اللّه؟ أنا لا أعرف. لكنَّك أنت، أنت عمّي. أنت الكبير المتفضّل على كلّ الناس. خذ الأمانة وخبِّئها حتى نضمن حقّ الأيتام. قال: طيِّب، بالحفظ والصون. وأخذ الأمانة وخبّأها ونسي الموضوع.

حين عادت لتذكِّره بالأمانة قال بغضب: أيّ أمانة؟ قالت: مجيديّات وسبيكة ذهب! نفخ الدخان ولوى بربيش الأرجيلة وقال بدهشة: أيّ مجيديات وأيّ سبيكة؟! قالت: أعطيتك قبل الدفن. وأخذت تبكي. فأمسك لحيته وقال بعطف:

ـ اسمعي يا زكيَّة يا بنتي. بدّك زكاة؟ بدّك صدقة؟ حاضر، على راسي، من عيوني. لكن تقولي لي مجيديّات وسبيكة ذهب؟ عندك ورقة؟ عندك شهود؟

قالت بذهول:

ـ لا عندي ورق ولا عندي شهود. أنت عمّي.

أمسك لحيته وشدّ بها وهي تبكي وتجوح وتنوح.

قال بأسف:

ـ لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه. خذي يا بنتي. خذي هذا المبلغ عن روحه.

نظرت إلى المبلغ بين يديه وسألت بذهول:

ـ ١٠ مجيديّات؟!

قال بإشفاق:

ـ هذي المجيديّات عن روحه، لستر الأيتام.

خرجت من عنده وهي تنوح ووقفت في الحوش تحت النارنج وأخرجت ثديها ونظرت للسماء وقالت: يا ربّ، بجاه النبي وملائكتك تقطع أثره وتعمي بصره وما تخلّي في بيته نور ولا نار. بجاه الرسل وملوك الجنّ أخفض قدره واهدم حجره ويدور شحّاذ من دار لدار.

وهذا ما كان. إذ فقد عائلته في زلزال كبير هزّ الدنيا فانهدّت الدار على من فيها. وحين سحبوه من تحت الردم كان ضريراً ومات فقيراً وأمضى ما تبقّى من عمره يشحذ قوته عند الجامع ويدور شحّاذاً ذليلاً من دار لدار[1].

أما ستّي، فلجأت للرفو والماكينة. ففي ذاك الزمن من التاريخ وما خلّفته تركيا من فقر وقحط وأمّيّة، فقد كان الناس، حتى الوجهاء، يلبسون المرقوع والمدوّر ويخيّطون ملابسهم عند الخيّاط. وستّي الموهوبة الذكية بدأت بالرفو والترقيع ثم ترقّت وصارت تخيّط القنابيز والبراقع

---

١ ـ زلزال قوي ضرب نابلس عام ١٩٢٧ أودى بحياة المئات ودمّر أكثر من ثلثي المدينة.

وصارت مشهورة بموضتها وأناقتها والدرزة النظيفة المخفية من غير حواش مهملة أو قطبة نشاز. ومع ذلك، ظلّت تسترشد بضوء القمر وانكشاف السرّ عبر المرآة. لكنّ القمر والماكينة لا يستويان، إذ مع الوقت طغت الماكينة على المرآة ودخل القمر دائرة الظلّ وكذا ميراث آل قحطان.

جدّ الأجداد الشيخ قحطان

لم تكن ستّي سليلة عائلة صغيرة، بل كبيرة واسعة ممتدّة فيها المتعلّم والأمّي وراعي الغنم، يعني قبيلة. وكانت القبيلة لها أفخاذ، أيْ ذيول وأطراف وحواشٍ تصل مكّة، وواسعة باتّساع الصحراء حيث جاؤوا. وطبعًا ممتدّة ومديدة لأنَّ الأفخاذ إذ تتزاوج تبدو للعين مدملجة في أحسن حال. لكنَّ الحال ليس جميلاً بكلّ الأحوال لأنَّ المؤسّس ـ جدّ الأجداد الشيخ قحطان ـ جاء من الربع الخالي واستلم الخراج زمن الأتراك وصار من الخاصّة والأعيان. كانت له سحنة جادّة وعيون واسعة عسليَّة. كان جميلاً، طويل القامة، عريض المنكبين، وله صوت مثل المارد حين ينهر ويقول بحزم: شبّيك لبّيك. وهذا ما قال حين زاره والي السنجق في ذاك الزمن، زمن السلطان. رآه جميلاً فاستحلى الطول والصوت العريض ولون الناقة. كانت ناقته مسحوبة مثل سفينة ذات شراع يمخر في الأفق فيتلألأ مثل القمر في ليل بهيم. وليل البادية إذا تحلّك ينبت أشباحًا وشياطين.

كان الوالي في رحلة صيد فلم يصطد وحلّ الظلام فضلَّ طريقه وأرسل من يبحث عن مأوى وماء وطعام، فعاد الياور وقال بلهفة: سيِّدي العربان خلف الكثبان. ماء ونخيل وربابة وناقة بيضاء مثل القشطة وحليب الغنم. فالتفت الوالي لحاشيته وقال بهمّة: أبشروا يا رجال، سنجد هناك من يطعمنا ومن يسقينا وننام بعيداً عن الضواري ووحوش الفلاة. فخاضوا في الرمل حتى وصلوا ورأوا ناراً وأشجار نخيل، ورأوا نوقًا تقعي وتلوك خلف الماعز وقطيع غنم، ورأوا خياماً وصواري وبسطًا حمراء تلمع كالجمر خلف الموقد. انطلق نباح فوقف الراعي وهزّ بعصاه وقال للكلب: اركض، جيبه. فصاح الوالي: ضيوفك يا شيخ. من منكم شيخ القبيلة، من يقري الضيف؟

وقف جدّي، جدّ الأجداد الشيخ قحطان، وقال:

ـ أهلاً، شرّفت الديرة وحماها، أنا شيخ القوم وأنت الوالي، أليس كذلك؟

دهش الوالي وقال:

ـ أحسنت، فكيف عرفت؟

قال:

ـ من الياور والشاويش ونياشينك. الدار أمان، تفضّل، حوّل. طعام وشراب من خير اللّه وخير السلطان.

ونادى ابنه:

ـ اذبح يا سعد أغلى ناقة وأحضر ثريداً وتموراً وحليب النوق.

قال الوالي وهو يشمِّر عن أردانه ويغطس بالثريد حتى كوعَيْه:

ـ جازاك اللّه. كرم العربي لا يضاهى. جازاك المولى من خيره.

قال جدّي:

ـ خير المولى مثل المزنة فوق الصحراء تمطر ماء فيخضّر العشب.

قال الوالي:

ـ وهو كذلك، سيخضّر العشب، وبدل الناقة نوقًا وحميرًا وبغالاً وخراج المال.

وهذا ما كان، إذ بعد شهرين أو ثلاثة، كان جدِّي، جدّ الأجداد الشيخ قحطان، شيخ الناحية الصغرى ثم الكبرى ثم السنجق وخراج المال.

* * *

جدّ الأجداد الشيخ قحطان صار من العليّة والأعيان. كان يعتصر الفلاّحين ويذيق البدو مرّ الأهوال فأسماه الناس الشيخ قاحط. حتى أنَّ إمامًا من الأوقاف قال عنه في خطبة جمعة أمام الجموع: الناس بقحط ونحن بقحطين، يعني قحطان. وحين جيء بالشيخ كي يحاكم قال للدرك: أنا ما قصدت قحط الوالي، إنما قصدت قحط المولى جلّ جلاله لأنَّ الجراد لم يبق لنا عرقًا أخضر. قحط المجاعة وعرفناه ثم جاء الجراد ليمحقنا فصرنا بقحطين، يعني قحطان، هذا ما قصدت. أخلوا سبيلي. فأخلوا سبيله. لكنَّ الناس فرحوا جدًّا بذاك التعبير وصاروا يقولون لمن يبخل أو يتجبّر: أنت قاحط، أنت قحطان. ولمن انضحك عليه من التجّار والفلاّحين: أنت مقحوط، أنت مقحّط.

إذًا جدّي الشيخ قحطان صار وجيهًا ومن الأعيان فسكن المدينة وطوَّرها وبنى قصرًا يشبه قصور بني الأحمر في غرناطة فيه أعمدة وجنائن وبرك ومآذن وسراديب. كان السرداب لحبس الأشرار، أي لمن لا يلتزم بدفع الضريبة والجزية أو يتمرَّد على حكم الوالي والسلطان. وكان السرداب مثل مغارة طويلة كالنفق عند المدخل وتمتدّ طولاً تحت الأرض حتى تصل سفح جرزيم. كان من يدخل في السرداب لا يخرج منه إلاّ للقبر فأسماه الناس بحبس الدم. وحبس الدم صار لقبًا يطلق على الشارع برمّته ليومنا هذا. فإذا مررت بحبس الدم وأنت قادم من باب الساحة وخان التجّار تجد المذكور على يمينك في ذاك الزقاق لأنَّ الشارع صار زقاقًا مع مرور الزمن واتّساع المكان. صار الناس بمئات الألوف، وصارت نابلس أمّ السنجق مدينة بقضاء وفلاّحين وزيت وزيتون وجبنة غنم وصابون شهير، وصارت شوارعها مرصوفة ببلاط ناعم للعربات وبغال الجيش والبلدية، وصارت بجنود بتنانير من اسكتلنده وإيرلندة إضافة إلى الهند وأستراليا وسود السنغال. وكذلك صارت بحاخامات جاؤوا من روسيا وبولندة ثم أميركان. لكنَّ الأميركان تأخَّروا جدًّا، أو بعض الشيء، لأنَّ الإنجليز ظلّوا في البلد حتى داخت وصارت بيهود بعد الجراد والمجاعة والشيخ قحطان.

* * *

الشيخ قحطان ليس فريداً، فمثله أمثال. قبيلة قحطان في المدينة صارت عائلة كبيرة، عريقة جدًّا، ذات أركان وزوايا. ومثلها في العراقة والهيبة وخرّاج المال عدد محدود من العائلات وكلُّها تمتدّ إلى مكّة

والنسب الشريف والصحابة والحسن والحسين. أما جدّي، فهو قحطان ابن قحطان يضاهي الآخرين حسبًا نسبًا لأنّه أيضًا من أصل شريف وامتداد الرسول. وهؤلاء، كلّ هؤلاء، صاروا الأعيان والقادة بمرور الوقت، وتوارثوا الألقاب والوظائف وحتى الأوقاف أبًا عن جدّ، وأيضا توارثوا حروب الغبراء والتنافس على كسب ودّ من حكمونا بدءا من الأتراك وبريطانيا حتى أميركا وأبناء سام. لكن للحقّ كان منهم من ضحّى لنا، وآخرون من ضحّوا بنا لدرجة أن بن غوريون، شيخ اليهود، قال يومًا إنّ باستطاعته شراء أكبر عربي مهما تكبّر. وهذا للحقّ قول مردود على قائله لأنّ المذكور هو الآخر لبس الطربوش وخدم السلطان وتذيّل له وتغزّل به قبل أن يعلو ويتربَّع على عرش اليهود. وكذلك وايزمان ذو المقام الرفيع قال عن الشيوخ ما قال ذاك. قال عن القادة والأعيان ما أكّده بعض الشعراء والموثوقين في ذاك الزمن، زمن التشهير، وما أكّدته الوثائق وصكوك البيع. لكن بالرغم من كلّ ذاك البيع وتلك السرقات، لم يرقَ أحد من العربان إلى ما وصل إليه أبناء سام إذ سرقوا بلدًا بأكملها، بكلّ قراها، بكلّ مدنها، بالدور، بالعفش وحليّ النساء. وكلّ ما قيل عن الشيخ قحطان وأمثاله يعدّ غبارًا إذا ما قيس بما فعله شيوخ اليهود بأبناء الرسول والشيخ قحطان.

زلزال كبير هزّ الدنيا وعيلة قحطان

انهدمت دار آل قحطان على من فيها ومات كبيرها وهو شحّاذ وأعمى ومقطوع بلا ذريّة، ولم يبق له من أصل وفصل إلاّ ستّي وأخاها الغبي ذا العيون الزرقاء الخابية مثل الإفرنج. فأرسلت ستّي في طلبه حتى يتقاسما بقايا الميراث فلم يجبها. كان قد سافر إلى مكّة في بعثة حجّ كمرافق فالتقطته امرأة غنيَّة من الحجاز وتزوَّجته لأنَّه كان جميلاً وكانت بشعة. لكنَّها كانت أذكى وأغنى وأهمّ فجعلته مهمًّا بعد خمول، وجعلته غنيًّا بعد الفقر، وأنجبت منه دستة أطفال فترسَّخ وكبر وانتفخ ونسي أصله. وهكذا حين جاء ميراث ذاك العمّ وهو عبارة عن دار مهدَّمة وحاكورة وبابور طحين لم يكلِّف نفسه عناء الردّ أو حتى السؤال. كيف لا وهو لم يسأل عن أخته وما حلّ بها بعد الرملة وعن مدينته بعد الزلزال وعن أهل الحيّ وعن أهله! فرأت ستّي أنّ اللّه قد كافأها واستدّ لها من ذاك العمّ بأن جعلها الوريثة الوحيدة لأملاكه بما

فيها بقايا الدار والحاكورة وبابور الطحين. وحين أجالت النظر في تلك الدار وجدت أنَّ الزلزال قد أبقى منها على غرفتين في وضع سليم قابل للسكن وبابور طحين مليء بالشعشبون والعناكب وبعر الفئران. أما الحاكورة فما زالت ـ رغم الإهمال ـ تنعم بعبير زهر النارنج والياسمينة فوق البركة وأنقاض الدار. فنادت بكرها وقالت: يا وحيد، تعال يا ابني، هذه الدار صارت لنا والحاكورة وبابور الطحين. سنقيم هنا.

نظر حوله ورأى الأنقاض فقال بدهشة:

ـ هذي خرابة!

قالت بحزم:

ـ هذه الدار سنصلحها والحاكورة سننظّفها وبابور الطحين تديره أنت.

كان الولد ما زال في الثالثة عشرة من عمره وكان ما زال يقرأ عند الكتّاب ويفكّ الخطّ. ومن حسن الحظ أنَّه لم يرث ذكاء خاله فحفظ الفاتحة وجدول الضرب وبعض الأشعار.

قال لها وهو يفكّر:

ـ طيِّب الدار سنصلحها، والحاكورة سننظّفها، أما البابور فكيف أشغِّله؟ أنا لا أعرف.

قالت بحزم:

ـ تعال يا ابني، تعال معي. في البداية تشتغل عند الطحّان حتى تتعلَّم أصول الطحن وتحصل على أجر يساعدني لأنَّ الخياطة لا تأتينا إلا بقروش.

هزّ الولد رأسه بدون تعليق إذ كان يعرف رغم صغره أنَّ العائلة بحاجة إليه فهو الأكبر، أما الباقون فما زالوا أطفالاً بلا قوّة، يعني قصّرًا، يعني أيتامًا. وحتى هو كان قاصراً ورقيق العود إلاَّ أنَّه كان ذكيًّا وكان قد تعلَّم عند الكتّاب. وفي ذاك الزمن، بضع سنوات عند الكتّاب كانت بمقام البكالوريوس. وهو وقد بات يتيمًا ولديه أمّ قادرة تفتح بالقمر وتحلم أحلامًا لها معنى فقد أحسّ أنَّ الأقدار قد اختارته ليقوم بأعمال هامّة. وهكذا هجر الكتّاب وبدأ يعمل. يحمل أكياس القمح على ظهره وينقلها من هنا لهناك ومن تحت لفوق. وبعد شهرين بدأ يطحن. وبعد سنة أدار البابور. وبعد سنتين فكّ البابور وأصلحه وزيّته وجعله يدور مثل الساعة. ورث الموهبة عن الوالد، لكنَّه بات أقوى لأنَّه مسنود بأمّ مكشوف عنها الحجاب وبجدول ضرب تعلَّمه عند الكتّاب. أما ستّي، فقد استمرَّت في تحصيل القرش من الخياطة ورقع القنابيز. وحين رأت أنَّ ابنها بدأ يشتدّ وبابور الطحين بدأ يخسر لأنَّ اليهود بدأوا يتوافدون على الساحل ويحضرون مطاحن حديثة وسيّارات تمشي على النفط قالت لابنها: نبيع البابور ونشتري سيّارة تشغّلها على خطّ حيفا. وكان السائق في ذاك الزمن له هيبة مثل الطيّار في هذا الوقت. أما السيّارة فأعجوبة مثل الصاروخ وسفن الفضاء. وهكذا حين عاد إلى نابلس يسوق الشفروليه على تراب الأرض وبلاط السوق وقف الناس يتفرَّجون على الحنطور العجيب الغريب الذي لا ينجرّ بأيَّة دابّة بل يمشي وحده من غير حصان! أما وحيد فقد جلس خلف المقود ينظر إلى الناس باعتزاز عظيم وهم يلمسون مقدّمة الحنطور وينفضون أيديهم ويقولون: سخن!! وينادون بعضهم بعضًا ويقولون: عمرك شفت

حنطور بلا حصان؟ فيقول: لا. ويقترب من الحنطور ويجسّ مقدّمته ويقول: سخن! سبحان اللّه. عشنا وشفنا. اللّه ينجّينا من الأعظم. شو يا وحيد، منين هالفنون؟

فيقول وحيد بكبرياء:

ـ هذا من هناك، من الساحل، من الإنجليز ومن السكناج.

ـ أيّ سكناج؟

ـ سكناج جايين من أوروبا، يعني لاجئين مثل الأرمن.

ـ مثل الأرمن؟ يعني مساكين!

ابتسم وحيد وقال بهزء:

ـ اليهود مساكين؟!

وأجال عينيه في الشارع، شبه شارع، شبه دكاكين. فقر وذلّ وتعاسة ورقع قنابيز. وخبز أكلوه من مطحنته ببعر الفئران والعناكب وبيض الصراصير. وأطفال يدورون في الشارع حفاة عراة وبمخاطة. فقال بإشفاق: نحن المساكين!

وعاد يمخر بالشفروليه ليرى الدنيا بعين أخرى عند اليهود والإنجليز على الساحل. كان اليهود يتمركزون في مجموعات حول يافا، حول حيفا، حول عكّا وصفد والجليل. كانت موانئ مفتوحة على العالم بفعل التجارة والاستيراد وبعض الوجهاء ممّن خدموا عند الأتراك وتعلّموا في الآستانة، وكذلك بعض الجاليات الأجنبيّة والرهبان. هناك وجد اليهود بيئة مناسبة للاستيطان فاستقرّوا. أما العرب، وقد خلفتهم

تركيا شبه معاقين بعد أن امتصّت دماءهم واقتنصت خيراتهم وشنقت رجالهم وساقتهم لحروبها مثل الأغنام فقد كانوا قطعانًا مشتّتة ينهشها الفقر. لكن طبعًا، بفضل الإقطاع، هناك أحياء ومبان إن مررت بها في ذاك الوقت تحسّ أنَّك في الآستانة عاصمة الكون. لكنْ الآن، وقد باتت الخلافة مهدّدة بغريم جديد، فقد تراجع العزّ وتآكل ونخر السوس أعمدة الحكم فدخل الإنجليز على أرض تمور بالثورة وترحّب بالغزاة الجدد وتساعدهم ليجيء الخلاص. ومن المفارقات وسخريات القدر أنَّ الخلاص ما جاء لهم ولا وصلوا إليه. إذ إنَّ الإنجليز، وقد أصبحوا الأولياء والمنتدبين على القصّر ومال الأيتام فعلوا ما فعله كبير العيلة حين خان الأمانة وأكل الميراث ونسي الموضوع. وهذا ما كان. إذ إنَّ الإنجليز حين ورثوا ما آل إليهم من الأتراك لينتدبوه ويحرّروه ويطوّروه، تصرَّفوا به تصرُّف الملاّك والسادة، فصالوا وجالوا وأخذوا وأعطوا واقتسموا الغنائم وباعوها ووعدوا العرب ثمّ اليهود ثمّ فرنسا. وبهذا كان وعد بلفور وسايكس بيكو ثمّ الدولة، فوق ميراث كومة أيتام.

فصـــل

بعد اندحار الآستانة ومجيء اليهود، اهتزّ اقتصاد عيلة ستّي إذ بات القنباز موضة قديمة. ما عادت ترفو أو ترقّع فاختلّ الدخل. ابنها وحيد ظلّ يكافح حتى لا ينهار ويهزمه اليهود. لكنّ اليهود طبعًا أشطر، إذ جاؤوا بأموال ومعارف ولغات أوروبيّة - أميركيّة ومهندسين من كلّ لون وجنسيّة فحدّدوا شكل الشارع ولغة الكوشان. وكان بلفور ينفّذ وعده والجنرال أللّنبي يحابي اليهود وذاك المندوب، غير السامي، جاء ليتأكّد من الموضوع. وبالفعل تأكّد من أنّنا بالكاد نفكّ الخطّ وأنّ العرب صاروا بملوك ومخاتير وأنّ العروش باتت تحكم والشعب ينخّ. وهكذا صرنا بلا ظهر يحمينا وما من غطاء لهامتنا إلاّ الطربوش ولباس الستّ. ولحسن الحظّ، بسبب التغيير، بات الطربوش، وكذا الغطوة، أهمّ مصدرين لتحسين الرزق. فركبت ستّي تلك الموجة وبدأت تخيّط ما يسترهم، أقصد بالذات لباس الستّ.

في ذاك الزمن، زمن التغيير، عاد أخو ستّي من مكّة. بعد وفاة زوجته السعودية عاد محمّلاً بما تركته من ذهب وجواهر ومنقولات واشترى سرب مراكب بخاريّة تنقل الحمضيات إلى أوروبا وتعود

محمَّلة بالبضائع وما لذّ وطاب من مأكولات. كان قد بات ثريًّا فاشترى بيّارة حمضيات وبنى بيتًا جميلاً في الكرمل وجعل من أسطوله أسطورة فبات اسمه على كل لسان.

رغم غناه، لم يتقدَّم أحد لخطبة بناته أو يجرؤ أحد على مصاهرة ابنه. كان ابنه قد ورث شكل أمّه وذكاء أبيه فخرج إلى الدنيا مزوَّدًا بأغرب ميراث وأقبح خلقة. كان بطرًا متبطلاً بجبين ضيّق وأنف شاهق. يسهر للصبح وينام للظهر ويضاجع الجنكيّات واليهوديّات وينثر النقوط على رؤوس الراقصات ويشعل السجائر بورقة العشرة جنيهات. كانت سمعته لا تحمد، لكنَّ أباه لم يرَ فيه إلا غزالاً شاردًا قلّ نظيره. كان إذا قيل له: ابنك فالت، يقول بثقة واعتزاز: خلّيه يشبع.

لكنَّ الولد لا يشبع ولهذا لم يفلح مع ذوات العفاف. إذ بعد أن خطب ابنة عائلة عريقة ضبطه أبوها في ماخور ينثر النقوط على أقدام الراقصات ويشعل سيجارة لغانية بورقة العشرة جنيهات ففسخ الخطوبة وكتب الكتاب. منذ ذاك الحين سُدّت في وجهه أبواب العائلات وحُجبت عن عينه كلّ المصونات فعاد إلى المواخير ينهل ويعبّ ويتدحرج حتى التقطته غانية يهوديّة لجمت جماحه وجعلته ينخّ. علم أبوه بالأمر فبدأ يقلق ويلتمس النصح من الأقارب والأصدقاء فقيل له: الحق بابنك وزوّجه قبل أن يجعلك نسيبًا للنور والسكناج. وحين فشل في إيجاد واحدة محترمة ترضى بابنه تذكّر ابنة أخته فجاء متودِّدًا يطلب الرضا والقرب بعد أن كان مترفِّعًا مبتعدا متمنّعًا بدون عواطف.

استقبلته أخته بالحفاوة والحماس المضاعف. فها هو يطلب ابنتها المتواضعة لابنه الغني الثري ابن العزّ والمستقبل البهيّ. وقد كانت تتخوَّف أن يطالبها بميراث عمّهما فلم يفعل. أشار إلى الموضوع بطرف خفي وقال مواربة بما معناه أنَّ ذاك الميراث لا يُذْكر قياسًا بما سيكون لدى ابنه وبناته بعد عمر طويل. وكان لذاك التلميح أثره البليغ إذ إنَّه يشير إلى ما لدى بناته البائرات من مواهب وإمكانيات فانتبهت. صحيح أنّهنّ غبيّات شبه معاقات ويلدغن بالسين وينثرن الكلام بشكل مضحك، إلا أنّهنّ مدجّجات بالذهب والألماس واكتناز العجول. فإذا أخذت واحدة منهنّ لابنها وحيد تكون قد اصطادت عصفورين بحجر واحد. تكون قد ضمنت لابنتها عشًّا راسخًا بزواج البدل، وضمنت لابنها أدسم ميراث وأرقى زيجة.

حين زفّت الخبر إلى الأولاد انبرى الأوسط ليدافع. قال إنّ أخته ليست سلعة وإنَّ الاقتراب من ذاك الخال ليس مزية، فخاله معروف بالجشع وافتقار الذكاء، وابنه معروف بالاستهتار وسوء الخلق، أما بناته فغبيّات بطرات ويخربشن الكلام ويقلن عن السين ثين. قال أمين ذلك فبدأ الصغير يقلّدهنّ ويجعل منهنّ أضحوكة. نهرتهما الأم وحذّرتهما من التفوُّه بمثل ذاك الكلام أمام وحيد، فوحيد هو المسؤول عن العيلة وأمور الزواج. أليس هو المسؤول عن شؤون الدار ورزق الأيتام؟ لوى أمين شفتيه وغادر الدار وهو يتمتم، وعاد الصغير لدروسه، وعادت هي للاستماع لأخيها وما يسرده على سمعها من معجزات وأعاجيب قام بها مذ فارق نابلس أم الهمّ - كما كان يسمّيها - وجال في بقاع الأرض وتبرّك من بئر زمزم.

قال بإيجاز:

- رحمة اللّه عليها. تركت من المال ما لا تقدر على أكله النيران. كانت محترمة ووقورة. كانت تصلّي وتصوم ولا تقطع فرضًا. الحمد للّه فقد ورث أبناؤها ورعها وتقواها وكلّ ما تركته من أملاك. سبحان اللّه! من كان يظنّ أو يتوقّع أنّي سأعود من الغربة بكلّ هذا العزّ والثروة؟ وقد كنّا نظنّ هنا في نابلس أنّ عمّنا كان أغنى من كلّ الناس! عمّك يا زكيّة يا أختي، إذا ما قيس بأموال شيوخ السعودية وذهب البترول ما كان أكثر من شحّاذ. عمّي وعمّك، ذاك النصّاب، أنسيت ما فعل بميراثك ورزق الأيتام؟

هزّت رأسها وقالت بأسى:

- لا تجوز على الميّت إلاّ الرحمة.

- إلاّ الرحمة! وهل رحمك ورحم الأيتام؟

رمقته بنظرة مستغربة من ثلامته وقلّة حساسيّته، فهو لم يسأل عنها وعن أولادها طوال سنوات. وها هو الآن يذكرها ويذكّرها. الآن احلوّت في عينه! لماذا؟ ما السبب؟ بسبب ابنتها؟ أو ربما بسبب بناته؟

قال بحماس:

- ابنك وحيد ما شاء اللّه، جدع ومسؤول ولا ينقصه شيء. لو يطلب أحسن واحدة في الدنيا تقبل على طول، بدون تردّد.

هزّت رأسها وقالت بأسى:

ـ هو من سندني وواساني بعد المرحوم. نزل للشغل وهو ابن ١٣. حمل أكياساً على ظهره مثل العتّال ودوّر بابور عمّي وعمّك مثل الرجال وبعدها ساق السيّارة.

صاح مستغرباً:

ـ أيّ سيّارة؟ يعني سوّاق؟ بكرة أخلّيه أحسن قبطان. ويمكن إذا اللّه وفقنا نشتري بواخر. إبني وابنك يا أمّ وحيد شباب زيّ الورد. جمال ومال وصحّة وعافية وذراع من حديد. أي نعم إبني دلّوع وناقص شدّ، لكن لمّا يشتغل مع ابنك يتعلّم منه أصول الشغل ويصير قبضاي. أنا متأكّد. أولادنا يا أختي حيلتنا وزينة الدنيا. إذا أنت وأنا وجّهناهم ولمّينا الشمل ممكن نصير أحسن عيلة ويرتاح البال، صحيح وإلاّ لأ؟

هزّت رأسها باقتناع شديد:

ـ آ واللّه صحيح.

ـ طيّب إذن نقرأ الفاتحة.

ثم حدجها بنظرة فاحصة مشحونة:

ـ أو الفاتحتين؟

فهمت قصده لكنّها ظلّت صامتة تفكّر بقلق وشرود. أعاد السؤال:

ـ نقرأ فاتحة ابنك وبنتك؟

ـ طيِّب يا أخي لـمّا أشاور.

ـ أنت المسؤولة وست الدار!

قالت مفسِّرة معتذرة:

ـ صحيح يا أخي، لكن وحيد بدل المرحوم وكبير الدار. وحيد يا رشيد اللّه يخلِّيك ويديم عزّك كبير ومسؤول، ضروري يوافق.

ورمته بنظرة مطمئنة مشجّعة:

ـ طبعًا المسألة شكليَّة لأنَّه يوافقني على أيّ شيء. لكن ضروري آخذ رأيه. صح وإلاّ لأ؟

هزّ رأسه بتفاؤل:

ـ طبعًا، طبعًا، هذا الولد ما شاء اللّه، شاطر وموزون وكلّه رجولة. أنا متأكِّد يا أمّ وحيد لـمّا يعرف كلّ التفاصيل لازم يوافق ونقرأ الفاتحة، وبإذن اللّه الفاتحتين.

لم تعلِّق وظلَّت صامتة تفكِّر بأمل مشوب بالخوف. فالعرض هامّ ومغر جدًّا. صحيح أنَّ ابن أخيها سخيف ودلّوع وقبيح الشكل، إلاَّ أنَّه غنيٌّ جدًّا وسيحيل ابنتها إلى ملكة تغطس بالعزّ. وتلميح أخيها إلى ابنته والفاتحتين يعني اشتراط زواج البدل. فهل يرضى وحيد؟

وافق وحيد بفضل تشجيع أمّه وحماستها. قالت له:

ـ رشا يا وحيد بيضا وشقرا مثل أبوها. تلدغ بالسين لدغة خفيفة يمكن من الدلع وزيادة العزّ. لكن لمّا تصير عندك في البيت ممكن تربّيها على كيفك. وأخوها رشاد صغير ودلّوع وبكره يكبر ويصير مسؤول. أنت لما تشتغل مع خالك ممكن تعلّمه على كيفك، يعني الإثنين خام بلا خبرة وممكن تربّيهم على إيدك.

هزّ وحيد رأسه وقال بأمل:

ـ على بركة الله. خالي وأولاده على راسي، خير وبركة.

بالنسبة له، كلّ الناس خير وبركة ونواياهم طيِّبة مثل نيّته. كان خجولاً طيِّبًا وبقلب أبيض لا يعرف اللفّ ولا الدوران. كان لا يرى سوى الجانب الطيِّب من الأشياء. وبما أنَّه لم يتعلّم فقد ظلّ عقله محدودًا وبنظرة سطحيَّة وبسيطة. ربما لهذا السبب أحبّه كلّ من تعامل معه أو اقترب منه. كان صادقًا مستقيمًا قليل الكلام كثير العمل. كان يعتمد على نفسه ويثق بأمّه، فقد علّمته الدنيا منذ الصغر أنَّه قادر على القيام بأيّ عمل مهما كان فنشأ عصاميًّا كادحًا لا

يعرف التعب ولا يكلّ من حمل الأثقال. كانت أمّه هي مدرسته، وكان يراها تعمل وتكدّ بالخياطة لمنتصف الليل، فتعلَّم منها أن يضع قلبه وعقله في عمله ولا يلتفت إلى ما يدور حوله من مناورات ومناوشات تنتجها العلاقات بين الناس. وما زاد في عزلته ومحدوديّته هو أنَّ ما قام به من أعمال لا يتطلَّب الاحتكاك المتواصل بالزبائن والناس. فهو مع البابور ومندمج فيه سواء في المطحنة أو في كراج السيّارات. كان العمل هو موهبته وفيه تجلَّى وأبدع ونجح. ولهذا حين فاتحته أمّه بمخطَّط خاله لم ير من المشروع إلا الجانب العملي منه. فالزواج بالنسبة له أمر طبيعي لا بدّ منه، وابنة خاله أحقّ من الغريبات. وإذا كانت تلدغ بالسين فلا ضَيْر عليها، فلتلدغ بالسين كما شاءت طالما أنَّها ستحبل وتلد وتنجب أطفالاً أصحّاء يرثون عنها الصحّة والجمال والأصل الطيّب.

قال له أخوه أمين موعّيًا:

- وإذا ورثوا الغباء والتياسة؟

نهرته أمّه وقالت:

- عيب يا ولد تقول مثل هذا الكلام عن بنت خالك.

- بنت خالي صحيح، لكن غبيَّة ودلّوعة وتلدغ بالسين.

- ومين قال ناخذها لتتوظّف؟ البنت حلوة وصحّتها عال، بكرة تجيب له دستة أولاد.

- أولاد بعقل مثل المحروس؟

ـ ماله المحروس؟ بكره يكبر. أشكر ربك. هذي نعمة. نعمة من السما نزلت علينا لتعوّضنا عن الشقا وأيام الفقر. الدنيا بكرة تتغيَّر ويصير أخوك زيّ البكوات.

ـ طيِّب وأختي؟

ـ مالها أختك؟

ـ نعطيها لواحد ما يسوى..؟!

حدجته بنظرة هازئة، إذ إنَّ رشاد، ابن أخيها، يسوى جداً. صحيح أنَّ الولد «داير وداشر» كما قال الناس، لكنَّ الولد ما زال صغيراً وسيكبر. هذا الولد سيكبر حتماً كما قال أبوه. قال الزواج سيكبِّره والشغل مع وحيد سيجعله يسير مثل الساعة.

سألها بغضب واستفزاز:

ـ استشرت وداد؟

بهتت الأمّ وانتبه وحيد فردّت بوجوم:

ـ البنت صغيرة ولا تعرف مصلحتها.

ابتسم بسخرية فصاحت بغضب:

ـ أنا أدرى منك بمصلحتها. روح لدروسك.

فخرج من الغرفة وخبط الباب.

لم يستشرها أحد. كل ما قيل لها أثناء العشاء أنَّ خالها الغني طلبها لابنه رشاد وأنَّ وحيد سيكون معها ويتزوَّج من ابنة خاله. وانتقلت الأمّ مباشرة لتعدِّد مآثر ذاك الخال وكرم نفسه لدرجة أنَّه لم يسأل عن تركة عمّها وعن حصّته في إرث الدار.

غمغم أمين وهو يأكل: عنده بدل الدار عشرون! فقاطعته الأم قائلة إنَّ لدى الخال دوراً ومخازن وبيّارات. ولديه قصر في الكرمل وخدم وحشم وسيّارات. ولكزت ابنتها وقالت بحماس: بكرة تصيري زيّ الملكة وتغرقي بالعزّ.

ابتسمت البنت وطأطأت رأسها وهي تأكل ولم تعلِّق بل فتحت أذنيها لتسمع المزيد عمّا سيكون، إلاّ أنَّ الحديث توقف عند ذاك الحدّ وكأنَّ المسألة منتهية. فقامت عن الأرض وحملت ما فرغ من الصحون وخرجت على رؤوس أصابعها حتى لا تخدش جوّ الصمت.

مرّت أمام مرآة الممرّ فلمحت شبحها الشاحب على ضوء قنديل البيرو فتوقَّفت لحظة ثم أسرعت كي لا يراها أحد، إذ إنَّ النظر في المرآة قد يفسّر بعدّة أشياء. فماذا يقولون لو رأوها تفعل ذلك؟ ماذا يقولون؟

كان قول الناس هو المحور. الناس هم، أيْ إخوتها وأمّها والحارة والجيران. الناس هم، هم يقولون وهي تسمع. هم يطلبون وهي تلبّي. هم يأمرون وهي تنفّذ. يقول وحيد وهو ينظر بعيداً بلا تحديد: يرضى عليك شربة ميّه. فتقوم لتحضر كوب الماء. ويقول أمين: أختي حبيبتي بدي آكل. فتقوم لتجهز له الأكل. تقول الأم: ناوليني المقصّ والقطي حواشي هذا الفستان. فتفعل بالضبط ما قيل لها.

لم تفعل مرّة ما يحلو لها أو تطلب شيئًا يلزمها. كانت الأمّ تزوّدها بكلّ ما يلزم وتقول عنها كل ما يقال ولهذا اعتادت عدم السؤال. حتى في المدرسة، كانت لا تسأل أو تضحك بصوت عال. كانت تبتسم إذا سُئلت ولا تجيب إلا بغمغمة مفهومة أو غير مفهومة فقيل عنها «عاقلة وآدمية وعلى البركة». وأحيانًا يقولون «طبطوبة» أيْ لا تفهم. لكنّها تفهم ما يقال إذا ما قيل بشكل واضح. أما الإشارات والتنويهات والغمز واللمز فتلك أشياء لا تعرفها ولا تلقطها ولهذا أسموها «الطبطوبة».

حين بلغت، وكانت قد أكملت الصفّ الرابع، أخرجتها الأمّ من المدرسة وخاطت لها غطوة وإزاراً أسودين لتلبسهما حين تخرج معها للزيارات أو لشراء الأقمشة والحاجات. ونادراً ما حدث ذلك. فظلّت الغطوة على حالها شبه جديدة، وكبرت رجلها على الحذاء ولم تستعمله إلاّ حين خرجت مع أمّها وبعض الجارات إلى حمّام البلد. تلك الزيارة لم تتكرّر، واختبأ الحذاء في الخزانة حتى كبرت رجلها وبات صغيراً فقالت أمّها: سبحان اللّه، رجلك كبيرة زيّ أبوك! فهربت من

المرفة إذ اعتبرت أنَّ كبر القدم عند المرأة ليس جميلاً، بل هو دليل الفظاظة وقبح التكوين.

على أيّة حال، لم تكن جميلة ولا جذّابة. كانت شاحبة رقيقة بعود ضامر وضفيرتين نحيلتين وصدر ممسوح. لم ترث الجمال عن أمها وقوّة الإرادة والشخصيّة. وربما كانت شخصيَّة أمّها الطاغية السبب الرئيس في ضمور شخصيَّتها وعدم نموّها، فظلت مركونة على الهامش في ظلّ الأمّ. وظلَّت الأمّ تعاملها بصيغة النفي حتى بلغت. حينذاك احسَّت أنَّ لديها أنثى تحتاج للرعاية واهتمام خاص فخاطت لها غطوة سوداء وإزاراً وأخذتها لحمّام البلد مع الجارات. لكنَّ شحوب ابنتها وضمور الصدر والردفين أثارا تعليقات بنات الجيران فاحمرّت البنت وأُحرجت الأمّ وتوطّد لديها إحساس راسخ بأنَّ ابنتها ليست حلوة ولن تجد من تتمناها زوجة لابنها فأغلقت الباب وظلّ الحذاء في الخزانة، وكذا الغطوة شبه جديدة. لهذا، حين جاء الخال وطلب الفتاة لابنه طار عقل الأم ونسيت، أو تناست، كل المحاذير وشجّعت الابن على زواج البدل حتى تضمن زواج البنت، وتضمن الغرق في بحر العزّ.

كانت في الخامسة عشرة حين كتبوا الكتاب. ألبسوها الكعب العالي وحشوا صدرها وغطّوا وجهها كي يراها الشيخ ويتأكّد أنّها ناضجة بالغة تصلح للزواج. أما ابنة خالها، وكانت طبعًا أكبر حجمًا وأكبر سنًّا، فما كانت بحاجة لذاك الحشو. وقفت بكامل قامتها تحت الغطوة، بثقة تامة، وقالت «وكّلت» فقال الشيخ «على بركة اللّه». وكتبوا الكتاب.

حين كشفت عروس وحيد النقاب عن وجهها أصيب برجفة كالزلزال. بياض الوجه مثل القشطة ولون العينين الدعجاوين جعلاه يهيم في بحور الشوق ويتلهّف على لمسة يد. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يرى امرأة قريبة ـ غريبة مكشوفة الوجه أمام عينيه. كان يرى اليهوديّات في شوارع حيفا ويافا فيحسّ أنّه يشاهد جنسًا آخر من عالم لا يمتّ لدنيانا أو دنيا البشر بأيّة صلة. كنّ مكشوفات الوجوه والأرجل وبلا أكمام لكنّهنّ لا يثرن الإحساس أو الشهوة. كنّ غريبات. كنَّ بعيدات. كنَّ بلا جنس. أمّا هذه، ما شاء اللّه، فلديها صدر من مرمر ووجه كالبدر ثم عجيزة تدير الطاحون. كان الجمال في ذاك الوقت

يقاس باللحم والشحم والبياض الوفير. وكان لديها ما يوصف بكامل الأوصاف. لكنَّها حين فتحت فمها لتتكلَّم أصيب بخيبة أمل لم تستمرّ إلاّ لحظات ثم تناسى.

أما ابن خاله رشاد، فحين رفع النقاب ورأى أمامه طفلة صغيرة ممسوحة الصدر رغم الحشوة، شاحبة الوجه رغم الحمرة، وبلا تعبير، أصيب بخيبة أمل شديدة فلوى بوزه ونظر بعيداً وأخذ يتمتم بالشتائم ومسبّات الدين لمن كان السبب في ذاك الفخّ. أما أبوه، وكان المقصود، فكان سعيداً يضحك بحبور ويسلّم بكلتا يديه ويغدق على المهنّئين أحلى الألفاظ. كان ما زال في الخمسينات وما زال يحتفظ بقوّته وجثّة ضخمة، وهذا ما أورثه لبناته. أما ابنه، فصغير البنية ضئيل الحجم مثل أمّه، ولونه بنّي على أخضر وبأنف ضخم. كان قبيحا، وهذا ما أسعد عمّته ـ أيّ حماته ـ لأنّها رأت أنَّ ابنتها، قياساً بدمامة عريسها، جميلة جدًّا وتليق له ويليق لها. أما هو، وكان قد اعتاد النوريّات وغنج وحلاوة اليهوديّات، فرأى بنتًا لا تحظى بذوقه ومزاجه فقرّر من فوره أن يهجرها ويتزوَّج عليها في أقرب وقت.

قال أبوه بتهديد خفي: أوعى تنجنّ وتغلط معها. تذكَّر أختك. فتمتم بكلمات غير مفهومة ولبّسها الخاتم وهو ينظر يمنة ويسرة وإلى أخته التي كانت تجلس إلى جوار عروسه وتملأ الكرسي بحضن واسع ووجه كالبدر، وكانت تبتسم بسعادة. أمّا عروسه، فكانت مجفلة خائفة تنظر للجمع من تحت لتحت ثم تركّز على ذهب الشبكة في يديها دون أن تعير العريس أيَّة نظرة أو تقول له أيّة كلمة. كانت تنتظر

أن يقـول لهـا مـا تجيب عليـه. لكنّه لم يقل إلاّ «إمسكـي هذه»، وهو يناولها علبة الذهب المخمليَّة ويفكّ الزردات ويغلقها حول معصمين رفيعين مثل العيدان.

شبكة العرسان كانت فخمة. الخال اشترى الشبكتين كنقوط منه. وكان الاتفاق على أن تتمّ الخطوبة وكتب الكتاب في احتفال بسيط في نابلس على أن يحتفل بالعرس المزدوج في حيفا بعد أشهر. في تلك الأثناء تقوم العروستان بشراء الجهاز، ويقوم وحيد بترتيب أموره العمليَّة والعائليَّة بحيث ينتقل إلى حيفا دون إرباك. وهكذا، في ذاك المساء، بعد أن انفضّ الجمع وغادر أهل حيفا إلى حيفا واختلى وحيد بأمّه، قال لها بقلق واضح إنَّ انتقالهم إلى حيفا سيكون صعبًا على الجميع لأنَّ التغيير سيكون كبيرًا وأكيدًا. فقاطعته بسرعة وثقة:

ـ أنا وإخوتك نظلّ بدار العيلة وأنت وأختك عند خالك هناك. حيفا قريبة، كلُّها ساعتين أو ثلاثة وأكون عندكم. أنا قلبي عليك مطمئنّ، لكنَّ أختك...

وتلفّتت حواليها وقالت همسًا:

ـ وداد يا وحيد مسكينة، وهذا الولد، ابن خالك...

هزّ رأسه وسأل بقلق:

ـ يعني غلطنا؟

نظرت بعيدًا وهمست بخوف:

ـ أنا خايفة عليها من الدنيا! البنت صغيرة ومغمّضة.

وصمتت لحظات ثم عادت لتقول بلهجة اعتذارية كما لو كانت تبرِّر فعلتها:

ـ أنا خفت عليها تتعنّس. أنت عارف...

وكانت تقصد أنَّ شكل وداد ليس جميلاً، وأنَّ ذاك الشكل لا يؤهّلها للحصول على حظٍّ أفضل. لكنّ الولد ابن أخيها لم يبادل ابنتها أيّة كلمة. سألت وحيد إذا كان قد لاحظ ذلك فهزّ رأسه نفيًا وظلّ صامتًا لأنَّه لم يلحظ ولم ينتبه، فقد كان مشغولاً بعروسه يتأمَّلها ويبتسم لها وتبتسم له ويتحيَّن الفرصة ليقول لها كلمة من هنا وكلمة من هناك في غفلة عن جموع النسوة المحتفلات. في ذاك الجمع، وصوت الفونوغراف يلعلع بأغنية مصريَّة، وصوت النسوة، وعدد كبير من الأطفال، وانشغاله التامّ بعروسه، لم يلحظ ما كان يدور إلى جانبه وجانب أخته، فسأل بفضول:

ـ يعني ما قال لها ولا كلمة؟

قالت بقلق:

ـ ولا حتى ابتسم.

حدَّق في وجهها يتفحَّصها فقالت بأسى:

ـ ولا نصّ كلمة.

بعد كتب الكتاب لم تذق النوم. كانت تفكّر بالعريس، ماذا سيقول وماذا سيفعل؟ منذ كتب الكتاب لم تسمع منه. فرحت جداً بذهب الشبكة، وأصيبت بإثارة كالحمّى وهي تخرج مع أمّها لانتقاء الجهاز. كانت صغيرة وبريئة ولا تعرف من دنياها إلاّ ما تسمع من أمّها ومن إخوتها. ولهذا كانت فرحتها بالشبكة والملابس فوق العادة. كأنَّ السماء انفتحت فجأة واستجابت لدعاء لم تطلقه لأنَّ ما حدث كان أكثر من أيّ دعاء أو أيّ حلم. ذهب وملابس حريريَّة وحذاء جديد وآخر وآخر ثم فساتين. ٧ فساتين كلّ واحد بلون، أحمر وأخضر وأصفر وأزرق وغيره وغيره. وملابس داخليَّة مزوّقة بالتلّ وبالدانتيل. كلّ هذا لها؟ مثل الأحلام! أمّا العريس، فلم تفكّر فيه كثيراً لأنَّ الذهب والملابس كانوا أهمّ. ولكن، بما أنَّ وجود العريس كان السبب في كل ذاك السخاء، إذن لا بدّ من تقديره.

أمّها قالت ما لم تفهمه. قالت إنَّ على المرأة أن تكون قويَّة حتى تتحمَّل مزاج الرجل وطلباته، وأن تكون ذكيَّة حتى تعرف كيف تلجمه وتحتفظ به. لم تسأل أمّها ما معنى هذا وما معنى ذاك إذ فهمت

أنَّ على المرأة أن تكون قديرة في أمور المطبخ وشؤون البيت، هذا مفهوم. أما أن تلجمه لتحتفظ به، فهذا ما عجزت عن فهمه. إذ كيف تلجمه؟ هل هو حصان حتى تلجمه؟ وكيف تحتفظ به وهي على ذمّته بعد كتب الكتاب؟ احتفاظه بها واحتفاظها به تحصيل حاصل بفضل كتب الكتاب والخواتم، وذهب وجهاز وملابس. ألم يشتروا كلّ هذا وذاك ليحتفظ بها وتحتفظ به؟

توتّر أمّها وقلقها جعلها تستغرب وتتساءل: لماذا لا تبدو سعيدة؟ ألم تقل لها منذ أول يوم «بكرة تصيري زيّ الملكة؟» ألم تقل إنَّ أبواب السماء انفتحت لهم وسيصير وحيد مثل البكوات؟ لماذا إذن تبدو غاضبة وحزينة؟ لماذا لا تكفّ عن ترديد كلمات وعبارات لا معنى لها؟ لماذا سألتها كما لو كانت غاضبة أو مستاءة عمّا قالاه؟

قالت الأم:

ـ أنا شفته قال لك كم كلمة.

قالت البنت بسذاجة:

ـ قال لي امسكي هذي العلبة.

همرت الأم:

ـ هذا كل شيء؟

واستدارت بوجهها وهمست بقلق:

ـ «استر يا رب!».

وتركت البنت ترتّب الجهاز في أهرامات.

دعاهم الخال لقضاء يوم في جريشة. جريشة مكان للنزهات فيه نهر وشجر وقوارب وشلاّل صغير يضعون تحته سلال الفاكهة والبطّيخ حتى يبرد. وهناك مغارة يخرج منها ماء بارد برغوة كثيفة يكتشفها الرجال برفع البناطيل والخوض في الماء حتى الركبة بينما تجلس النساء بالملاءات تحت الشجر قريباً منهم يعددن الأكل بسعادة. كانت فلسطين كالجنّة، وكان الناس في غيبوبة.

ابتدأ التحضير للنزهة بإعداد الأكل. امتلأ المطبخ بالخيرات ودخان الفرن وزيت القلي. كبّة ومقالي وصفيحة وأقراص سبانخ ومتبّل. سألها وحيد وهو يضحك:

ـ كل هذا الأكل ليوم واحد؟

قالت باعتزاز:

ـ خالك أرمل، وبناته كسالى ودلّوعات.

قال متودِّداً:

ـ تسلم هالإيد ما نعدمها.

وتركها واستدار نحو الساحة وجلس وحده عند البركة تحت الخشخاش. كان سعيداً، فأحسَّت الأمّ بالخيبة. فها هو سندها ورفيقها في العبء ينشغل عنها بعروسه. وهذا الانشغال لا مبرِّر له لأنَّ عروسه مثل اللعبة، وجه جميل ورأس فارغ. رأتها مرّة تصبّ القهوة وتدلق وتشرشر وترشرش. فإذا كانت تفعل ذلك بصبّ القهوة، فماذا تفعل بطبيخ الزوج؟ ماذا تفعل بشؤون البيت؟ ماذا تفعل بالأمومة حين تحبل وتلد الأطفال؟

لم تتفوَّه بأيّ من ذاك لأنّها المسؤولة عمّا حدث. ألم تكن هي من شجَّعته على ذاك الزواج؟ ألم تتحمَّس لزواج البدل حتى تزوّج ابنتها فلا تتعنّس؟ إذن السكوت أحسن وأشرف لأنَّ الاعتراض فات أوانه، ولا اعتراض على حكم اللّه. هذا نصيبه ونصيب البنت. على كلِّ حال، لا أحد يعرف من أين يأتي الخير وما الأفضل. فلو ظلَّت وداد معنّسة، أهذا أفضل؟ ولو ظلّ وحيد في نابلس، أهذا أفضل؟ لا، لا يمكن. فلو ظلَّ في نابلس لظلَّ فقيراً على قدّ الحال يعمل في سواقة السيّارات ويعود إليها كلّ مساء بما لا يكفي فتضطرّ للعمل في الخياطة ورقع القنابيز. إذن لا اعتراض على حكم اللّه. الخيرة فيما اختار اللّه. نصيب البنت ونصيبه. وما عليها سوى أن ترضى بحكم اللّه وتقنع به.

لكنَّ الغريب أنَّها لا تحسّ بالسعادة وينخرها الخوف، فماذا تفعل؟ صلَّت ركعات إضافيَّة. قرأت سورة ياسين عشر مرات. عملت استخارة للاثنين، والاستخارة تنبِّئها أنَّ الخيارات ليست خيراً فتعيد الاستخارة ثانية وتكون النتيجة واحدة فيزداد الخوف وتزداد صمتاً

وشحوبًا فتسألها البنت: مالك يمّه؟ فتهزّ رأسها وتقول بوجوم: ما مالي شيء. فتسألها البنت: خايفة نتزوج وننساك؟ فلا تجيب. تغرز رأسها في جهاز البنت تخيِّط هذا وتسوِّي ذاك فتقول البنت بسعادة: حيفا قريبة، تعالي زورينا كل جمعة، تنامي عندي. البنت أقرب من الكنّة، صحّ يا أمّي؟

تقول «صحّ» وقلبها يخفق لأنَّ القول صحيح جدًّا. البنت أقرب من الكنّة. البنت أضعف من الولد، جناح مكسور. البنت صغيرة على الزيجة، والعريس قبيح، قبيح جدًّا. تصلها أخبار أنَّه داير، ما زال يدور. يسكر ويخمر وينثر النقوط على الرقّاصات والجنكيّات ويشعل سجائر اليهوديّات بعشرة جنيهات.

سألت أخاها فقال لها:

ـ الولد صغير. بكرة الزواج يخلِّيه يعقل. أنا متأكِّد. وجود وحيد معي فوق راسه لازم يوعّيه. أنا متأكِّد. وبعدين يا أختي كلام الناس ماله نهاية ويعمل من الحبّة قبّة. اسمعي منِّي. أولادنا بخير، وأنا وأنت بخير. خذي هذا المبلغ يا أختي ودبّري أمورك. بلاش خياطة. الخير كثير والحمد للّه واسمعي منِّي اتركي نابلس. حيفا أحسن. الدنيا هناك أحلى وأحسن. بحر ومينا وناس زيّ النمل وشوارعها فيها كهارب وفيها عمارات ما شاء اللّه! وأنا عندي عمارة في الكرمل ٣ طوابق. طابق لرشاد، وطابق لرشا، وطابق لك إذا وافقت. يعني تكوني قريبة منّا.

هزّت رأسها وقالت بقنوط:

ـ أنا لازم أظلّ بدار العيلة. أنت لك في الدار أكثر منّي.

نهرها أخوها وأسكتها:

ـ هسّ، ولا كلمة. أقول لك عمارة تقولي لي الدار!

قالت بحزن:

ـ الدار لمّتنا وسترتنا أنا وأولادي. ما شفنا بظلّها إلاّ الخير.

قال ساخراً:

ـ خير الخياطة ورقع القنابيز!

نظرت إليه من تحت لتحت وقالت بخبث:

ـ لولا الخياطة ورقع القنابيز لمتنا من الجوع.

وصمتت فجأة كي لا تكمل وتكيل له اللوم وتقول له كلمة جافّة تذكّره بما نسي هو، ولم تنس هي، أنّه لم يسأل عن أخته حين احتاجت. أنّه لم يسأل عن الأولاد حين كانوا صغارا أيتامًا وبحاجة لكتف تسندهم وتحنو عليهم. في ذاك الوقت حين احتاجوا لم يجدوا أحداً يسندهم أو يطعمهم إلاّ الخياطة ورقع القنابيز، ثم هذا البيت وبابور الطحين والسيّارة هنا في نابلس. مالها نابلس؟ صارت كخّة؟ لأنّ نابلس بقناديل تضوي على الكاز وحيفا بلمبات وكهارب؟ لأنّ نابلس بلا ميناء وحيفا على البحر؟ لأنّ نابلس بلا أجانب ولا يهود ولا رقّاصات؟ نابلس مستورة بعتمتها. نابلس للناس المستورين. نابلس لها، وهي لنابلس.

ونظرت حولها فرأت الدار، دار العيلة، مثل الجنّة. سقف عال وتليل عريض وزجاج نوافذ يصل السقف، وساحة الديار حيث البركة وشجر الخشخاش وأصص الريحان والياسمينة تظلّل شبابيك غرفتها وغرف الأولاد.

سيرحل ولدان من هذا البيت. وحين يتخرَّج أمين سيلحق بهما ايدرس في القدس، ومن بعده سمير. كلٌّ في طريق. كلٌّ في اتجاه. وتبقى هي في ظلّ الدار والياسمينة وشجر الخشخاش. الابن يغيب وهي تبقى. مهما غابوا ومهما رحلوا ستظلّ الدار، وتظلّ هي، لأنَّ الأمّ اصل العيلة، هي سند الدار.

نزهة غريبة
ونسيم الغرب

وصلوا جريشة فاستقبلوهم بالتهليل والقبلات. وقفت البنات صفًّا واحداً بجوار الخال وبجانبهم امرأة غريبة مكشوفة الرأس وبلباس غريب مثل الإفرنج، قالوا ضيفتهم من القدس. الكلّ سعيد ويهلّل ويسأل ويجاوب ويمازح إلاّ رشاد، فقد وقف بعيداً مسافة خطوات. البنات ارتمين على العمّة يقبّلنها ويتسابقن على إجلاسها في أحسن مكان، يقدّمن لها العصير والمكسّرات وهي تضحك. نسيت مخاوفها لبضع لحظات ثم انتبهت وأخذت تراقب تفاصيل الجوّ.

لاحظت أنَّ البنات بشكل مختلف عن السابق، فملابسهنّ أكثر تلويناً وأناقة. صحيح أنّهنّ ما زلنَ يضعن المناديل، إلا أنَّها مناديل ملوَّنة تلتفّ حول رؤوسهنّ مثل «اليشمك»، بينما اختفى الإزار وحلَّت محلّه جاكيتات تبرز من تحتها ملابس ملوّنة قصيرة تصل الركبتين. كانت قد رأت مثل تلك الملابس على نساء القدس حين زارت الحرم آخر مرّة. حين رأت تلك الموضة قالت في نفسها: نسوان القدس فرنجيَّات برنجيّات مثل اليهود والإنجليزيّات. وها هي ترى بنات أخيها وقد أصبحن كالقدسيّات. ربّما بتأثير الضيفة واسمها ليزا. ما هذا الاسم!

ما هذا الشكل! سيكون لها أسوأ تأثير على البنات وعلى ابنتها. وقرَّرت أن تفاتح أخاها بالموضوع. ستحكي معه وتلفت نظره.

لكنَّها لم تتمكّن، فأخوها محاط بالرجال من كلّ جانب، ابنه وأبناؤها وسائقه ورجل غريب قالوا عنه إنَّه تاجر مثله ويعمل معه. من هو؟ ما أصله وما فصله؟ قالوا يهودي. ففتحت عينيها بانتباه وقرَّرت أن تحكي مع أخيها بشكل مضاعف، فهو محاط بالأغراب من كلّ جانب. ألا تكفي القدسيّة المكشوفة؟

وأخذت تراقب تلك المرأة. كانت تبدو في أواخر العشرينات وتلفت النظر بأناقتها. كما أنَّها مكشوفة الرأس تمامًا، فلا منديل ولا غطوة ولا حتى شال يسترها. حاولت أن تقترب منها كي تسمعها وتحكي معها، إلاّ أنَّ دائرة النساء الصغيرات، بما فيهنّ ابنتها، كنّ يحطنَ بها ويستمعن إليها ويبتسمن بأدب واستحياء. كما أنَّ عدداً من الخادمات والطبّاخات كنّ يجلسن قريبًا منها يُحضّرن الأكل ويُصدرن طقطقات ووشوشات تزعجها وتجعل التنصُّت على البنات وتلك الشابّة صعبًا جدًّا. فنادت كنّتها وسألتها عمّن تكون تلك الشابّة. أعادت رشا ما قيل سابقًا بأنَّها الأستاذة الستّ ليزا. حين حاولت معرفة التفاصيل أجابت ببساطة وعدم اهتمام، وبقرط السين: إثألي بابا.

تسأل بابا؟! منذ متى تقول عن الوالد بابا؟ البنات تربّين في السعودية وكن يقلن عن أخيها «أبي ويابا» مثل كلّ الناس، فمن أين أتت كلمة بابا؟ أكيد من الأستاذة الستّ ليزا. وحاولت أن تسأل بتفصيل أكبر إلاّ أنَّ رشا استدارت وانضمّت للبنات تستمع باهتمام للأستاذة. وكانت تلك تفسِّر وتقول:

ـ الدنيا اختلفت عن زمان. المرأة في مصر خلعت الحجاب ومشت في المظاهرات ودخلت الجامعات. هدى شعراوي تقول إنَّ المرأة مثل الرجل. وقاسم أمين قال المرأة أصل العيلة وأصل التغيير. شوفوا أوروبا. شوفوا أميركا. شوفوا روسيا. روسيا كانت أتعس منَّا. لكن لمّا علّمت البنات، روسيا صارت دولة كبيرة، زيّ أوروبا ويمكن أحسن. يعني التعليم وتربية البنات أساس الأمّة. وإذا كانت الأمّ أمّيّة تظلّ الأمّة في خبر كان.

سألتها واحدة بخجل وارتباك:

ـ يعني وين يكون خبر كان؟

ابتسمت ليزا فضحكت البنات بحيرة وخجل، إلاّ أنَّ رشا سألت ببساطة طفوليَّة:

ـ يعني إذا خلعنا نتغيَّر؟

ضحكت ليزا وضحكت البنات بما فيهنّ وداد. واستمرّ الحديث طويلاً، ليزا تحكي وتسأل وتجيب والبنات ينصتن باهتمام وتعجُّب.

كنَّ يجلسن على البسط والحشيّات تحت الشجر، فزحفت وداد بضع أقدام حتى أصبحت ملاصقة لأمّها وهمست كما لو كانت تفشي سرًّا:

ـ هذي تقول إنَّ الواحدة منّا لازم تكون مثل الرجال وتمشي في الشارع بلا غطوة.

هزَّت الأمّ رأسها باستياء دون تعليق.

أضافت وداد بحذر شديد:

ـ يمّه شوفي بنات خالي بلا غطوة؟

هزّت الأمّ رأسها وتمتمت باستياء:

ـ شايفة، شايفة.

ـ ولابسات الأحمر والأصفر!

ـ شايفة، شايفة.

ـ وسمعتِ رشا بتقول «بابا؟!»

ولوت فمها وهي تقول كلمة «بابا» بسخريّة واستهجان.

فقالت الأمّ وقد فاض بها الكيل:

ـ ولك شايفة، واللّه شايفة!!

وفكّرت بسرعة كما لو كانت تستعدّ لدرء هجوم على ما يشكّل أغلى وأهمّ ما في العالم، وقالت بحدَّة واستفزاز.

ـ هاتي الأقراص وهاتي الكبّة، يا اللّه بسرعة.

فأخرجت البنت كل الأطباق الملفوفة ووضعتها على الأرض أمام الأمّ. ناولتها الأم طبقًا في كلّ يد وقالت لها بلهجة تحريض ونفاد صبر:

ـ خذي ضيّفيهن.

ثم نادت كنّتها بصوت عالٍ:

ـ رشا، يا رشا، مدّي إيديك.

استدارت رشا، فناولتها طبقين آخرين وقالت لها بصوت آمر:

- خذي ضيّفيهن.

وحين رأت البنات أصناف الأكل صِحْنَ بحبور:

- كبّة وأقراص! اللّه أكبر!

واستدرن عن المتحدِّثة دفعة واحدة، وهجمن بحماس على الأقراص.

ذهب الرجال ليخوضوا في المغارة حتى الركب، وذهبت البنات لركوب قارب سياحي، وظلّت الأمّ في موقعها لتشرف على تحضير الأكل. كانت لا تثق بأيّ كان فيما يتعلّق بأمور المطبخ وإعداد الأكل. كانت سمعتها في العيلة وبين المعارف والجارات أنّها ذات نَفَس رهيب في الطبخ لا مثيل له في كلّ فلسطين، بل ربّما في كلّ العالم. فأكلة الرؤوس والكوارع من بين يديها حدث لا يمكن نسيانه. ومحاشي اللفت والخيار والفقوس وقائمة طويلة من الأكلات المعروفة وغير المعروفة، لا توجد امرأة أخرى، مهما اجتهدت، بإمكانها مجاراتها في هذا الفنّ. شهرتها بهذا الميدان جعلتها تحسّ أنّها المسؤولة عن المذاق وفنّ التقديم في أيّ مكان تُدعى إليه ويكون الطعام هو المحور. وغالبًا، في كلّ مناسبة مهما صغرت، يكون الطعام هو المحور. في الأعراس وحفلات الطهور ومباركات الحجّ والمآتم وحتى النزهات، يكون الأكل هو المحور. وحينذاك، تتصدَّر الركب كقبطان ماهر يعرف وجهته بلا بوصلة ولا دليل إلاّ خبرته وإلهامه.

جاء أخوها ليشاهدها وهي تقود جوقة الخادمات وتغطس بيديها حتى الكوع في طشت اللحم. رفعت رأسها وقالت بعجب: ما رحت

معهم!! فضحك وقال: خلص كبرنا. ناقص أشمّر عن ركبي وأخوض في النهر. خلص كبرنا. وجلس في مواجهتها وفي نيَّته أن يفاتحها بشأن الملاية وغطاء الرأس لكنّته وداد، إذ لا يمكن أن تظلّ البنت على حالها ـ دقّة قديمة ـ في الوسط الراقي في حيفا. ابنه رشاد شاف الدنيا ودار العالم ورأى النساء العصريّات من كلّ لون وجنسيّة. كما أنَّه بسبب عملهم في الاستيراد يخالط اليهود والأجانب وكبار الوجهاء من التجّار، ويحضر حفلات الأكابر ويسافر ويودّع ويستقبل ألوف السيّاح.

بادرها بثنائه المعهود على شطارتها في صنع الفطائر والكبّة، ثم هذا اللحم بين يديها مثل الفستق، اللّه اللّه! وهذه التوابل والرائحة التي تُسيل اللعاب وتجعل الإنسان يتمنّى لو يأكل اللحمة من غير شواء. هي الأستاذة في المطبخ ولا أحد يجاريها في هذا الفنّ. صحيح من قال إنَّ أقرب الطرق إلى قلب الرجل هي المعدة.

فكَّرت هي بابتسام خبيث: بل أقرب الطرق إلى عقله وعقول النساء. ألم تر كيف أدارت عقول الفتيات فتركن ليزا تنعق في الجوّ منفردة حين ووجهن ببضعة أقراص؟ إذن فليكن هذا المدخل هو فرصتها لمفاتحته بشؤون البنات وتأثير الموضة على العفّة. ألا يفهم أخوها أنَّ العين هي المدخل؟ يعني كالأكل. ألا يعترفون ويعترف هو بقول المثل إنَّ المأكل يبدأ بالعين؟

قالت له وهي تضيف رشّة فلفل على طشت اللحم:

ـ صحيح يا أخي أنَّ الطبخ فنّ وشطارة. اللقمة الحلوة بتدوِّخ. أصلاً يا أخي يا تاج راسي شطارة الواحدة أن تعرف كيف تتحايل على زوجها بأن ترضيه وترضي بطنه. وحتى ترضيه لازم تعرف فنون المطبخ

،،قديم الأكل وتخلّي المنظر على السفرة مثل الزهور في الجنينة. العين ،تاكل قبل الفم. صحّ وإلاّ لأ؟ لكن لمّا ترضي العين وترضي الفم، اللّه اكبر، كأنَّك صلَّيت. ولمّا الواحد يشبع بطنه ويثقل راسه يغرق في النوم من غير ما يحسّ. معقول تنام وبطنك جوعان؟

قال مبتسمًا وهو يمدّ إصبعه في طشت اللحم ويلحسه ويهزّ رأسه:

ـ طبعًا لأ.

ـ مظبوط كلامي وإلاّ لأ؟

هزّ رأسه موافقًا وهو يتذكَّر وليمتها الأخيرة بعد كَتْب الكتاب وكيف أنَّه ظلّ يأكل حتى انتفخ بطنه وطار صوابه، وأنَّه نام على الكنبة كالمسطول، فاضطرّوا لهزّه هزًّا شديداً حتى لا تبرد الكنافة ويجمد السمن على الكلاّج. وحين عجزوا عن إيقاظه قرّبوا صحن الكنافة من انفه ففزّ من النوم وهو يصرخ كالملدوغ: كنافة! كنافة! وهجم على الكنافة وهو يقول: اللّه أكبر!

عادت تكرِّر مقولتها لتسحب اعترافًا لا يتراجع عنه:

ـ مظبوط كلامي وإلاّ لأ؟

قال معترفًا:

ـ مظبوط، مظبوط.

ـ يعني الواحدة مهما عملت ومهما سوّت الطبخ يغفر كلّ ذنوبها؟

رمقها ضاحكًا وقال بسرعة:

ـ مثل ما غفر كلّ ذنوبك.

ابتسمت وقالت بمكر ضاحك:

ـ ذنوبي أنا؟ أنا عندي ذنوب؟

هزّ رأسه وهو يبتسم ويتذكَّر:

ـ يِه يا زكيّة! نسيت المرحوم شو ذاق منّك؟

ـ ذاق منّي أنا!؟

ـ نسيت المسكين شو كان يتحمّل؟ نسيت زياراتك والأعراس والاستقبال وشطحات الخلّة والحمّام؟ نسيت كم مرّة حلف عليك وما سمعت الكلام؟ نسيت كم مرّة راح يشحذ فتاوى من الجامع ومن سيّدنا الشيخ؟ أنا أتذكَّر قال لي مرّة: أنا لازم أوظِّف شيخ عندي بأجر شهري حتى يفتي أعمال أختك.

ابتسمت هي مشجّعة بارتياح لاتجاه الحديث:

ـ اللّه يجازيك يا أبو رشاد، كيف متذكّر؟

هزّ رأسه يمينًا وشمالاً وقال ضاحكًا:

ـ معقول أنسى؟

قالت كاذبة تتملّقه:

ـ طول عمرك شاطر ومفتّح. عقلك اسم اللّه زيّ البرلنت لكن أنا، يا حسرة عليَّ، عقلي مشتّت.

قال مشجِّعًا:

ـ ما له عقلك؟ اسم اللّه عليك ما حدا مثلك. طول عمرك شاطرة ومدبّرة. أنت يا أختي شاطرة وتحفة. أنا متأكِّد أنَّ تأثيرك على بنتي

..يكون له أحسن تأثير. مناي يا أختي تصير مثلك. بناتي يا حرام دقّة قديمة. تربية الحجاز والسعودية.

سألته بخبث:

ـ طيِّب والستّ؟

ـ قصدك ليزا؟ هذي أستاذه محترمة، ضيفة من القدس. أبوها علّمها أحسن تعليم. أبوها كان أحسن زبون وأحسن صاحب. مات من سنتين، وبعد ما مات هاجرت مع أمّها لأميركا عند أخوالها. ظلّت هناك شهراً أو شهرين وبعدين رجعت. قلت لها خلّيك في حيفا، الشغل في حيفا أحسن بكثير، لكن قالت القدس أحسن.

قاطعته ساخرة:

ـ طبعًا، طبعًا القدس أحسن، لأنَّ القدس فيها النسوان مثل اليهود والرقّاصات. يا أبو رشاد عندي كلام لازم أقوله. بناتك حلوات ومؤدّبات، بسّ يا أخي ناقصهن شدّ.

هزّ رأسه موافقًا بأسف وقلّة حيلة:

ـ آ واللّه صحيح. بناتي يا زكيَّة دلع وكسل ودقّة قديمة. أنا قلت يمكن ليزا يكون لها تأثير وتعلّمهن. لكن ليزا قاعدة يومين وبعدين للقدس. قلت لها خلّيك بحيفا الشغل أحسن، أحسن بكثير. الشغل بحيفا زيّ الرزّ وبحر وميناء وناس مثل النمل من كل لون وجنسية، حتى شغلنا، ما شاء اللّه، مراكبنا دايمًا مليانة. ساعة حمضيّات وساعة بضاعة وساعة إنجليز وساعة يهود.

سألته بذعر:

ـ تشتغل مع يهود؟!

لم ينتبه للقلق في لهجتها وقال بشرود:

ـ البركة بإسحق وطلباته. طلباته دايمًا بالآلاف. ساعة إسمنت وساعة حديد وساعة فواكه وساعة خضار. الشغل معه مربح ومريح.

قالت بجفاف:

ـ يهود يا رشيد؟! إنت ما سمعت وإلاّ كنت بعيد؟ يمكن بعيد.

أرادت أن تعطيه مجالاً كي يجد عذراً أو مبرِّراً للشغل مع يهود إلاّ أنَّه استطرد بغباء وثلامة:

ـ يا أختي ما لنا ومال الطوشات؟ قنابل ورصاص ومظاهرات وحكي فاضي. أنا واحد مسالم وبحالي، وشغلي دايمًا حسب القانون. وبعدين يا أختي مال اليهود؟ مش بني آدمين؟ شوفي إسحق وشوفي بناته. لو تشوفي بناته ما أحلاهن!

قاطعته بتبرّم واستنكار:

ـ بناتك أحلى!

قال بأسف:

ـ لكن يا أختي بناته شاطرات ومتعلِّمات. الواحدة منهن قبضاية عن عشر رجال.

قالت بسخرية وتبرّم:

ـ اللّه خلقهن وكسر القالب؟

قال بأسف وكأنَّه لم يسمعها:

ـ وبناتي أنا، اللّه يسهّل...

وطأطأ رأسه الذي بدأ يصلع ووخطه الشيب، فأحسَّت بإشفاق لا تعرف سببه. ربّما بسبب رملته الحديثة، وربّما بسبب خوفه على بناته من التعنيس، وربّما بسبب إحساسها المزمن أنَّه الضعيف وهي الأقوى رغم ماله. إذ ما نفع المال وما الثروة أمام نصف دستة بنات غبيّات شبه معاقات يقرطن بالسين وينزعن الحجاب بمجرّد سماعهنّ كلمة تشجيع من تلك القدسيّة الستّ ليزا. لا كانت ليزا ولا ... وخطرت لها كلمة قبيحة فبدأت تضحك. فرفع رأسه وسأل بأسى، وكان ما زال مبتئساً:

ـ مالك؟ مالك؟ خير انشا اللّه؟

قالت ضاحكة بشماتة:

ـ اسم المسخوطة يضحكني.

ـ أيّ مسخوطة؟

ـ الستّ ليزا.

ـ مالها ليزا؟

ـ يعني هذا الاسم على وزن شو؟

سأل بغباء:

ـ على وزن شو؟

قالت محرّضة كي تضحكه وتخرجه من همّه واكتئابه، وكذلك كي تقلّل من قيمة الأستاذة ذات التأثير السيِّئ على بناته لتسقطها من

عينه وتجعل من اسمها مهزلة فتحلّ الكلمة القبيحة كلقب لها بدل الأستاذة الستّ ليزا.

عادت تكرِّر منغمة:

ـ ليزا، ليزا، إيزا، كمّل...

فصفق كفّيه وأخذ يضحك وخرج من اكتئابه بسهولة. ولولعه الشديد بالمزاح والضحك وحبّ الحياة قال لها:

ـ اسمعي هالنكتة يا زكيَّة. آخر نكتة. قالتها ليزا وأعجبتني. النكتة تقول: لما اللّه خلق النسوان صفّهن بالدور زيّ الطابور وقال لموسى: يا اللّه يا موسى، نقِّ نسوانك على كيفك. موسى نقّى أحلى النسوان ودار ظهره. قال لعيسى: يا اللّه يا عيسى، الدور دورك، نقِّ نسوانك على كيفك. عيسى نقّى أحلى الباقيات وترك البايرات والبرارة. قال لمحمد الدور دورك، يا اللّه يا بطل، نقِّ نسوانك على كيفك. تطلع محمد وشاف نسوان، اللّه وكيلك زيّ الغولات، دار ظهره وقال: غطّوا يا نسوان والحقوني.

وأخذ يضحك وهو يصفق يداً بيد ويردِّد: غطّوا يا نسوان، غطّوا يا نسوان. فانتبهت هي لأبعاد الكلام وبدأت تغلي. إذن هكذا، نحن البايرات والبرارة وهنّ وجه السحّارة. نحن الغولات وهن غزالات. إذن هكذا أقنعته الستّ ليزا. بنكتة قبيحة مثل خلقتها عرفت الحيوانة كيف تضحك عليه وتسلب عقله. ولأنَّه غبي، أراد أن يثبت للدنيا أنَّ بناته مثل اليهوديّات وبنات الخواجات، يعني بلا غطوة ولا ملايات. طيّب، طيّب، يا ستّ ...يزا. سنرى من تكون البرارة ومن فينا وجه السحّارة. من بعد اليوم سترى ليزا.

قبل بدء الأكل ببضع دقائق، وكانت رائحة الشواء تعبق في الجوّ، جاء أخوها يستأذنها. قال لها إنَّ إسحق شالوم يريد الانضمام إلى بناته ليأكل معهنّ. بناته هناك تحت الجوزة، من هنا تراهنّ بكلّ وضوح. فلماذا لا يدعو بنات شالوم للأكل معهم فيلتمّ الشمل؟

قال لها ذاك الكلام همسًا فجمدت عيناها في اللاشيء. كان الاختلاط باليهود مقصوراً على الرجال أثناء العمل في المتاجر وفي الشركات أو في الحانات والكباريهات. أمّا الحياة الأسريَّة داخل البيوت وفي النزهات، فانفصال تامّ لا يُجسر. إذ بالإضافة إلى التوتّر القومي بين الطرفين، فهناك الفارق في العادات والانفتاح والخلفيَّة. فهنا مجتمع ما زال يعاني مشكلة الانفصال عن العالم وعن تاريخه. بعد الأتراك بات يتيمًا لا سند له من أيّ اتجاه، فانكفأ ليحمي أساساته في ركن الحريم وتقاليده، خوفًا من اجتياح اليهود وغزو الغرب. أمّا اليهود فقد جاؤوا إلينا بخلفيَّة من كلّ لون وجنسيّة. لهذا اختلطت صورتهم وأسرتهم وبدت المرأة مثل الإفرنج.

المهمّ في الأمر أنَّ أخته وقد وجدت نفسها في ذاك الجوّ قالت بحيرة وتخوّف:

ـ نقعد مع يهود؟ شو يقولوا الناس؟!

قال باستهانة:

ـ شو يقولوا الناس؟ يغوروا الناس.

ـ كيف يغوروا؟! بكره يقولوا فاتح بيته للّي ما يسواش.

ـ للّي ما يسواش؟! إسحق شالوم أغنى منّي. كيف ما يسواش؟

ـ قصدي بناته، بناته لابسات ومش لابسات، كأنّهنّ بالزلط وعريانات.

ـ يا أختي يا أم وحيد منشان اللّه ما تعقّديها. كلّ واحد يلبس على كيفه. مالنا ومالهم؟ كلّ واحد حرّ بحياته. وبعدين يا أختي يا حبيبتي كلّها ساعتين أو ثلاثة وكلّ واحد يرجع لبيته. هنّ بحالهن ونحن بحالنا. الزلمة مليح وينفعني. الشغل مع شالوم عن عشرة. بيني وبينه عِشرة وبزنس. خلّيني أتباهى وأتفاخر. خلّيه يشوف مين الأحسن أكل الخواجات وإلاّ أكلنا. قولي طيّب، يرضى عليك. قولي طيّب.

فقالت طيّب وقلبها يضرب، ورأسها يتمايل من الصدمة.

قبل البدء في وصف تفاصيل ذاك اللقاء المدهش بين النساء، لا بدّ من إعطاء لمحة وجيزة عن الخلفيَّة التي جاءت منها بنات شالوم. إذ لا يمكن أن نفهم أسباب الخلاف دون الرجوع إلى الماضي والخلفيّة. فنحن نعلم أنَّ النساء قياساً بالرجال أرقّ وأنعم، ألطف وأحنّ. وقد قيل الكثير حول الموضوع. لكنَّ الأهم في هذا المجال هو السؤال حول العسكر وشؤون الحرب. فقد قال البعض فيما قالوه إن الرجل أميل للحرب، وإنَّ المرأة لو أُتيح لها حكم العالم لحذفت الحروب من قاموس الشعوب والبشرية. فهل هذا صحيح؟ دعونا لا نستبق الأحداث ولنتمهّل. فقد يكون ما حدث في جريشة له معنًى، أو ربّما كلّ المعنى.

بنات شالوم وُلدن وعشن في بغداد حتى بلغن. أمهنّ من أصل مختلط نصفه روسي والنصف الآخر بولندي، أما أبوهن فهو عراقي ابن عراقي أبًا عن جدّ. التقى الاثنان على ظهر باخرة سياحيّة كانت تتّجه إلى روما فوقعا بالحبّ وتزوّجا وعاشا في العراق لعدّة سنوات حتى أقنعته بالهجرة إلى فلسطين. كان أقاربها قد سبقوا وأخذوا يكتبون عمّا وجدوه في أرض السمن والعسل، أرض الميعاد، وعمّا تقدِّمه الوكالة اليهوديّة من دعم وفرص وتسهيلات، وعن الحياة الرائعة في الكيبوتسات، وعن

الإنجليز ووعد بلفور بإقامة الدولة اليهوديَّة على أرض بلا شعب لشعب بلا أرض. بعد تردُّد قرَّر إسحق اللحاق بالركب فأخذ عائلته الصغيرة وكذلك عائلته الكبيرة: أمّه وإخوته وأخواته واتَّجه بهم نحو فلسطين. في البداية، عاش الجميع في كيبوتس قريب من يافا حتى ملّوا. لم يطيقوا الحياة الجماعيَّة حيث يُنتزع الأطفال من أهاليهم وتقوم حاضنات بتربيتهم بشكل جماعي. كما أنَّ إسحق حين قرَّر المجيء إلى فلسطين كان يحلم بامتلاك ما عجز عن امتلاكه في بغداد. ألم يقولوا بيتًا خاصًّا لكلّ مهاجر؟ ألم يقولوا أرضًا خاصّة؟ ألم يقولوا عملاً خاصًّا في دولة تقوم على أسس الغرب؟ فأين كلّ هذا وذاك؟ أين الدنيا؟ أين الحياة المدنية في كيبوتس لا يرون فيه إلا الشجر وتراب الأرض، وبقرًا وروث ودواجن؟!

تركوا الكيبوتس وعاشوا في مزرعة قرب يافا بضعة أشهر. وهذه المرّة، كانت زوجته مَنْ سئمت. قالت إنَّ الحياة الاشتراكيَّة هي ما تطلب. فهي لم تجئ إلى فلسطين حتى تعيش كنساء الشرق. جاءت هنا حتى تبني، حتى تعمل، حتى تنفّذ ما عجز اليهود عن تحقيقه عبر الأجيال. جاءت لتعيش حلم الدولة، دولة يهوديَّة اشتراكيَّة، دولة تقوم على أسس الكيبوتس. لكنَّ إسحق، وهو ابن الشرق وتقاليده، يريد أجواء محافظة وخصوصيَّة، بيتًا خاصًّا، ملكًا خاصًّا، وأعمالاً حرّة خصوصية. رجعت هي لتعيش في الكيبوتس، وظلَّ الجميع في المزرعة قرب يافا، ثم حيفا، ثم تجارة عبر البحار والاستيراد.

باختصار، هذه خلفية بنات شالوم. عشن مع أب يهودي جاء من الشرق، لكن في بيئة غربية. يهود إشكناز ويهود سفارديم باتوا يشكّلون نواة الدولة، واقتصاد حرّ، لدولة على أسس غربية.

حين رأت الفتيات بنات شالوم قادمات شبه عاريات، انتابتهنّ موجة من الضحك الهستيري والتعليقات، فهذه تقول « شوفي افخاذهن» وتلك تقول « شوفي صدورهن» وثالثة تقول « شوفي لباسهن» . والأم تلهث وتتنفَّس بصوت مسموع .

التفتت وداد إلى أمّها وهمست بذهول :

ـ يمّه، يمّه، بنات خالي قالوا كلام . . .

ووضعت يدها على فمها وسكتت . فسألتها الأمّ وهي مطبقة الأسنان :

ـ قولي، قولي .

طأطأت وداد رأسها وهمست :

ـ عيب أعيده .

هزّت الأم رأسها يمينًا وشمالاً وهي تتأمَّل القادمات ودمدمت وهي ما زالت مطبقة الأسنان :

ـ أستغفر اللّه العظيم . لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه! اقعدي مليح واوعي تحكي، ولا نصّ كلمة .

لم تجب البنت وظلّت تحملق كالمفلوجة .

مرّت الفتيات أمام دائرة الرجال فغضّ وحيد بصره وذكر اسم ربّه، واستغفر عدّة مرات . وحدّق أمين بعجب وإعجاب واستنكار . وجحظت عينا رشاد وارتخى فكّه، بينما قال أبوه مبتسماً : ما شاء اللّه! أمّا أبوهنّ فاستمرّ يحكي عن البضائع والأسعار بلا توقُّف .

تقدَّمت البنات وقلن محيّيات بلهجة ودودة:

ـ مساء الخير.

فردَّت ليزا بلهجة محايدة ووجه خلا من أيّ تعبير:

ـ مساء الخير.

وردّت الأم وهي تتفحّصهنّ:

ـ مساء الخير.

أمّا بنات الخال فظللنَ يضحكن ويمسحن دموعهنَّ بمناديلهنَّ ويحاولن الاختباء خلف أكفّهنَّ وخلف أكتاف بعضهنّ.

قالت ليزا:

ـ أهلاً وسهلاً. تفضّلوا. تفضّلوا.

وقالت الأم مشيرة إلى أماكن بعيدة عن ابنتها وعن كنّتها:

ـ تفضّلوا هناك. فيه مكان هناك.

أعمار الفتيات العربيّات والعبريّات متقاربة، فكلّهنّ ما بين الخامسة عشرة والعشرين. طبعًا ليزا كانت أكبر، فهي كما أشرنا في أواخر العشرينات، وربما تبدو أكبر من سنّها ببضع سنوات، بسبب التعليم والوظيفة والانفتاح على الدنيا ولندن وباريس وواشنطن.

قالت الكبرى معتذرة، وكانت ما زالت تتذكَّر عادات الشرق:

ـ كنّا نسبح، لا تؤاخذونا.

وتلفّتت حواليها بابتسام دبلوماسي وهي تتأمّل المناديل والملايات وتحسّ بعدم الارتياح من ذاك الجوّ، فالتفتت للصغرى وقالت لها بالعبرية «اقعدي مليح». ثم مدَّت يدها بصندوق يشبه المحفظة وفتحته واخرجت عدّة ساندويشات وزجاجة عصير وتفّاحات. وقالت بأدب وهي توجِّه الكلام إلى ليزا:

ـ هذا غدانا.

سألت رشا بفضول شديد:

ـ ممكن نذوق؟

حدجتها الأمّ باستنكار، إذ إنَّ طلبًا مثل ذاك الطلب يدلّ على فراغة عين ورفع الكلفة. فقياسًا بكلّ ما جاءت به من كبّة وأقراص وفطائر، هذه شطائر لا وزن لها. خبز إفرنجي أبيض محشو بشيء غريب الشكل. هل هذا أكل؟ هل هذا غداء؟ ثم أن تطلب كنّتها أن تذوق من أكلهنّ بتلك السرعة فذاك يعني رفع الكلفة. ألا تفهم الستّ الدلوعة أنَّ هؤلاء يهود؟!

قالت الكبرى وهي تشير إلى أصناف الأكل المفروشة على الأرض وتقارن بينها مبتسمة:

ـ تفضَّلوا ذوقوا على كيفكن. لكن أكلنا قدّام هذا... كلّ هذا الأكل، شيء مش معقول! واللهّ تذكَّرت أيام بغداد.

قالت الوسطى مصادقة:

ـ وأنا تذكَّرت.

ابتسمت الأمّ لدهشتهنّ وقالت بثقة وأريحيّة:

ـ طيِّب إِذن يا اللَّه ناكل. يا اللّه سمّوا.

وأخذت حبّة كبّة وناولت الصغرى وهي تقول:

ـ تفضّلي كبّة يا حبيبتي. عندكم كبّة؟

هزّت الصغيرة رأسها نفيًا وهي تتناول الحبّة بخجل واستحياء، وتنظر في عيني أختها الكبرى بانتظار إشارة تشجيع. فابتسمت تلك وهي تمدّ يدها بطبق الشطائر لرشا ثم تلتفت حواليها وهي تسأل:

ـ مين منكن تحبّ تذوق؟

فقالت أختان معًا: «أنا، أنا». وظلّت وداد صامتة ترقب الجوّ وهي تلكز فخذ أمّها بكوعها كي تشهدها فدمدمت الأمّ:

ـ طيِّب، طيِّب، كلي عالسكّيت.

ومضت لحظات وهنّ يأكلنَ بصمت وخجل وتوتّر، إلاّ أنَّ بنات الخال كن يتبادلن النظرات والابتسامات ويتغامزن من تحت لتحت. أرادت ليزا أن تلقّنهنّ درسًا بالانفتاح حتى يعرفن أنّ النساء في بلاد الغرب لهنَّ عادات مختلفة وأنَّ اللباس بالنسبة لهنّ ليس دليلاً على الاحتشام والجدّيّة؛ فسألت الكبرى بمودّة:

ـ الرياضة مهمّة ومفيدة، كيف تعلَّمت السباحة؟

اندفعت الوسطى لتجيب على السؤال، وكانت كما تبدو أكثر نشاطًا وحيويَّة وأكثر اندفاعًا للتجاوب مع الآخرين:

ـ تعلَّمناها في كيبوتس عخشاف.

همست وداد بفضول حذر:

ـ يمّه، يمّه، شو يعني كيبوتس؟

فلكزتها الأمّ وقالت همساً:

ـ كلّي عالسكّيت.

اندفعت الوسطى لتصف لهنّ كيف أنَّها في أوّل درس في السباحة كادت أن تغرق لولا أنَّ كابتن يوسي سارع لإنقاذها. وكيف أنَّ الجميع التمّوا حولها ينادونها: سارة، سارة، وهي غائبة عن الوعي حتى قلبها كابتن يوسي على فخذه فقذفت الماء، وبدأت تتنفَّس ثانية فصاح الجميع: صحيت، صحيت. سألتها رشا:

ـ قلبك على فخذه ورضيت؟

ارتفع صوت الكبرى باحتجاج كما لو كانت تدافع عن أختها:

ـ ما كانت صاحية ولا واعية!

سألت وداد:

ـ يمّه مين هو كابتن يوسي؟

لكزتها أمّها بغضب مكبوت:

ـ كلّي عالسكّيت.

قالت سارة دون أن تنتبه إلى المعاني والحركات:

ـ كابتن يوسي يعني مدرّب في كيبوتس عخشاف. علّمنا سباحة وركوب الخيل وكمان كراتيه.

لكزتها الكبرى ونهرتها فسكتت في الحال. همست وداد:

ـ بتقول كراتيه، شو يعني كراتيه؟

نهرتها الأمّ:

ـ كلي عالسكّيت.

حاولت الكبرى الخروج عن الموضوع ولفت الانتباه لموضوع آخر أقلّ حساسية وإحراجًا. كانت ما زالت تتذكّر أجواء بغداد، وها هي الآن في هذا الجوّ. قالت موجّهة الكلام لليزا:

ـ إنت من نابلس أو حيفا؟

ردَّت باقتضاب:

ـ أنا قدسيَّة.

فأسرعت الوسطى لتعلّق:

ـ عشان هيك ..

فلكزتها الكبرى وهمست كلمات بالعبريَّة أسكتتها، وحين نظرت باتجاه الأمّ وجدتها تبتسم ابتسامة غامضة وتّرتها، فهمست بقلق، وكان الإحساس بالغربة قد جعلها تتمسّك بالأقرب، أو من تبدو أنَّها أقرب وأنَّها ممكن أن تفهمها:

ـ كيف قادرة تكوني ... مش فاهمة! قصدي يعني إنت معهن؟

قالت ليزا باقتضاب جادّ:

ـ طبعًا معهن.

هزّت إستر رأسها بعدم تصديق وقالت لأختيها بالعبريَّة:

ـ بسرعة، بسرعة، خلّينا نروح.

انقلب الجوّ فجأة حين مرّ ولد بحمار مزوّق بالأجراس والدناديش وخرز أزرق وسرج أحمر مرصّع بالودع وقطع الزجاج، جُهّز خصّيصًا للسيّاح. كان ينادي: إركب بقرش، إركب بقرش. فأخذ الصغير يتوسَّل لأخيه الكبير: خلّيني أركب، خلّيني. لكنَّ وحيد زجره وقال برصانة: أقعد ساكت بلا حكي فاضي. فالتفت لأمين وقال برجاء: خلّيني أركب، خلّيني. فحذّره أمين من الركوب لأنَّه سيقع عن الحمار فينكسر رأسه ويسيل الدم. وإذا برشاد المدلَّل، خطيب وداد، وكان يحسّ بالملل الجمّ من حديث البزنس والبضائع والاستيراد، هبّ واقفًا وقال للطفل: تعال نركب، الحقني.

ابتدأ الضحك بركوب الصغير ثم رشاد، وإذا ببنات الخال يلحقن بالركب وهنّ يتصايحن مثل الأطفال. حينذاك لحقت بهنّ بنات شالوم إذ وجدنها فرصة سانحة للهرب من دائرة النساء والجوّ الكئيب. ولم يبق مع الأمّ وابنتها إلاّ ليزا. وحتى ليزا كانت تضحك وهي تشاهد وقوع هذه وصياح تلك ومنديل رشا ينزلق عن رأسها فتشدّ به وهي تولول: الدور دوري، الدور دوري.

لكزت وداد أمّها وقالت بانشداه:

ـ يمّه، يمّه، شوفي رشا، شوفي، شوفي.

هزّت الأم رأسها عدّة هزّات وقالت بحسرة وتنهّد:

ـ مسكين يا وحيد!

وظلّتا تحدِّقان في المشهد الضاحك أمامهما، وقد ارتسمت على وجهيهما علائم الهزء والاستنكار. لكنَّ البنت شهقت فجأة حين رأت خطيبها يساعد واحدة من بنات شالوم باعتلاء الحمار. كوّر كفيه وأشار لها أن تدوس عليهما، وحين حاولت القفز تحرّك الحمار وكادت أن تقع على الأرض فأمسك بها من خصرها ووضعها على الحمار وهي تضحك، والكلّ يضحك ويعلِّق. حتى الرجال في أماكنهم كانوا يراقبون المشهد ويضحكون، والخال يصفّق ويهتف بسرور: يخزيك يا رشاد ما أخف دمّك!

استدارت ليزا للأمّ وقالت بأسف شبيه بالاستجداء:

ـ معقول بنتك تظلّ قاعدة؟! خلِّيها تروح وتتنفّس.

لم تجب الأمّ، لكنَّها أمعنت النظر وأخذت تفكِّر وتتأمَّل فيما يحدث. إذ إنَّ الركب يخلّف ابنتها وحيدة ويترك رشاد لألاعيبه ويجعل ابنتها مهجورة. وزنت الأمور ورأت أنَّ عليها أن تعيد النظر بخطّتها. وكانت خطَّتها أن تتربَّص للستّ ليزا وتطيح بها، بأن تجعل منها أضحوكة. لكنَّها الآن تجد أنَّ الخطر أكبر من ليزا وتأثير ليزا، أهمّ من الغطوة والإزار. فهذا الولد اعتاد الحياة في حيفا، وحيفا تختلف عن

نابلس. في حيفا بحر، في حيفا يهود، في حيفا إنجليز وأجانب. وابنتها صغيرة ونحيلة، ابنتها هشّة وضعيفة ولم تتهيًّأ لزنترة الناس في ذاك الجوّ. ومن المؤكَّد والواضح أنَّ ابنتها ستعاني الأمرّين مع هذا الشابّ، فإمّا تتركه وتتطلق، أيْ تفسخ الخطوبة وكَتْب الكتاب وبذلك تنفضح بين الناس، وإمّا تظلّ على عماها فيتزوَّج عليها ويهجرها، أو... وهذا أصعب، أن تلحق به وتتأقلم. فماذا تفعل؟

انتابت الأمّ موجةٌ من الحزن والاكتئاب، فالتفتت لابنتها تتأمَّلها. كانت تلك أشبه بشبح صغير أسود، رقيق ضعيف، بوجه طفولي شاحب وبلا ألوان. بعكس بنات أخيها المزوّقات بزينة مخفيّة مستترة. بودرة خفيفة وأحمر خفيف وحمرة خفيفة وحواجب منتوفة خطّ القلم وكحل مخفي. فهمست بغيظ: قال يعني طبيعي من اللّه! لكنَّ عينها المتفحّصة المتمرّسة ترى أنَّ التأثير واضح وأكيد. فها هي ترى وحيد الرصين يراقب خطيبته بافتتان ويضحك ويتجاوب بسعادة. وترى أمين المتعلّم يلاحق البنات بنظراته، بنات شالوم العرايا وبنات خاله المزوّقات. أمّا رشاد فأخذه الحال، فها هو يتضاحك مع هذه ويداعب تلك ويهمل ابنتها المركونة إلى جانبها كطعام سقيم لا يشتهيه أو يرغب فيه. ابنتها تبور، ابنتها تكسد، ابنتها تضيع في هذا الجوّ. وبقلب ينقلب على ذاته قالت لابنتها بشجاعة:

- روحي معهن.

حملقت البنت غير مصدّقة ما تسمع، وقالت بدهشة وذعر ملحوظ:

ـ أروح معهن؟!

هزَّت الأم رأسها بانكسار وحدّقت في عيني ابنتها مشجّعة. فرأت البنت لمعة خفيفة من دمع رقيق فقالت بجزع:

ـ مالك يمّه؟

أشاحت الأمّ بوجهها وقالت بأسى:

ـ حبّة غبار دخلت عيني. روحي معهن.

مشت البنت بخطوات هيّابة مذعورة. كانت تتّفق مع أمّها أنَّ بنات خالها يضحكن كثيراً وبسهولة، ويتودَّدن للناس أكثر من اللازم والمألوف، وأخيراً خلعن شرش الحياء حين خلعن الإزار والغطوة ولبسن مناديل ملوَّنة مثل اليهوديَّات والرقّاصات. وها هنّ الآن يضحكن ويركضن وراء الحمار برعونة مخجلة وعدم اتّزان. فلماذا قالت لها الأمّ: روحي معهن؟ طبعًا تقصد مع رشا وبنات الخال، ولا تقصد أبداً بنات شالوم. بنات شالوم اليهوديَّات الغريبات ما لها ولهنّ. لكن رشا وأخوات رشا قريبات جدًّا، وخصوصاً رشا.

اقتربت من رشا وكانت تقف مع الكبرى من بنات شالوم تحت شجرة. وكانت الاثنتان تضحكان وتصفّقان وتتبادلان التعليقات وكأنَّهما صديقتان. اقتربت منهما بخوف وخجل، رِجل للأمام ورجل للخلف، وهي تشدّ الإزار حولها وقد رفعت منديل الغطوة حتى منتصف جبينها فبدت كالشبح المتحرِّك بلا شكل ولا تضاريس ولا أنوثة. وما زاد في بؤسها ذاك الوجه الصغير النحيل بعينيه الواسعتين المتحرّكتين يميناً وشمالاً دون التفات، عينا عصفور صغير خائف يلتقط

الحبّ ويتطلّع خوفًا من قطّ أو صيّاد. وكادت أن تقع حين تعثّرت قدمها بحجر لم تره لأنّ عينيها كانتا تتطلّعان إلى رشا كهدف منشود. فصاحت رشا: اللّه! اللّه! اسم اللّه عليك. لكنّ البنت تداركت ولم تقع على الأرض، إلاّ أنّ منديلها انزلق من مكانه وغطّى عينيها وبقيّة وجهها، فاحتارت به وظلّت تمشي وهو منسدل ولا تعرف ما تفعل به وماذا تفعل. فزادت التصاقًا بالإزار تشدّه حول جسمها اتّقاء من الوقوع وعيون الناس. ورغم أنّ الناس كانوا بعيدين عن الموقع لأنّ الخال كان قد اختار أبعد ركن في المتنزّه حتى لا تنكشف النساء لعيون الناس، إلاّ أنّ وداد كانت تحسّ أنّ كل الدنيا تراقبها، الناس والأمّ وأخوها وحيد. ولم يدر بخلدها أنّ الخطيب يراقبها، فذاك الخطيب لا وجود له في وعيها لأنّ وعيها كان أصغر من أن يحسّ بوجود الرجل. كانت أنوثتها ما زالت في طور النموّ. وكانت تربيتها تمنعها من خوض العيب. وكان العيب مصدره الرجل، وبالضرورة جسد الأنثى، أي جسدها هي لأنّها منذ حاضت والكلّ يقول: غطّي، غطّي. يُدقّ الباب فتقول لها الأمّ: غطّي، غطّي. تصعد للسطح لنشر الغسيل فيقول وحيد: غطّي، غطّي. يأتي الزبّال فتقول لها الأم: غطّي، غطّي. وكأنّ الزبّال سيأكلها! وكأنّ عيون الناس أفواه وحوش مفترسة، وهي فريسة. وبما أنّ أمّها محور العالم ورمز الأخلاق والفضيلة، وبما أنّها الأعرف والأفهم، فما تقوله الأمّ هو الصائب. فلماذا لم تقل لها: غطّي، غطّي، وبدلاً من ذاك قالت لها: روحي معهن!

نادتها رشا وهي تراها تمشي كالضائعة، وذاك المنديل يزيد من ضياعها وتعثّرها، وصاحت بها: وله يا وداد زيحي المنديل. فهمست

صوف: أعوذ بالله! لكنَّها مدّت يدها ورفعته بحذر وواصلت النظر في وجه رشا.

قالت رشا لابنة شالوم:

ـ نيّالك يا إستر، بلا منديل!

ابتسمت تلك ولم تعلّق، لكنَّها واظبت على متابعة أختها الوسطى بنظراتها خوفًا عليها من السقوط عن ظهر الحمار وخوفًا عليها من تحرُّشات رشاد. كان رشاد يدَّعي التمسُّك بسرج الحمار مع أنَّ الولد صاحب الحمار كان يمسك بالرسن ويسيطر على الوضع بشكل جيِّد. لكنَّ رشاد كان يلاحق البنت بنظراته ويتحيَّن الفرصة ليلمس ذراعها أو كتفها أو أيّ جزء من أجزائها يقع في متناول يده. وكانت البنت مستثارة إلى أبعد حدّ، فهي من النوع الضحوك المتأجّج. كانت مسرورة وسعيدة بركوب الحمار، لأنَّها اعتادت ركوب الخيل في كيبوتس عخشاف. لكنَّها، وبسبب انتقال العائلة من كيبوتس عخشاف، فقدت الاتّصال بخيول الكيبوتس فخسرت رياضة تعشقها. وها هي الآن على ظهر حمار مضحك جدًّا عليه خرز وودع ودناديش تملأ الدنيا بطنطنات تضحكها. لكنَّ رشاد فهم الموضوع بشكل آخر، فهم أنَّ البنت مسرورة لأنَّه معها، ولأنَّه يلمسها ويمسك بها، ولأنَّه حملها من وسطها مثل الريشة وثبَّتها فوق ظهر الحمار مثل الملكة.

ظلَّت إستر تتابع أختها فوق ظهر الحمار ورشاد يهرول وراءها وهو متمسِّك بها. لم تُعر اهتمامًا لما تسمع لأنَّ اهتمامها كان منصبًّا على الحمار وما يدور على ظهره.

سألتها رشا:

ـ أنت عندك خطيب؟

هزّت رأسها نفيًا بعدم اهتمام:

ـ لأ ما عندي.

ـ ليش ما عندك؟!

قالت بعدم اهتمام وهي تراقب حركات رشاد:

ـ لأنّي صغيرة.

ـ إنت ذغيرة؟ شو تقول وداد؟ وداد عمرها ١٥سنة وعندها خطيب قد الدنيا.

هزّت إستر رأسها بعدم اهتمام ودمدمت:

ـ يا حرام! يا حرام!

فوجئت رشا:

ـ وداد يا حرام؟!

سكتت إستر وقد ازدادت غضبًا من حركات رشاد التي بدأت تنزلق لما تحت الخصر، ومن ذاكرتها المليئة بالتجارب وبأقوال البنات عن شباب العرب. شباب العرب يعملون كذا. شباب العرب يقولون كذا. شباب العرب ونساء العرب وكلّ العرب....

قالت رشا:

ـ وداد بلغت من ٣ ثنين، أختك بلغت؟

لم تجب السؤال وبدأت تغلي. كانت حركات رشاد قد زادت عن الحدّ، وأختها سارة ما زالت تضحك وتصيح ولا تأبه. كانت سعيدة ومهتاجة وتتصرَّف ببراءة كالأطفال.

قالت إِستر بغضب مكبوت:

ـ أخوك زادها وتخّنها.

ـ كيف يعني؟

ـ يعني، يعني، مش عاجبني.

ـ ليش مش عاجبك؟

لم تجبها، وأهملت السؤال وأخذت تصرخ:

ـ سارة، سارة، انزلي عندك.

سألتها رشا بغيظ ساخر:

ـ خايفة عليها؟

لم تجبها وظلّت تتابع ما يجري فوق ظهر الحمار، وهمست بغيظ:

ـ أمّا حيوان!

سمعتها رشا فصاحت بغيظ:

ـ أخوي حيوان؟ مين الحيوان؟ أختك بالشورت والمزلّط ولحمها للبيع وللفرجة.

تركتها إستر تنعف الكلام وأخذت تركض نحو الاثنين وهي تصرخ:

ـ ارفع إيدك. سارة، سارة انزلي عندك.

لكنَّ سارة لم تسمع، كانت في واد وأختها في واد. كما أنّ أصوات البنات والأجراس والدناديش كانت أعلى، فضاعت صرختها في الضجّة، وظلَّت سارة فوق ظهر الحمار ويد رشاد تطلع وتنزل فوق فخذ البنت. تأمَّلتها رشا وهي تركض فقالت لوداد:

ـ شايفه؟ شايفه؟ بتقول عن رشاد حمار وحيوان!

لم تجبها وداد وظلّت تلاحق ما يفعله خطيبها فوق ظهر الحمار. دغرتها رشا:

ـ شوفي، شوفي، راحت هناك لتاخد دوري.

وأخذت تصيح من مكانها:

ـ دوري، دوري!

لكنَّ العراك كان على أشدّه فوق ظهر الحمار. إستر تحاول إنزال أختها، وتلك تقاوم ورشاد يتمسَّك بخصر البنت.

وضعت رشا يدها على رأسها لتمنع المنديل عن الانزلاق وبيدها الأخرى سحبت وداد وهي تصرخ:

ـ تاخد دوري؟ واللّه لو تموت!

وأخذت الاثنتان تركضان وكل واحدة تشدّ بمنديلها خوفًا عليه من التطاير والانزلاق. لكنَّ إزار وداد كان طويلاً ويعيق حركتها فتتعثّر. تركتها رشا في منتصف الطريق وأخذت تركض. وصلت هناك وكان

العراك وشدّ الأذرع على أشدّه. إستر تشدّ بذراع سارة، وسارة تشد برأس الحمار، ورشاد يشدّ بخصر البنت.

دقّت رشا على ظهر إستر وقالت بغضب:

ـ الدور دوري.

لم تلتفت تلك وصاحت برشاد:

ـ اترك البنت. اترك سارة.

وكان ذاك يضحك ويشدّ بخصر البنت وقد أعجبه الموقف، ووجده فرصة سانحة ليزداد التصاقًا بالأجساد.

ـ اترك سارة، اترك، اترك.

ولم يترك، بل أخذ يقهقه بأعلى صوته. فصاحت رشا:

ـ الدور دوري؟

وأخذت تشدّ بظهر إستر وتسحبها. إلاّ أنَّ إستر، وقد استبدّ بها الغضب والغيظ من الاثنين، خبطت رشا بكوعها خبطة قويّة آلمتها فأخذت تصيح:

ـ وله يا حيوانة الدور دوري، هذا حمارنا.

وشدّت برشاد تستنجد به:

ـ قل لها يا رشاد هذا حمارنا.

وعادت تشدّ بظهر إستر، وإستر تشدّ بظهر رشاد، ورشاد يشدّ بخصر سارة، وسارة تشدّ برأس الحمار. وأخيرًا فاض بإستر الكيل

وناولت رشاد ضربة كراتيه جعلته يلفّ عدّة لفات ويقع على الأرض مثل الميّت. فصاحت أخواته وصاح الصغار ونهق الحمار وبدأت معركة غير متكافئة بين الجانبين، أخوات رشاد يتسلَّحن بالقرص والعضّ وشدّ الشعر وبنات شالوم بفنون المصارعة وضرب الكراتيه.

وصلتهم وداد فوجدت نفسها وقد أُقحمت بين الأجساد المتعاركة، والغطاء منزلق عن رأسها فبدأت تبكي. أخذت تتلقّى الضربات بيد، وبيدها الأخرى تحاول التقاط الغطاء من تحت الأقدام. بعد جهد جهيد استطاعت سحبه عن الأرض فوضعته على رأسها بشكل أفقي واستدارت للخلف حتى تهرب. مشت خطوات تترنَّح. سطّلها الخجل والذهول والخوف. وكادت أن تقع على الأرض لولا أنَّ تلقّفتها ليزا واحتضنتها. كانت ليزا قد هُرعت للموقع مع بعض الرجال كي تفصل بين الأطراف المتنازعة فتلقّفت البنت واحتضنتها. أحسَّت البنت بدفء الاحتضان فانخرطت في بكاء ذليل مرير.

همست ليزا وهي تربّت على ظهرها لتهدِّئها:

ـ بسيطة، بسيطة، كلّه على حمار؟!

نظرت للخلف ورأت خطيبها على الأرض كالقتيل، وأخواته فوقه يتصايحن ويلطمن وينتفن الشعر فهمست تردِّد ما سمعته:

ـ كلّه على حمار!

زمن التغيير

حين عـادوا إلى نابلس فـاجـأت وداد الجـمـيع بقـولها إنَّهـا لا تريد الزواج من ابن خالهـا، لأنَّه كان السـبب في ضربها وقلّة قيمتها وسقوط الغطاء عن رأسها. كـمـا أنَّه كـان يحابي بنات شالوم ولا يعبأ بها. أمّها نهرتها وقالت لها إنَّه لا يجوز أن تتفوَّه بمثل ذاك الكلام وإنَّه لا وجود لفتاة في العيلة تفسخ الخطوبة وكتب الكتاب لأن كتب الكتاب، في عرف الشرع وعرف القانون، زواج كامل بلا نقصان. فماذا يقول الناس إذا فُسخت؟ يقولون مطلّقة منبوذة بلا حياء وبلا قيمة؟

كما أنَّ وحيد، وقد أحسّ أنَّ ميزان زواج البدل قد بدأ يختلّ بسبب اختلال إحدى كفَّتيه، قال بوجوم، وبدون أن يرفع صوته: عيب يا وداد، عيب يا أختي.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuabdo

انبرى أمين ليدافع. قال إنَّ ما حدث في جريشة لهو أكبر دليل على أنَّ زواج وداد من ذاك الرقيع سيكون كارثة ومصيبة. ألم يروا كيف كان يلحق بابنة شالوم مثل المعتوه، ويتحسَّس أجزاءها مثل المهووس، وتسبَّب بمعركة النساء بسبب تياسته وقلّة أدبه؟ وحين رأى عدم الاقتناع في أعينهما قال إنَّ وداد ما زالت صغيرة على الهم والمسؤولية وإشكالات الزواج والمتاعب.

ردَّت الأم بغيظ وغضب:

ـ وداد بلغت من ٣ سنين، والبنت المحترمة، بنت الناس، لا يمكن أبداً تتطلّق.

لم يجبها أمين وظلّ صامتاً يفكّر بما عساه يفعل أمام ذاك الهجوم وأمام وضع أخته وما يحمله من تعقيد.

عادت الأمّ تصرخ بدويّ:

ـ ما عندنا بنات تتطلّق. شو يقولوا الناس؟ وإنت يا وحيد، خطيبتك تمشي بلا غطوة؟ شو يقولوا الناس؟

تمتم وحيد:

ـ يمّه حيفا غير عن نابلس.

صاحت بغضب:

ـ مالها نابلس؟

همهم بارتباك:

ـ يعني قصدي حيفا كبيرة، يمكن، ممكن...

قاطعته بحدّة وحزم قاطع:

ـ مش ممكن خطيبتك بلا غطوة ومش ممكن أختك تتطلّق. هذا الكلام آخر كلام.

وهكذا انقسمت العائلة إلى فريقين. فريق ينادي بفسخ الخطوبة، وفريق يتمسّك بتلك الخطوبة وإتمام الزواج. أمين وسمير الصغير

يحرّضان وداد ويخوّفانها من ذاك الزواج، والأمّ ووحيد يصرّان على إتمامه. أما وداد فقد انطوت على نفسها وأصيبت بالبكم. ما عادت تأكل أو تشرب. ما عادت تقوم بأعمال البيت بهمّة ونشاط. ما عادت تتفقّد جهاز العرس وذهب الشبكة. كانت تمشي مثل الشبح وصارت نحيلة مثل الخيال. أمّها لم تشفق على وضعها، وظلّت تردِّد وهي تُخيط الجهاز: شو يقولوا الناس؟ الموت يسبق.

سمعت وداد كلمة «الموت» فهرولت لتختبئ في مكان ما، ثم خرجت من مخبئها بعد دقائق لتسأل أمّها بذلّ وخضوع ماذا تفعل؟ تمسح الأرض أو تلمّع الزجاج أو تخيط إزاراً أو غطوة؟ والأمّ تجيب بصوت خلا من أيّ عطف أو إشفاق، ووجه اكتسى بكشرة مخيفة: ما تعملي شيء، روحي من هون، مش قادرة أشوفك ولا حتى أسمع صوتك. هربت من الغرفة ولجأت للمطبخ كي تبكي فوجدت أمين هناك بانتظارها ليقول لها إنَّ عليها ألاّ تضعف وألاّ تنهار.

في البداية، كانت تستمع إلى نصائحه فتشعر بالامتنان لأنَّه يدافع عنها، ولأنَّه يقول لها كلّ ما خفي وما استغلق. وفيما بعد، بعد أيّام، وأمّها تنبذها وتُسمعها من مرّ الكلام ما يبكيها، ووحيد يجافيها ويهملها، وكلمة الموت تتردَّد من غير حساب، أو ربّما بحساب دقيق، باتت تتهرَّب من ملاحقته. صارت إذا رأته في المطبخ تنسحب من خلفه بتلصُّص وتلجأ إلى غرفة الخياطة حيث الأمّ. وإذا ناداها تدّعي عدم السماع أو تتلكّأ. فإذا سألها لماذا لا تردّ عليه تجيب بخوف أنَّها لم تسمع لأنَّها مشغولة بالخياطة وأعمال الدار.

أخيراً، وبعد العديد من المحاولات اليائسة، فهم أنَّ العادات أقوى منه ومنها، وأنَّ قانون العيلة هو الأفعل، فما عاد يلحّ أو يطنب، بل أهملها، وعاد لدروسه وقراءاته وقال لنفسه: تغور البنت وتغور العيلة، مالي ومالهم! وترك نابلس وعاد إلى القدس وبيت الطلبة ولم يحضر العرس وادّعى الانشغال بالامتحانات والبحث عن وظيفة جزئيَّة لفصل الصيف.

وهكذا مشت الأمور بلا تلكّؤ، وتمّ الزواج حسب الموعد. ورغم ذلك، اعتقد الكثيرون في ذاك الوقت أنّ الزمن زمن التغيير.

كان عرسًا للأكابر. لم يبق وجيه أو غنّي أو مقاول إلاّ ودُعي لذاك الحفل، وكذلك عدد محدود من اليهود. فعلى الرغم من أنّ الجوّ كان قد بدأ يتفجَّر، والمظاهرات تندلع هنا وهناك، والإنجليز يطلقون الرصاص العشوائي، واليهود يستعدُّون لاقتناص الفرص للاستيلاء على فلسطين، إلاّ أنَّ القطيعة بين الأوساط العلويَّة ما كانت قاطعة نهائيَّة. وكان الجيران والمعارف من الطرفين ما زالوا يتزاورون في المناسبات الرسميَّة والأعياد ويدعون بعضهم للأعراس والاحتفالات. وهذا بالطبع شمل إسحق شالوم وبناته. إذ على الرغم ممّا حدث بين البنات في جريشة، إلاَّ أنَّ الأبوين عملا بجدّ على جمع الطرفين ثانية وتصفية الجوّ. كما أنَّ العرس حدث الموسم، فقد جيء بفرق فنّيَّة من تلّ أبيب ومصر ولبنان والراقصة الشهيرة كاريوكا وعبد الوهّاب. فهل يفوّتون عرسًا فخمًا بسبب عراك سخيف بين البنات؟ وهكذا، سارعت عائلة شالوم لتلبية الدعوة والمشاركة في ذاك الحفل.

ابتدأ حفل النساء بزفّة أحيتها الجنكيّات بأغانٍ تراثيَّة تشيد بجمال العروسين، وفحولة العريسين، وارتفاع المهور وقدر الحضور. ثم

حـمي الـوطيس حين قـامـت أخـوات العـروس للرقص احـتـفـاء بزواج الكـبرى، وكـذلك فعلت الوسطى مـن بنات شـالوم، فـهـمـست رشا في أذن وداد: شـوفـي الملعـونـة مـا أشطرها! لـم تعلّق وداد لكنّهـا انتـبـهت لعريسـها وهو يلاحق الفـتاة بنظراته. كـان قد ابتلع كـمّية لا بـأس بها من الويسكي حتى ينبسط ويفرفش وينسى همّـه. أبوه شجّع أصدقاءه على إسكاره حتى يـلين وينسجم ويتحـسَّن مزاجه. تحسَّن مـزاجـه وانبـسط قليـلاً، إلاّ أنَّه لـم ينس أنّـه مـقبـل على شيء بغـيض لا يرغب فـيـه فـبدأ يلهث.

رأت وداد وجه عريسها يعبق بالدم، وصدره يرتفع وينخفض مثل المنفاخ، ورأت الفتاة اليهـوديَّة ترقص في الوسط وتبتسم له، ورأت أمّـها تشـير لهـا بحـركـات الوجـه أن تبـتـسـم وتبـدو فـرحـة فـأخـذت تبـكي. انهـمرت دمـوعـهـا مـدراراً فـوق البـودرة والحـمـرة وسـالت الكحـلة على الأبيض فهرعت الأمّ لتُسكتها ولحقت بها بنات الخال وهنّ يسألنَ عمّا يبكيها ويزعجها، فالتفتت الأمّ وقالت بثقة:

ـ هذا من الفرحة ورهبة العرس. زغرتوا يا بنات!

تدهور الوضع حين هربت وداد. كانت تقطن في أعلى طابق من عمارة تطلّ على البحر. تستيقظ صبحًا وترى البحر والبواخر وتسمع اصوات الصيّادين، فتحسّ برغبة في النزول إلى البحر والهرب إليه. تركب باخرة مع الركّاب، تنغمس بين الصيّادين ترمي الشباك وتصيد السمك ثم تبيعه وتشتري تذكرة تسافر بها حتى بيروت، حتى قبرص، حتى جهنّم حتى تخلص من ذاك السجن. كان الزواج بمثابة سجن وزوجها بالذات هو السجّان. ورغم أنَّ ذاك السجَّان ما كان متواجداً في معظم الوقت وأغلب لياليه في الخارج، إلا أنَّها أثناء غيابه، كما في حضوره، تحسّ أنَّها عصفورة في قفص، وهو الصيّاد.

تجلس في الليل وترى الأضواء. تعدّ النجوم وهي وحيدة. أحيانًا تعدّ حتى تنام ثم تستيقظ وسط الليل والدنيا سكون وترى الأضواء في الميناء وباخرة تنزل حمولتها، وبوق يهدر في سكون الليل فتحسّ بفراغ شبيه بالموت.

بدأت تفكّر بالانتحار. ماذا لو وقفت في البلكون وألقت بنفسها من ذاك العلوّ؟ ماذا لو ذهبت إلى الشاطئ وألقت بنفسها في عمق

البحر؟ وإذا ماتت، من يذكرها؟ زوجها طبعًا لن يذكرها، ماذا عن الأمّ؟ ماذا عن الأخ؟ ماذا عن الأهل والأقارب؟ لن يذكرها أحد منهم، ولو ذكروها فلأيّام معدودة، أيّام العزاء، ثم ينسونها وتصبح ذكرى، أو لاذكرى، وكأنّها لا عاشت ولا كانت، أي أنّها بالفعل بلا عيلة ولا أقارب ولا أصدقاء.

بدأت تتساءل ما الدنيا؟ بدأت تتساءل ما نفع الأهل؟ بدأت تتساءل عن معنى الأمّ والأمومة. أمّها صارت بالنسبة لها مثل الغولة. صارت تكرهها من الأعماق. صارت تحسّ أنّها السبب بما حلّ بها. فلو كانت تحسّ بآلامها هل كانت تدعها تتعذّب وهي تعلم أنَّ ذاك الزواج ليس زواجًا بل هو صفقة. بدأت تفهم معنى الصفقة. بدأت تفهم أنَّ الأمور ليست كما تبدو على السطح. الأمّ ليست منزّلة والأهل ليسوا سند الظهر، والزواج غلط والناس غلط والدنيا غلط. بدأت تتململ وتتمرَّد. وحين أحسَّت ببوادر الحمل وعرف الجميع أنَّها حامل، جاءت أمّها لتهنئها. استقبلت الأمّ بوجه جامد. رأتها الأمّ في ذاك الوضع، بوجه أصفر وجسد نحيل وشعر منبوش بلا تسريح، فلم تسألها لماذا وكيف ومتى وأين، كانت تعلم تفاصيل الحال بأنَّ العريس يغيب ويسكر ولا تراه ابنتها إلاّ ما ندر.

قالت لها لتواسيها: بكرة الأولاد يسلّوك. رشقتها بنظرة عتاب وكراهية، فقالت معزِّية كما لو كانت تدافع عن نفسها: واللّه الأولاد أهمّ من الزوج. أنا ترمّلت وأنا صغيرة لكنَّ الأولاد كانوا حياتي. همست وداد معلِّقة: كانوا حياتك! قالت الأمّ: وما زالوا، وأنت معهم. سألتها بلؤم: وأنا معهم؟ أكيد؟ يا سلام!

حـدَّقـت الأمّ بدهشـة وذهـول، لأنَّ وداد صـارت تسـأل وصـارت تسخـر، وصارت تردّ على الأقوال بلهـجة غريبـة، لهجة من يعرف أسراراً لا تعجبه ولا يفضي بها ولا يهضمـها، بل تظلّ في العمق تسكن بطنه وتحرق قلبـه. بدأت تقلق. بدأت تخاف. صـارت تكثـر من زياراتهـا. تقيم في الظاهر عند وحيـد، لكنَّهـا تقضي جلّ الأوقات في بيت وداد. تتـركـهـا وداد جـالسـة في الصـالة أو في البلكـون وتنسـحـب بلطف وتختـفي في المطبخ أو الحمّام. حين يطول الغيـاب تدخل الأمّ فتجـدها في غرفة النوم مكوَّرة وقد غطّت رأسها بلحاف كثيف وكأنّها تريد أن تختـبئ منهـا ومن العـالم. لـم تعـرف الأمّ مـاذا تفـعل. بدأت تـراجع موقفـها. أحسَّت أنّها أخطأت بحقّ ابنتهـا، لكن ما العمل وما المخرج. فات الأوان.

عـادت لتستنجد بأخيـها، لكنَّ أخاها قال لها إنَّ ذاك الولد سبب عذابه، وإنَّ وداد وحذاء وداد أفضل من ابنه بألف مرّة، وإنَّه سيعوّض على ابنتهـا نواقص ابنه. فيعود مسـاء وقد أحضر لها ما لذّ وطاب من حلويات ومكسّرات وجـوز ولوز وسكاكر، ثم ساعة ذهبية بكذا مبلغ، أو إسوارة ألماس بكذا مبلغ، أو كردان ألماس بكذا مبلغ. ولا ينسى أن يقـول «بكذا مبلغ». إذ كان يقول: هذي الإسوارة اشتريتها بكذا مبلغ. هذا الكردان اشتريته بكذا مبلغ. هذا اللولو وهذا اليـاقوت... فتقول الأمّ وهي تبالغ بردّات الفعل كي تُشعر البنت بقيمة الهدايا والتعويضات: ما شاء اللّه! يا سلام، يا سلام، تسلـم إيدك. من إيد ما نعدمها يا سيِّد الكلّ. كلّ هذا لوداد؟ فيقول الخال: طبعًا لوداد. أنا فيه عندي أغلى من وداد؟ فيه أهم من وداد بهالدنيا؟ خذي يا خالي. خذي البسيه خلّينا نفرح.

لكن وداد لا تفرح، بل تتجهّم، وتنسحب ببطء وتختفي في المطبخ كعادتها أو في الحمّام. وبعد نصف ساعة أو أكثر تأتيها الأمّ لتذكّرها بأنَّ الخال يجلس في الصالة ينتظرها. فتقول بجفاف: أغلي القهوة أو أغلي الشاي؟ وتنظر الأمّ حولها فلا ترى قهوة ولا ترى شاياً فتقول بلطف: يرضى عليك، ادخلي عنده، خالك المسكين تعّب نفسه. جاب لك هدايا بكذا مبلغ. فتردّ وداد ساخرة: بكذا مبلغ! وترشق الأمّ بنظرة حقودة، قصيرة، سريعة، مثل رصاصة، تكون كافية لاختراق العظم. فتصفرّ الأمّ وتهرب من المطبخ والنظرات وتلحق بأخيها وهي تقول: تغلي القهوة. ثم تضيّفه ممّا جاء به من حلويات حتى ينسى تلك القهوة. وحين يخرجان وينغلق الباب تخرج وداد من مخبأها وتجلس كالعادة في البلكون تفكّر بالبحر، وتفكّر بالهرب ثم بالموت، أو تتخيَّل أنَّها تقتله. تقتل الزوج ثم تهرب، أو تقتل الزوج ثم تقتل نفسها فيموت الطفل. لا تريد الطفل. لا تريد الأهل. لا تريد الحياة. فقط ستموت. هذا ما تريد، فقط أن تموت.

لكن، بما أنَّها ستموت، لماذا لا تقوم بتجربة تتمنَّاها؟ لماذا لا تذهب للميناء وتندسّ وتضيع بين الناس؟ لماذا لا تنزل للحسبة أو سوق السمك وترى الدنيا من غير قفص؟ لماذا لا تدور في الشوارع وتركب حنطوراً أو تكسيًّا وتذهب به حتى نابلس أو حتى القدس؟ لن تزور الأهل ودار العيلة، فقط ستدور في الشوارع والسوق العتيق وتشتري حاجة، أيّة حاجة، ثم تعود في المساء إلى حيفا دون أن يحسّ بها أيّ مخلوق. هذا ما تريد، ألاّ يحسّ بها أيّ مخلوق، وأن تهرب.

حين فتحت ليزا الباب وجدت أمامها شبحًا ملتفًّا بالأسود. كان المدخل معتمًا فلم تميِّز وجه المرأة تحت المنديل. وحين رفعته وقالت لها: أنا وداد، صاحت ليزا: أهلك خسفوا الدنيا عليك. فلم تأبه، ودخلت الدار تتلفَّت وكأنَّها تكتشف الوضع.

قالت بجدِّيَّة ووجه خلا من أيّ تعبير:

ـ داركم حلوة.

أعادت ليزا ما قالته:

ـ أهلك خسفوا الدنيا عليك!

لم تجب بل أخذت تتلفّت حواليها وتقول بهدوء غريب:

ـ داركم حلوة!

سألتها ليزا مستاءة:

ـ كيف وصلت؟

قالت باقتضاب:

ـ أخذت العنوان.

انتظرتها ليزا أن تكمل، لكنَّ وداد توقَّفت عند ذاك الحدّ وظلَّت تحدِّق كالمسطولة. كانت قد قضت النهار هائمة في أزقّة القدس وشوارعها. اشترت من هذا واشترت من ذاك، واشترت كمّيّة من الكمّون لأنَّ الكمّون، كما قيل لها، يسرِّع الدورة ويرجعها فيسقط الحمل. لم تكن تعرف ما تريد، ولا تريد أن تعرف إلاّ أن تضيع ويضيع الحمل.

سألتها ليزا وهي تتأمَّل شكلها المتعب وملابسها المغبّرة:

ـ مالك يا وداد؟

همست بصوت متقطِّع وكأنَّها تسمِّع درسًا:

ـ خلِّيني عندك، ساعديني.

وقفت صامتة تراقبها ورأتها تهبط على الأرض عند قدميها، وقالت بسرعة، بدون توقّف:

ـ أنا بطبخ لك، أنا بغسل لك، أنا بعمل حالي خدامة تحت رجليك. أنا بموت. دخيلك يا ليزا ساعديني.

قالت ليزا بحيرة وقلق:

ـ كيف أساعدك!

ـ خليني عندك، ساعديني.

ـ كيف أساعدك؟ أنت حامل.

قالت بحزم:

ـ لازم يسقط.

ـ كيف؟ لا يمكن!

ـ بشرب كمّون.

ابتسمت ليزا بمرارة. لزمت الصمت. أمسكت بساقيها وهي تنشج:

ـ دخيلك يا ليزا ساعديني. أنا بموت.

هبطت على الأرض بجانبها وأحاطتها بذراعيها وهي تفكّر:

ـ اسمعي يا وداد. خلّينا نفكّر بالمعقول. أنت زوجة وأمّ وحامل وأهلك والناس كلّهم ضدّك. لو كنت طلبت قبل اليوم كنت ساعدتك.

أخذت تنشج:

ـ يعني أيمتى؟

ـ يوم جريشة. أنا يومها قلت ووعّيتك. قلت لك يا وداد: كلّه على حمار؟ وأنت ردّيت وقلت لي: كلّه على حمار. يعني فهمت.

صاحت بألم:

ـ واللّه ما فهمت.

جابهتها ليزا بجدّيّة:

ـ الوضع اليوم أسوأ بكثير. كيف أساعدك؟ قولي لي كيف؟

هزّت رأسها بحيرة وذهول:

ـ مش عارفة كيف. لكن أنت، أنت ليزا، والكلّ يقول ليزا وليزا. أنت متعلِّمة وفهمانة وعندك شهادات. أنا مش عارفه.

نظرت إليها من علٍ ورأتها مكوّمة على نفسها بالغطاء الأسود والكيان الضعيف. جسم ضعيف، عقل ضعيف، قلب ضعيف، وهي حامل. كل العناصر ضدّها فماذا تفعل؟ معركة خاسرة لا محالة، فمن أين تبدأ وبماذا؟ وتذكَّرت موعدها في صباح الغد. كانت قد عملت مع الجمعيَّات النسائيَّة طوال أسابيع لتنظيم مظاهرة سلميَّة ضدّ الانتداب ووعد بلفور. هدف سياسي واضح، لكن في عمقه، في جوّاه، بوادر تحرُّكات نسويّة. هدف له أكثر من بُعد، ونضال على عدة جبهات. فإذا كانت هي من تدعو لتلك الأهداف، وإذا كانت قد آلت على نفسها أن تقوم بتلك الأعباء وأن تتحمَّل نتائجها بما فيها السجن، فهل تخاف من أهل وداد أو زوج وداد؟ لكن، إذا فتحت تلك الجبهة، فهل تكون وداد إلى جانبها أم تخذلها؟ هل تملأ يدها من وداد؟ وقد علَّمتها التجارب أنَّ المرأة في هذا الوضع تبدو ضعيفة. لا تبدو فقط، بل هي في العمق وفي الإحساس والتربية وردود الفعل قد هُيِّئت حتى تكون كيانًا مهزوزًا بلا أوصال. فهل تراهن على هذا الكيان وتستثمر فيه؟ هي لا تعرف. في تلك اللحظة لا تعرف ولهذا أرجأت القرار حتى تهدأ وتستقرّ على موقف، فقد تتبلور بعض الأفكار.

مدَّت يدها وقالت للمرأة بجانبها:

ـ قومي اغسلي وجهك وإيديك. الصباح رباح. اليوم تفكير وبكره التدبير. بكره نقرِّر.

أخذتها معها لمظاهرة النساء. انطلقت المظاهرة من وسط المدينة بقيادة رئيس البلدية وبعض الوجهاء ورجال الدين وشيخ الأقصى. كان الاتّفاق على أن تكون مظاهرة سلميَّة بدون هتافات ولا اشتباكات ولا تحرّش، فمشت النساء بخشوع كما لو كنَّ في جنازة والصمت يلفّهنّ ويلفّ المدينة بأكملها، وإضراب تامّ في المتاجر والمؤسّسات وأنشطة السوق. الشوارع خالية إلاّ من النساء الملتفّات بالأسود وبعض المارّة ممّن وقفوا على الجانبين للفرجة إذ كانت تلك هي المرّة الأولى التي تخرج فيها النساء من بيوتهنّ للمشاركة بعمل وطني وهدف عامّ.

لم تحسّ وداد أنَّها تسير في وسط مغاير للوسط الذي اعتادته، لأنَّ النساء متّشحات بالغطوة وخلف المناديل. لكنَّها لاحظت أنَّ بعض النساء كن يعتمرن البرانيط أو شالات صغيرة التفّت على شكل عمائم أو يشمك. كما لاحظت أنَّ بعض النساء من ذوات الغطوة رفعن مناديلهنّ على قمم رؤوسهنّ ومشين سافرات الوجوه دون خوف من عيون الرجال وفضول المارّة، غير أنَّ الرجال ما كانوا ينظرون مباشرة ولا يلتفتون. كان الجوّ أشبه ما يكون بجنازة رسميّة والكلّ حزين.

فتذكَّرت ما قالته أمّها عن نساء القدس وكيف شبّهتهنّ باليهوديّات. لكنَّها تراهن الآن بشكل مغاير، فوجوههنّ عابسة حزينة، وهنَّ مثلها يلبسن الإزار ويختبئن خلف المناديل. أمّا المكشوفات مثل ليزا فيتحدّثن بلغات أجنبيّة لرجال شقر كانوا يسيرون بمحاذاة المظاهرة وفي أيديهم كاميرات وأقلام ودفاتر.

سألت ليزا عن هؤلاء فأجابت همسًا ودون التفات: هذي صحافة. وسائل إعلام. فهمت وداد معنى «صحافة» ولم تفهم معنى «وسائل إعلام». لكنَّها صمتت وظلَّت تمشي وسط الجموع في بحر بشر.

لأوّل مرّة، نسيت وداد لماذا جاءت وكيف جاءت وأنَّها حامل. نسيت ما كانت تحسّ به من ظلم وأسى، وغمرها إحساس بالرهبة وهي ترى تلك الأمواج من النسوة محاطة بجموع المارة تقف صامتة على الجانبين دون تهافت، دون تدافع، وفي عيونهم قلق وتوتّر وغضب حزين. كانت أحداث الأسابيع الماضية مليئة بالشؤم والمجازر. ثوّار شُنقوا، متظاهرون اعتُقلوا، بيوت نُسفت، وعائلات شُرِّدت وبعض القادة هربوا إلى لبنان وسوريا، وآخرون أُبعدوا إلى قبرص أو سيشل، وعدد اختفوا عن وجه الأرض ولا أحد يعرف أين ذهبوا أو كيف اختفوا. وكانت بعض النساء يحملن صوراً مكبَّرة لأبنائهنّ وفي عيونهنّ دموع وألم. فبكى المارّة وصاح أحدهم: اللّه أكبر. في تلك اللحظة أحسَّت وداد بموجة ضبابية تغلّفها، وبدأت ترتعش وتتمايل وتمنّت أن تموت كهؤلاء الشباب في سبيل هدف نبيل له معنى، وأن

يمنّ اللّه عليها بموت نظيف له قيمة. ما أحلى الموت بكرامة. ما أحلى العذاب في سبيل الوطن. ما أحلى الموت في الشهادة. أمّا العذاب والموت في سبيل زواج كاذب وزوج مقيت فذاك استنزاف لا معنى له، يجعل من المرأة مومياء تحترف الحزن. ما أبعد هذا الحزن عن ذاك الحزن. ترى، لو كانت أمّها معها في هذا الجوّ فهل تحزن؟ وهل كانت تبكي لبكاء الناس؟ وهل كانت تقول عن نساء القدس ما قالته عن ليزا يوم جريشة؟

كل تلك المشاعر النبيلة ومراجعات الذات لم تدم أكثر من دقائق معدودات، لأنَّها عادت إلى واقعها حين لمحت وجه أخيها، فشهقت وتعثَّرت وكادت أن تقع. سألتها ليزا بدهشة وقلق: مالك؟ دخت؟ همست بذعر: أخوي أمين. ابتسمت ليزا وهزّت رأسها وقالت باستهانة واستفزاز: طيِّب، وإذا؟! قالت بذعر: إذا قال لأمّي ولخالي...! سألتها ليزا مختبرة: خايفة منهم؟ لم تجبها، بل ظلَّت صامتة تتأمَّل ما حلَّ بها وما شعرت به، ولماذا خافت من أمين أو قلقت منه؟ أمين غير مخيف، هذا مؤكَّد، وهو من كان يدعمها ويحرّضها. لكنَّها بالتأكيد تخاف منهم: من أمّها، من خالها، من وحيد، ومن ذاك الزوج اللاسائل واللامسؤول. فإذا كانت تخاف، وما زالت، واكتشفت ليزا تخوّفها، فهل تمدّ يدها وتساعدها؟

قالت ليزا: مجموعة منّا لازم تدخل عند الحاكم وأنا منهم. قالت بذعر: خذيني معك. سألتها ليزا مبتسمة: خايفة من أمين؟ صمتت على مضض. خافت أن تكون ليزا قد اكتشفت ارتباكها وتخوّفها،

فأخذت تلوم نفسها لأنَّها عبّرت عن خوفها، ولأنَّها شهقت حين رأت أمين. وتذكَّرت ابتسامة ليزا الساخرة وهي تسألها: «طيّب، وإذا؟!». فعلاً وإذا. ماذا لو رآها واكتشفها؟ وهذا لن يحدث أبداً لأنَّها مختبئة بالغطوة وتحت المنديل وسط أمواج من الأسوَد وهي وسطه نقطة في بحر، قشّة في تبن، فكيف يكتشفها؟

بعد خطوات عادت ليزا وشدَّت بيدها وسحبتها. كانت قد راجعت نفسها، أرادت أن تستكمل الاختبار، أو على الأقلّ، أن تمنح وداد فرصة لرؤية الدنيا بشكل مغاير. قد لا تتغيَّر وتتبدَّل، لكن لا بأس من التجربة، والاختبار.

استقبلوهنّ بالوجوم. كان معظم موظّفي الحاكميَّة العسكريَّة من العرب، وغالبيَّتهم من موظّفي العهد التركي. لهذا عزّ عليهم أن تراهنّ النساء بين الإنجليز وتحت إمرة الحاكم العسكري، فوقفوا صامتين على الجانبين وقد غضّوا النظر. سألتهم امرأة مكشوفة الوجه رغم الغطوة عن الحاكم، فأشار أحدهم نحو الباب وهمس بإجلال:

ـ تفضّلي ستّي، الباب هناك.

كان قد تعرَّف عليها وهو صبيّ صغير يعمل عند بقّال يوناني، يحمل الأغراض ويوصلها لبيوت الشريحة المعتبرة من عائلات القدس. وكانت تناوله قرشًا أو حبّة ملبّس أو موزة وتُدخله الدار. وكان يعرفها بالستّ رفيعة الجنجيَّة لأنَّها بشعر أحمر ونمش على الأنف. ورغم أنَّها ذات أبناء وبنات وولد بكر اسمه أحمد، إلا أنَّ الجميع ظلُّوا يعرفونها بالستّ رفيعة الجنجيَّة، لأنَّها بشعر أحمر ولأنَّها مديرة مدرسة البنات قبل استقالتها كنوع من الاحتجاج على الانتداب وسياساته.

الستّ رفيعة ـ أمّ أحمد نادت ليزا:

ـ يا ستّ ليزا تفضّلي عندي.

فهمت ليزا أنَّ المطلوب هو الترجمة، أي أن تترجم ما تقوله النساء للحاكم وما يقوله الحاكم للنساء، فاستعدَّت. أفلتت يد وداد وتقدَّمت لتقف في المقدمة بجانب الستّ رفيعة ـ أمّ أحمد.

انفتح الباب ودخلن بهواً فسيحًا كان في يوم من الأيام مقرًّا لأعمال الألمان قبل هزيمة الأتراك وانسحابهم. كان الإنجليز قد استولوا على المبنى وأحالوه إلى مقرّ للحاكم، حيث تُدار البلاد وتصدر الأوامر والتعليمات.

المكان فسيح كالمتحف، مليء بالقطع الأثريَّة والتماثيل والأيقونات وقطع فنيَّة ومخطوطات كان الحاكم ينقِّب عنها ويجمعها ويحتفظ بها. كان مستشرقًا عاش لسنوات طويلة في مصر والهند والسعودية، تعلَّم خلالها عدّة لغات شرقيَّة فأتقن العربيّة ودرس التاريخ والحضارة وقرأ القرآن. كان يعرف العرب من داخلهم، أي يفهم ما يقولون وكيف يفكِّرون وكيف يتصرَّفون، سواء في العمل أو في الشارع أو في السهرات. كان يعرف كيف يساير العرب ويقمعهم. يسمّونه الذئب والثعلب لأنَّه بجلد ناعم وكفّ كالسوط.

لم يكن الحاكم في مكتبه فظلَّت النسوة وقوفًا يتأمَّلن التحف والأيقونات بدهشة وإعجاب. فقالت إحداهنّ معلِّقة على اهتمامات الحاكم بشيء من الزهو: هذا الحاكم يفهم بفنوننا وآثارنا. علّقت أخرى: لأنَّه حرامي وتاجر آثار.

لكنّ أحداً لم يسمعها، لأنَّ الباب اندفع فجأة ودخل الحاكم من باب جانبي بطرف القاعة. اتّجه فوراً نحو النساء وحنى رأسه وشبك

يديه على صدره على الطريقة الهنديَّة حتى لا يمدّ يده ويصافحهنّ. قصد ألاّ يحرج النساء ويحرج نفسه فيما لو رفضن مصافحته.

قال بعربية فصحى سليمة جداًّ ومخارج حروف لا شائبة فيها سوى ترقّق طفيف في الألفاظ:

ـ أهلاً وسهلاً بالسيّدات المحترمات. تشرّفنا.

وأشار لهنّ بالجلوس وجلس هو في مواجهتهنّ، وسأل بلهجة حميمة وأدب جمّ:

ـ يا سيّداتي المحترمات، كيف أستطيع أن أخدمكنّ؟

لم يجبن، وانصبَّت العيون على الستّ رفيعة التي تتصدَّر الوفد لتجيب عنهنّ، لكنَّها لم تجب، ولا أحد أجاب، وظلَّت النساء على صمتهنّ.

رفع عينيه وأخذ يتفحَّصهن بدون مواربة، وبشكل مباشر أراد منه أن يفهمهنّ أنَّ الشغل شغل، وأنَّ النساء مثل الرجال في هذه البلد ـ بلا حصانة. نظر مباشرة إلى ليزا على اعتبار أنَّها قائدة الوفد ومحرّضته وقال بأدب:

ـ ألا نتعرف سيّدتي على السيّدات والأوانس؟

لم تجبه والتفتت بعيداً عن نظراته وسلّمت الأوراق للستّ رفيعة ـ أم أحمد. قصدت من ذلك أنَّ دورها كمترجمة لا لزوم له لأنَّ الحاكم يجيد العربيَّة ويفهمها. فأمسكت الستّ رفيعة بالأوراق وخاطبت الحاكم بالفصحى ـ كما فعل هو ـ حتى يفهم. بدأت تشرح بثقة امرأة

اعتادت أن تستقبل مفتّشي التربية والتعليم بدون غضاضة، ولا تخاف من الرجال ولا تخجل، فنادت الرجل بلقبه المدني على أمل الوصول إلى قلبه وضميره. قالت بلطف:

- يا سير آرثر. نحن نساء وأمّهات الشهداء والمعتقلين. جئنا لنقدِّم عريضة احتجاج على سياسة حكومتكم وعلى تصرّفات جنودكم.

رفع الحاكم يده مستوقفًا، وسأل برقّة مبطّنة بالهزء:

- لماذا الاحتجاج سيِّدتي؟ ألا نقوم بواجبنا ونرعاكم؟

حدَّقت في وجهه وهي تتمالك نفسها حتى لا تفقد أعصابها. كانوا قد حذَّروها قبل المجيء ونصحوها أن تتروّى حتى لا تندفع إلى الغضب كعادتها، فقد عُرف عنها الغضب السريع وفسّروه لها منذ الطفولة أنّه طبيعة ملازمة لذوي الشعر الأحمر لأنَّهم نصف مجانين. فأخذت تمارس على نفسها أقسى الضغوط حتى تثبت أنَّها عاقلة وموزونة، ونجحت جدًّا وباتت مديرة مدرسة البنات في وسط تكاد تكون فيه النساء شبه أمّيّات، أو أمّيّات بالكامل. أما هي فتقرأ الصحف وتكتب التقارير وتقابل الرجال وتناقش. لكنَّها ما زالت سريعة الغضب وسهلة الاستفزاز، ولا تتوانى عن كيل الاتّهامات والشتائم.

رآها تحملق ولا تجيب فقال بهدوء:

- سيّدتي، نحن خلّصناكم من الأتراك وظلم الأتراك. نحن أنقذناكم من المجاعة وغزو الجراد وسفر برلك. نحن خلّصناكم من

الكوليرا والتيفوس وقائمة طويلة من الأمراض والقذارة، وما خلّفته تركيا من جهل وظلم وتخلّف. أنت لا تذكرين يا سيِّدتي كيف كان الجيش العثماني يجوّعكم. الألوف ماتوا في البيوت وفي الشوارع بسبب الجوع والأمراض وسفر برلك. وحين جئنا ملأنا الأسواق وأطعمناكم وبنينا المدارس والمستشفيات وأدخلنا النور والمدنيّة. جئناكم بالنور فاستقبلتمونا بالأفراح والرقص والغناء في الشوارع. قد لا تذكرين ما حدث آنذاك يا سيّدتي. (وشمل النساء بنظرة دائرية) قد لا تذكرن يا سيِّدات ما حدث آنذاك لأنَّكنّ - ولا مؤاخذة - صغيرات السنّ ومحجَّبات ولا علم لكنّ بما يدور في الشارع. أما أنا (وابتسم ابتسامة أبويَّة لرجل يتجاوز الستّين ووخطه الشيب) فأذكر جيّداً، أذكر جيِّداً، أذكر كلّ ذاك، أذكر، أذكر. هذا تاريخ. هذا واقع. فهل ننسى التاريخ والواقع؟

وابتسم ابتسامة دراميَّة ليشعرها أنَّها صغيرة وهو كبير، أنَّها تلميذة وهو الأستاذ، أنَّها محجّبة وهو رجل مكشوف عنه الحجاب، فاستشاطت غضباً وبدأت تغلي. لكنَّها تماسكت وقالت بصوت مرتجف وقلب واجف:

- نعم استقبلناكم بالأفراح، هذا تاريخ. وقبل ذلك قاتلنا معكم ووعدتمونا بالتحرير والاستقلال ثم نكصتم. خنتم العهد. بعتم فلسطين. فتحتم البلد لغزو اليهود. خلّصتمونا من غزو الجراد وجئتمونا بغزو اليهود، وهو أصعب، لأنَّه حاقد.

- سيِّدتي، سيِّدتي!

رفع يده وصوته يستوقفها:

ـ ما هذا الكلام يا سيِّدتي؟ هذه لا سامية! تشبّهين اليهود بالجراد؟ أهذا كلام يصدر عن مربّية محترمة؟

حملقت بدهشة وهمست لليزا: يعرف من أنا! همست ليزا: طبعًا يعرف. رآهما تتهامسان فقال بلهجة أستاذ جليل وقور:

ـ يا سيّداتي المحترمات، أنتنّ بنات عائلات محترمة. ألا ترين أنَّ هذا الكلام لا يليق بكنّ؟

والتفت إلى الستّ رفيعة وقال بلهجة الواثق والعارف:

ـ أنا متأكِّد أنَّ هؤلاء النساء لا يتَّفقن معك لأنّهنّ فاضلات ومحترمات. أنا واثق. أليس كذلك يا سيّدات؟

وتفحّصهنّ واحدة واحدة، ومعظمهنّ مختبئات خلف المناديل بما فيهنّ وداد. فأشار إلى واحدة أمامه وسألها:

ـ ما رأيك أنت سيّدتي؟

لم تجبه المرأة وظلَّت صامتة تنظر باتّجاه قائدة الوفد.

التفت إلى واحدة أخرى وسألها السؤال نفسه:

ـ وأنت سيِّدتي ما رأيك؟

وظلَّت الثانية صامتة بدون حراك. فمدّ إصبعه وأشار لوداد فأخذت ترتجف وتتمتم: يا ربّ، يا ربّ، لكنَّها فعلت ما فعلته الأخريات وظلَّت صامتة بدون تجاوب.

تدخّلت ليزا، وقالت بأدب مشابه لأدب الحاكم:

ـ يا حضرة الحاكم إذا سمحت، لا داعي لاستجواب كل واحدة على انفراد. نحن هنا وفد واحد وممثّلة الوفد هي الستّ رفيعة ـ أمّ احمد. نحن نتّفق معها في كلّ ما تقول وما تفعل.

ولكزت الستّ رفيعة بكوعها كإشارة على التواطؤ والتوافق، فارتفعت معنويّات تلك وواجهته باستفزاز وتحدّ:

ـ أنا مندوبة هذا الوفد كما أنّك مندوب حكومتكم. نحن نمثّل نساء فلسطين كما تمثّل حضرتك حكومة الملك وبريطانيا.

امتقع وجهه وبدأ هو الآخر يفقد صبره. لكنّه استعاد هدوءه وقال برقّة:

ـ يا سيّدات، أنا أعرف أنّ النساء العربيّات بنات أصل وحضارة أقلّ ما يقال عنها أنّها حضارة كرم وتسامح. هل ننسى نحن وينسى التاريخ أنّكم الأمة الوحيدة والدين الوحيد الذي احتضن جميع الأنبياء وكرّمهم؟ منذ التاريخ احتضنتم اليهود كجزء منكم. نحن نقرّ بهذا ونحني الرؤوس أمام الإسلام والمسلمين الذين عاملوا الأغراب كما لو كانوا جزءاً منهم. وأكبر دليل على ذلك وجود الستّ. (وأشار بإصبعه إلى ليزا) فهذه الآنسة المسيحيّة غريبة عنكنّ. انظرن جيّداً فترين الفرق. أنتنّ بحجاب وهي ببرنيطة غربيّة. أنتنّ تصلّين في الجامع وهي تصلّي في الكنيسة الأرثوذكسيّة. أنتنّ تعلّمتنّ لغة القرآن وهي تعلّمت لغة الإنجيل في الجامعات الأوروبيّة. ورغم ذلك، ها أنتنّ تعاملنها وكأنّها جزء منكنّ.

وأشار إلى ليزا بإصبعه ثم سألها:

ـ أليس كذلك يا آنسة أندراوس؟

وجمت النساء ووجمت ليزا. والتفتت واحدة وسألت أخرى: يقول الحقّ، أليس كذلك؟ ولكزت واحدة كتف وداد وقالت همسًا: يقول المضبوط، صح وإلاّ لأ. فبدأت وداد ترتجف بذعر.

* **

كانت النساء ما زلن يتهامسنَ ويتخبّطنَ بسبب ما سمعنه من إيحاءات، حين دُفع الباب ودخل مرافق الحاكم وهمس في أذنه ببضع كلماتٍ جعلته يحمرّ ويكشّر. ما قاله المرافق كان مثيرًا للقلق والأعصاب. قال له إنَّ اليهود جاؤوا من جهة الغرب بمظاهرة شبيهة بمظاهرة العرب، وإنَّ اشتباكًا وشيكًا قد يحدث. ليس هذا فقط، فهناك مندوب الوكالة اليهوديَّة، دكتور وايزمان، يجلس في مكتبه بانتظاره.

نظر الحاكم إلى السيِّدات وهنّ يتبادلن الهمس والتعليقات، ثم إلى ليزا التي كانت تحدجه بنظرات غاضبة مشمئزّة، فشعر بإحساس متناقض. فهو من ناحية يحسّ أنَّه أفلح في هزّ ثقة النساء وشقّ صفهنّ وتوجيه ضربة موجعة إلى المتحدِّثة الإعلاميَّة باسمهنّ. ومن ناحية ثانية يحسّ أنَّه قام بعمل لا يليق برجل محترم في مثل سنّه وسمعته ومقامه. فأوّل على آخر هو ابن الغرب، أي رجل استمدّ مشاعره وأفكاره من بيئة تحترم الفروسيَّة، وعاشت على أمجاد سير وليم سكوت وملز وكرافت والبرونتيات. كما أنَّه يذكر القصص الرائعة والمغامرات الفذّة لرجال اعتمدوا الفروسيَّة واجترحوا الموت في سبيل الدفاع عن الأنوثة

والفضيلة. حبّ الأنثى، سحر الأنثى، ضعف الأنثى، هو نقطة ضعف، أو قوّة، في عمق الرجل مهما تجلّد. وهذا الموقف فعلاً محزن. يتجلّى فيه التناقض بين ما يحسّ وما يفعل. فهؤلاء النساء، ألسن بنساء؟ لكنّ الحجاب والغطوة، شيء مزعج. أما ليزا فتكاد تكون من لندن، صورة منها، نسخة عنها، وبريطة. جميلة أنيقة ذكيَّة مثيرة، لكن للأسف تعمل معهنّ، تعمل معهم، أي أنَّها في صفّ المتمرِّدين على حكمه وحكم الانتداب وسياساته. وفي السياسة لا أحد جميل، لا أحد لطيف، لا أحد شريف أو عادل. هذي وظيفة. وما حصل عليه من لقب ونفوذ ووظائف كان المردود لما قام به في الهند ومصر والسعودية. ما فعله هناك يفعله هنا. هذي وظيفته وعنوانه. هذا واجب.

سأله المرافق ثانية:

ـ ماذا أقول لدكتور وايزمان؟

هبّ واقفًا وهو يفكِّر:

ـ قل له، قل له، أنا سأقول.

واعتذر من النساء بلطف وأدب، وقال إِنَّه سيعود بعد دقائق.

قال دكتور وايزمان بأنفة:

ـ يا سير آرثر، هؤلاء العرب يتحامون بالنساء بجبن مخجل. يريدون استدرار عواطفكم.

هزّ الحاكم رأسه وهو يفكِّر. كان يريد أن يرضي الرجل ويعزِّز ثقته وتأييده. ومن ناحية ثانية يحسّ أنَّ هذا الرجل صعب الإرضاء ـ مثل شعبه. هذا الرجل خبيث ماكر، فطن حصيف متهوّر، يعرف كيف يداور ويناور ويقضي على خصومه بالكلمة. كلمة حلوة، كلمة مرّة، كلمة مشحونة بالتهديد والإطراء وبقدرة شعب لا يهدأ حتى ينال ما يشبعه ويرضي غروره، شعب خبيث، شعب قادر وتتجلّى فيه الأسطورة. في أيّ مكان، في أيّ زمان، في أيّ حزب أو مجلس، في أيّ بنك، أيّ مشروع، أيّ بزنس. هم مثل الجنّ، طاقة غريبة، طاقة مخيفة، خطر لا يمكن إنكاره.

قال دكتور وايزمان:

ـ يريدون استدرار عواطفكم. لكنَّ نساءهم مثل الغيلان. جنس قويّ مستغولِ. هم مثل الرجال. لا يغرّنّك الكلام اللطيف والاختباء خلف الحجاب والستائر. هؤلاء النساء، لو تعرفهنّ، مثل الشياطين.

اخرج للقرية تعرفهنّ، أقوى من الرجل، أقوى وأشرس. أتعرف لماذا؟ لأنّ القروية كالدابّة تحبل وتلد وتحمل الحطب وتحفر الأرض وتكسر الصخر ولا تتعب. المرأة العربيَّة كالغولة، جنس بلا رقّة ولا أنوثة. أمّا المنديل فهو خدعة، ستار لإخفاء ما خلفه[١].

ابتسم الحاكم بتسلية:

ـ وماذا خلفه؟

ـ خلفه غباء وأمّيّة. أنصاف وحوش. مكر وخداع وتملّق. أنا أعرفهم. لكنَّك أنت لا تعرفهم.

باخت الابتسامة عن وجه الحاكم. فها هو يستمع ثانية لنفس النغمة. نغمة مكرورة يعرفها لأنَّه بالأصل يستعملها: «أنا أعرف، أنا الخبير، أنا العارف، وأنت بلا خبرة ولا معرفة». هذا اليهودي نسي أصله، وها هو الآن يتنمرد. فليتنمرد، بعيداً عنّا فليتنمرد. سئمنا منهم.

قال وايزمان:

ـ أيّام صموئيل ما جرؤوا، لماذا يجرؤون الآن؟ أنا لا أعرف!

ونظر إليه نظرة متفحِّصة تحمل ما تحمل من عتاب، وربّما تهديد، فهو رجل يده طويلة، حباله ممدودة إلى ما فوق، فوق اللوردات ومجلسهم، وصولاً إلى ما حدث في فرساي وسان ريمو.

---

١ ـ أنظر: **صورة العربي في الأدب العبري** لإيهود بن عيزر.
أنظر: **صورة العرب في مناهج التعليم الإسرائيلية** لطارق ديلواني.
"Between Mohammed and Mr. Cohen" in **One Palestine, Complete,** by Tom Segev.

قال وايزمان:

ـ هربرت صموئيل كان شديداً.

سأله الحاكم بتهكّم:

ـ وأنا ليّن؟

ابتسم وايزمان بلباقة:

ـ لا، لم أقصد. أقصد صموئيل استعان بنا، وجنرال ألنبي استعان بنا. فيلق اليهود احتلّ القدس، لويد جورج اعترف في سان ريمو، وكذلك بلفور.

هبّ الحاكم واقفًا:

ـ ماذا تقصد؟

تراجع وايزمان:

ـ أنا لم أقصد إلا التذكير بمصالحنا معًا. نحن حلفاء ولن نختلف. هذه البلاد ستكون لكم، نديرها نحن وتكون لكم. عبر التاريخ، بلا حدود، بلا نهاية. ستكون محميّة بريطانيَّة ونحن الرُّعاة والرَّعايا في بحر الشرق المتخلِّف. سنضيء الشرق بشعلتكم، بمعارفنا، وبأيدينا وقدرة الشعب اليهودي على العمل الجادّ، سنضيء الشرق بالمدنية، وبالحقّ والعدل والتقدُّم. هربرت صموئيل كان يعرف.

هبط الحاكم في مقعده والتفت بعيداً نحو الجدار، نحو القبّة، نحو النافذة الشرقيَّة، ورأى أجراس الكنائس والمآذن تعلو في الأفق بلا

حواجز، من غير حدود، وتذكّر ما قاله الجنرال قبل وفاته. قال الجنرال: «بريطانيا على وشك ارتكاب أكبر غلطة، أعظم ظلامة في العصر الحديث لأيَّة أمّة. هربرت صموئيل؟ بعد كل ما حدث هربرت صموئيل؟ لورنس العرب والشريف حسين والمعارك، هربرت صموئيل؟ يقولون اليهود والفيلق من احتلّ القدس. من احتلّ القدس؟ قل ولا تخف من احتلّ القدس؟ ذاك الفيلق؟ شيء جميل. شيء رائع. في بلاد اللجوء كانوا عبيداً، وانقلب العبد إلى سيِّد. وإذا ما انقلب إلى سيِّد خذ حذرك منه، ينقلب إلى وحش كاسر».

قال وايزمان:

ـ المرأة هنا صارت تحكي؟ صارت تقرأ؟ صارت تكتب؟ ولها لسان يتكلَّم؟ هنَّ أمّيّات بدائيَّات من الصحراء، هنَّ مثل العبيد والجواري. شيء مقرف. واحدة منهنّ فقط لا غير اسمها ليزا. ليزا أندراوس مسيحيَّة. احبس ليزا ينفرط الجمع.

رفع الحاكم حاجبيه وادّعى المفاجأة والدهشة:

ـ أحبس ليزا؟ هل تعرفها؟

ـ طبعًا أعرفها وأعرفهم. أعرف ليزا وتلك الحمراء الجنجيَّة ورجال الدّين والأحزاب والبلديّة. نعرف ما يجري في الشارع وخلف الكواليس. بعض الجنود هنا في المركز، وبعض الضبّاط هنا في المكتب، هذا المكتب، يتعاطفون مع العرب وينحازون لهم.

صرّ الحاكم عينيه وقال بجفاء:

ـ تتجسَّسون علينا؟

ـ أبداً، أبداً، بل عليهم. نحن ندرسهم لنعرفهم. نعرف عنهم ما لا يعرفونه عن أنفسهم. لدينا وثائق، لدينا دراسات ومعلومات تنفعكم. هربرت صموئيل كان يقرأ تلك الدراسات، وكذلك سير شانسلور ووشوب وغيره وغيره. فإن كنت ترغب نطلعكم.

صمت الحاكم وهزّ رأسه بغيظ مكبوت. شيء في الرجل يثير الأعصاب. سأل الجنرال قبل وفاته: «كيف استطاع هذا الوايزمان أن يدخل في عظم الحكومة ويقنعكم؟ كيف استمال عواطفكم؟ هو لا أكثر من رجل قميء متبجّح يثير الأعصاب؟!» قال الجنرال: «هو مثل الروس لأنّه منهم. من هو كارل ماركس؟ من هو تروتسكي؟ من صنع الحمر؟ من خلق البلشفيك وعلّمهم؟ من خلق الثورة الروسيَّة؟ من خطّطها؟ من روّجها؟ من نسف النظام؟ من جاء لنا بنظام الحمر؟ هم اليهود يا سير آرثر. هو هذا الشعب بلا منازع. ضعيفاً كان، محتقراً كان، مكروهاً ممجوجاً منبوذاً، إلاّ أنّه كلّيّ القوّة والقدرة. هل نستطيع إنكاره؟ فإذا حشرناه في مكان ما بعيداً عنّا نخلص منهم، ونخلص من ثورة محتملة هنا في لندن، هنا في باريس، هنا في برلين، نخلص منهم. هم أصل البلاء، نخلص منهم».

قال وايزمان بصوت رقيق كصوت الأنثى:

ـ احبس ليزا فينفرط الجمع.

قال الحاكم بلؤم وبرود ليغيظ الرجل:

ـ أحبس امرأة جميلة، ذكيَّة، أنيقة؟

ردّ بسرعة:

ـ نساء اليهود أذكى وأجمل.

علَّق الحاكم بتهكُّم:

ـ أجمل من امرأة مسيحيَّة؟

ابتسم وايزمان وفهم المغزى فلوَّح بيده باستهانة:

ـ هو ليس الدين.

ـ إذن ماذا؟

ـ المدنيَّة يا سير آرثر، المدنيّة. العلم والنور والحضارة ونظام الحكم.

ـ تقصد الديمقراطيّة؟ الديمقراطيّة لن تنفعكم، هم أكثر منكم بما لا يقاس، أكثر منكم.

ـ أعرف، أعرف، ولكن، ولكن...

ـ لكن ماذا؟

ـ لكنّ السؤال هو هذا: الديمقراطيّة تنفع مع من؟ تُمنح لمن؟ تُمنح للوحوش والبهائم؟

استُفزّ الحاكم وثار فيه عرق نائم فقال بأسف:

ـ هؤلاء نساء، بشر، أمّهات، هذا تناقض.

ـ تناقض مع من؟ تناقض من مَن؟ أيّ تناقض؟ نحن نعرف ماذا لدينا، نعرف ما نريد، نعرف، نعرف. لدينا دراسات تنفعكم. إن كنت ترغب نطلعكم.

قال الحاكم بغيظ وبرود:

ـ لا، لا أرغب. لدينا سياسات وتعليمات.

قال مجادلاً:

ـ تلك التعليمات يا سير آرثر لا بدّ أن ترتكز إلى معلومات.

أحسّ الحاكم بالإهانة فقال بجفاف:

ـ لدينا ما يكفي من معلومات.

واستدار بوجهه جهة الحائط، ثم إلى الباب فلمح مرافقه واصف يسترق السمع من شقّ الباب.

واصف مرافقه وسائقه وقاضي الحاجات، يشتري أغراضه ويوصلها، يمشي معه في السوق العتيق، يصلّي معه في الكنيسة، ويوصله من مكان لمكان لأنّه يعرف؛ فهو ابن البلد، ابن الأجواء الشعبيَّة. طريف، ظريف، يحبّ الكيف والموسيقى ويحبّ الناس، فهو مسالم. لكن ما قيل عن ليزا هل وصل إليه؟

قال وايزمان:

ـ هي ليزا فقط. احبس ليزا وتلك الحمراء الجنجيَّة.

ابتسم الحاكم وتذكّر ما قالته تلك الحمراء، فقال معجباً وقد نسي غضبه حين تحدَّثه لأنَّ الرجل، هذا الرجل، أعند بكثير، أعند وأوقح:

ـ تلك الحمراء الجنجيَّة تبدو ذكيّة.

ـ هي رأس الأفعى ورأس الكوم.

ـ هي أمّ ليزا؟

ـ هي وليزا. إذا تخلَّصنا من القادة نخلص منهم. هم أمّيّون، هم فلاّحون لا يعبأون بالسياسة، هم يصدِّقون قادتهم مثل الغنم. فإذا حبسنا قادتهم نخلص منهم.

نفض الحاكم يده بنفاد صبر:

ـ حبسنا ما فيه الكفاية.

ـ إلاّ ليزا.

صاح الحاكم وقد فقد صبره وأعصابه بسبب الإلحاح المتواصل والنصح الشبيه بالأوامر:

ـ ليزا، ليزا، من هي ليزا؟! أنت تضخّم من أعدائك. من يسمعك تقول ليزا ليزا يظنّ أنَّ ليزا غولة مخيفة، وحش كاسر، مصّاصة دماء، سفّاح مرعب ومدمِّر، وأنا لم أر إلا شابّة لطيفة، جميلة، أنيقة، وببرنيطة.

تحسَّس وايزمان برنيطته وقال باسمًا كي يخفِّف من حدّة الجوّ والتوتّر:

ـ وأنا لديّ برنيطة.

تأمَّله الحاكم وقال متهكمًا:

ـ برنيطة ليزا أحلى بكثير!

وصاح فجأة وهو يرى واصف يقترب بأذنه من شقّ الباب حتى كاد أن يدفعه:

ـ مالك يا واصف؟ ما وراءك؟

دخل واصف على مهل وقد اكتسى وجهه ببراءة أطفال وابتسامة، واقترب من أذن الحاكم وهمس بحذر:

ـ مندوب آخر يا سيِّدي.

ـ مندوب من؟

ـ الهستدروت.

نفخ وهمهم ومسح وجهه وسأل بحدّة:

ـ من هو؟ ما اسمه؟

ـ اسمه بن غوريون يا سيِّدي.

مسح رأسه وحاول أن يبدو مرحًا وخفيف الدم:

ـ ويلبس برنيطة هو الآخر؟

ابتسم واصف ولم يعلِّق فهمس الحاكم وهو يغمزه:

ـ أم شجرة نتش؟

لم يعلِّق، وخرج من الباب، وأبقاه مشقوقًا مورِوبًا مسافة إصبع.

دخل بن غوريون وكان هو الآخر ببرنيطة فتذكَّر الحاكم ما سمعه قبل سنوات أنَّ بن غوريون كان بطربوش لا برنيطة لأنَّه في ذاك الزمن، زمن الأتراك، كان يعمل كموظّف بريد في خدمة الباب العالي، وكان وايزمان على طرفَيْ نقيض. أحدهما يقول «بريطانيا» والآخر يقول «تركيا». الأول يقول «بريطانيا هي بلد النور والحضارة»، والثاني يقول «تركيا هي أمّ الجميع، هي بلدنا. إذا كسبت الحرب تركيا وكنَّا منها ستكون فلسطين في جيبتنا». وبالفعل، حاول بن غوريون أن يكسب فاقترح على الباب العالي إنشاء فيلق يهودي لدخول الحرب مع تركيا، لكنَّ الأتراك لم يصغوا، استهانوا بالأمر ولم يصدِّقوا موالاة الرجل وطربوشه. وظلّ السؤال طوال سنوات بين الرأسين هو: من يكسب؟ الأول يقول «بريطانيا»، والآخر يقول «تركيا»، حتى اقتتلا بدون الأيدي، بلغة الرؤوس، لأنَّ كليهما برأس كبير، وبرنيطة.

قال بن غوريون وهو يشير إلى شقّ الباب:

ـ هذا الرجل يسمع ما نقول. هذا جاسوس.

تنحنح الحاكم حتى يضبط نغمة صوته لئلا تعلو:

ـ هذا مرافقي واسمه واصف.

ردّ وايزمان بسرعة وثقة قبل زميله حتى يسبقه:

ـ نعرف من هو، نعرف، نعرف، ونعرف أيضًا أنَّه منهم.

قال الحاكم مدافعًا:

ـ هذا الرجل يعمل معي، أنا أعرفه، فهو مسالم.

نزع بن غوريون برنيطته فبدا رأسه مثل القنفذ أو شجرة نتش مليئة بالشّوك والمخالب. ابتسم الحاكم ونظر إلى الباب فرأى واصف في شقّ الباب يسمع ـ كالعادة ـ بتلصّص. التقت عيونهما فجفل واصف، لكنَّ الحاكم ابتسم له وغمز بعينه.

قال بن غوريون بعصبيَّة:

ـ مظاهرة النساء نكتة سخيفة. وضعوا النساء في الواجهة من أجل الصحافة والإعلام. هذه حركات نعرفها. من حرّكهنّ؟ من دفعهنّ؟ هم الرجال، ورجال الدين، شيوخ ورهبان وخوارنة. ومرافقك المسيحي ينقل الأخبار لكنيستهم.

هزّ الحاكم رأسه بعناد وقال ببرود:

ـ هذا الرجل يعمل عندي، أنا أعرفه، هو رجل أمين ومسالم.

تبادل المندوبان نظرات الشكّ، فقال وايزمان بلهجة دبلوماسيَّة وصوت رقيق:

ـ بن غوريون يقصد أنَّ الهستدروت على استعداد لتوفير سائق أشطر بكثير ويعرف الإنجليزيَّة كالبلبل.

غـضـب الحـاكـم لأنَّهـم يتـدخَّلون في شـؤونه وكـأنَّه يعـمـل في خدمتهم. قـال له الجنرال حين تذمَّر: «هذا واقع. لكن إيَّاك، احذر منهم». فحذر طويلاً وكثيراً حتى بدأ يفقد صبره وبدأ يحسّ أنّ العرب رغم الغباء والتخلُّف، أخفّ وطأة لأنَّ القليل يشبعهم. أمّا هؤلاء، أعوذ باللَّه، أرزاق الأرض لا تشبعهم ولا مياه السماء ترويهم. كلّ التمييز والامتيازات وما يحصلون عليه من ضرائب وتسهيلات والكهرباء والفوسفات والمعادن، وكلّ التوظيف والعمالة ويحسدون العرب على سائق!

ألحَّ وايزمان حين لم يسمع جواباً من الحاكم:

ـ بن غوريون يقصد أنَّ الهستدروت على استعداد لتوفير سائق شاطر وملحلح، يعرف السوق والبلد والناس والنوادي وكلّ البارات.

احمرّ الحاكم بسبب التلغيز لأنَّ واصف يأخذه لبارات القدس عند اليونان والأرمن، عند خريستو وهاكوب وهايك ومدام ريتا. الحاكم وحيد في المنفى، هربت زوجته إلى لندن بعد مذابح ١٩٢٩ فظلّ وحيداً. صارت فلسطين كالمنفى، بل هي منفى، ضرب وقنابل ومشانق ومظاهرات واشتباكات في كلّ قرية ومدينة، وهو المسؤول عن حفظ الأمن، وعن حفظ الهيبة الملكيَّة.

قال بعناد وتحدٍّ:

ـ هذا مرافق، سائق بسيط، عامل كادح!

وحدج بن غوريون ليذكِّره بما يقولونه حول العمّال في الهستدروت، لكن بن غوريون ادَّعى عدم السماع، ووقف بالقرب من وايزمان فوصل لكتفه لا قبّعته، ومشى خطوات قصيرة، قصيرة جداً حسب الارتفاع والقامة، ونظر من النافذة الغربيّة وقال بحماس:

ـ يا سير آرثر تعال انظر، أنظر لعمّالنا كي تحكم. أرجوك، أرجوك.

قام الحاكم من مكانه بتمهُّل ونظر من النافذة الغربيَّة ورأى مظاهرة اليهود كما توقَّع، صفوف منتظمة كجيش صغير وانضباط كبير وأعلام ولافتات بالأحمر، كلُّها أحمر، فيها شواكيش ومناجل. فقال بدهشة:

ـ ما هذا؟! كما لو كنَّا في موسكو!

قال بن غوريون باعتزاز عظيم:

ـ هؤلاء عمّال حقيقيُّون لا فلاّحون. انظر الفرق، انظر، انظر.

هتف الحاكم بغيظ ودهشة:

ـ وواصف عامل!

هزّ بن غوريون رأسه بخيبة أمل لفداحة الخطأ والتشبيه:

ـ يا سير آرثر، يا سير آرثر، هناك فرق.

احمرّ الحاكم وبدأ يتفتف:

ـ وما هو الفرق؟ هؤلاء عمّال وواصف عامل.

تدخّل وايزمان مصحِّحًا، وبلهجة مهيبة كما لو كان يقرأ في التلمود:

ـ بل هناك فرق يا سير آرثر، الفرق بالوعي والمدنيَّة.

لوَّح الحاكم يده بنفاد صبر:

ـ لا فرق هناك، هؤلاء عمّال وواصف عامل. أليس هذا ما تقولونه في الهستدروت؟

خفض بن غوريون صوته وأخذ يتكلَّم بتمهّل، ببطء شديد، كما لو كان يخاطب تلميذاً غير نجيب أو أهبل:

ـ يا سير آرثر! عمّال العرب ليسو بروليتاريا حقيقيَّة، هم أمّيّون، يعني أجراء وفلاّحون. الواحد منهم لا يعرف رأسه من قدميه.

احتدّ الحاكم وتماوجت صورة واصف المسالم في رأسه فتحرَّك قلبه:

ـ واصف يعرف، واصف يقرأ، واصف يكتب، واصف يفهم.

صاح الاثنان معاً:

ـ ولهذا يخيف.

دُهش الحاكم لأنَّ النقاش خرج عن المنطق والمعقول:

ـ يعني المتعلّم لا يعجبكم ولا الأمّيّ يرضيكم؟! واصف يعجبني ويرضيني، لم يفعل شيئًا يغضبني، لم يفعل شيئًا يثير الشكّ. لدينا استخبارات كما تعرف.

قال هذا موجِّهًا الكلام إلى بن غوريون، لكنّ ذاك كان ينظر من النافذة ولا يسمع، أو يسمع ويتغاضى ويطنّش. كان ينظر إلى ما وراء الزجاج وقال معلِّقًا على ما يرى لا ما يسمع:

ـ هؤلاء عمّال حقيقيّون. مهارات، لغات، وثقافة. انضباط تامّ ونظافة. هذا هو الفرق.

حاول الحاكم أن يخفِّف من حدّة النقاش فقال مداعبًا:

ـ طبعًا، طبعًا، هناك فرق. جماعة واصف يلبسون الشروال لا الأفرهول، ويأكلون الخبز بلا زبدة، وبدل الهام زيت وزعتر، هذا هو الفرق.

ادَّعى بن غوريون عدم السماع وذهب إلى النافذة الشرقيّة وقال للحاكم بشماتة:

ـ تعال انظر، انظر الفرق. لا تقل لي هام وزبدة وزيت وزعتر، هذا هو الفرق، انظر، انظر. انظر أرجوك.

اقترب الحاكم من النافذة الشرقيَّة فرأى أمواجًا من الأسود، نساء بغطوات ومناديل بالأسود، ورجال الدين بالأسود، شيوخ الأوقاف والأقصى وخوارنة المهد والقيامة كلّه أسود، ولفَّات ضخمة وقلنسوات ومسابح وصلبان بحجم صلبان القبور والموتى وصليب المسيح، فقال بدهشة مليئة بالذعر:

ـ ما هذا الجوّ؟ كما لو كنَّا في السعوديّة!

علَّق وايزمان ساخرًا:

ـ صلبان ورهبان في السعوديّة؟!

لم يجب الحاكم ولم يعلِّق لأنَّ السعوديّين أيضًا حلفاء وأيضًا كرماء، أكرم بكثير، وبترول كثير. فقال بحيرة وعقل ملخوم:

ـ لكنَّ النساء هنَّ أيضًا نساء، بشر، أمّهات!

قال بن غوريون بعصبيَّة:

ـ هم الرجال من دفعوهنّ.

صحّحه وايزمان كعادته:

ـ بل هي ليزا.

أضاف بن غوريون للتذكير:

ـ وواصف جاسوس، أكيد جاسوس.

رفع الحاكم ذراعيه لأعلى يطلب الرحمة من ربّه:

ـ من أجل السماء! واصف وليزا، ليزا وواصف! ماذا تريدون؟

قال أحدهما «واصف» والآخر قال «ليزا». فهمس الحاكم في داخله: «حلّوا عن ديني، سئمناكم». لكنّه عاد ليتذكّر مظاهرة النساء وليزا الحلوة، اللطيفة الأنيقة ببرنيطة، كما لو كانت من لندن، فأسرع كي يهرب من النكد وقال بأدب:

ـ وفد النساء بانتظاري، الجنس اللطيف، اعذروني، عيب وحرام.

وخرج من الباب فرأى واصف بلصق الباب. جفل واصف وارتدّ للخلف عدّة خطوات، لكنَّ الحاكم ابتسم له وغمز بعينه وسأل مازحًا:

ـ الليلة هاكوب وإلاّ خريستو؟

فقال واصف بجدّيّة:

ـ خريستو، خريستو.

* * *

انتهى الاجتماع بصورة مفاجئة سريعة. اعتذر الحاكم بأدب جمّ رغم مشاعره وأفكاره. كانت مشاعره قد انقلبت لأنَّ النقيق المتكرِّر والنصح المستمرّ كالأوامر، والصلف والغرور والتحدّي زاد عن الحدّ. ما عاد يحتمل الموقف وانسحب بلطف لأنَّ النساء، الجنس اللطيف، عيب وحرام. قال ذلك ورمى الاثنين بنظرة سريعة ليرى تأثير كلامه:

«الجنس اللطيف، عيب وحرام». فرأى ابتسامات وتهكُّمًا وصمتًا مطبقًا. لم يعلِّقا، فقط ابتسما بخبث بارد فازداد غيظًا مكبوتًا وكاد يصرخ، فها هو يحاول أن يثبِّت أنَّه مندوب جلالة الملك وبريطانيا، لكنَّ الأمور لا تجري حسب المنطق والمصالح. بريطانيا صارت بلا هيبة، وأميركا تنتظر وتترصَّد. أميركا والطاقة والبترول والسعوديّة وقناة السويس. أين المنطق؟ قال الجنرال قبل وفاته: «قلنا هذا، كنَّا نعرف. قلنا الأمور ستفلت منَّا، قلنا، قلنا، وكلّ التقارير قالت ذلك. قلنا فلسطين لن تنفعنا. ماذا فيها؟ فيها بترول؟ فيها ذهب؟ فيها معادن؟ كلّ الجنرالات قالوا ذلك. قلنا فلسطين لن تنفعنا، بل تضعفنا، من كلّ النواحي ستُضعفنا. ستُفقدنا ولاء واحترام العرب، ستوسِّع انتشار وحدات الجيش، وستأخذ أموال خزينتنا. كلّ المستعمرات كانت تعطي، إلاّ فلسطين ستأخذ منَّا. قلنا فلسطين لن تنفعنا. لكنَّ صموئيل، ذاك الصموئيل، وإيمان بلفور بقدوم المسيح، رجوع المسيح، حسب التوراة، والأسطورة. شيء غريب، شيء مضحك. قلنا ذلك، قلنا كثيراً، قلنا طويلاً، وكلّ التقارير قالت ذلك، لكن فجأة انقلب الجوّ. إلحاح اليهود شيء مذهل. طاقة رهيبة، قوّة مخيفة، تأثير فظيع، من خلق الحمر؟ من هو كارل ماركس؟ حلُّوا عنَّا. خذوا فلسطين وحلُّوا عنّا. وأنت هنا بانتظار المسيح، كما في التوراة، والأسطورة، وفتاوي بلفور والهستدروت. هذي أوامر». قال الجنرال قبل وفاته(١).

---

١ ـ انظر: "A Contact with Jewry" in **One Palestine, Complete,** by Tom Segev.

قالت الستّ رفيعة لليزا مهدِّئة:

ـ هؤلاء النساء دقّة قديمة، عقل مغلق. معظمهنّ أمّيّات بلا تعليم ولا ثقافة. ولا يهمّك. تعالي نخطب في الرجال، الرجال أفضل.

سألتها ليزا بتهكُّم:

ـ الرجال أفضل؟

أكّدت بحماس:

ـ طبعًا أفضل. فيهم زعماء وفيهم قادة وشيوخ الأوقاف والخوارنة يدًا بيد في أوّل صفّ. تعالي نخطب، تعالي.

واقتربت منها ووشوشتها: واصف يقول إنَّ اليهود في الجهة الغربيَّة من المبنى. ويقول إنَّ الوكالة اليهوديَّة والهستدروت مع الحاكم.

نظرت ليزا عبر القاعة ورأت واصف يروح ويجيء أمام الأبواب فابتسمت له وابتسم لها، وعاد ليختفي في ظلام الممرّ.

شدَّتها رفيعة وقالت لها:

ـ تعالي نخطب، تعالي.

وحين رأت الشكّ والتردُّد قالت بحماس:

- اليهود هناك عند الحاكم. جماعتنا بانتظار البيان. أنا أقرأه بالعربي وأنت ترجميه للإنجليزي. يا اللّه، يا اللّه.

واندفعت الاثنتان نحو البلكون لتلقيا البيان التاريخي، بيان المرأة.

حين رأت جموع النساء تحت المبنى الستّ رفيعة - أمّ أحمد وليزا معها فوق البلكون بمبنى الحاكم أخذن يهتفن: فلسطين عربيَّة، فلسطين عربيَّة. فاهتزّ المتفرِّجون حول الموكب وشاركوا بالهتاف، وكذا الزعماء في أوّل صفّ، وهم يقتربون من المبنى ويشيرون بأيديهم لممثّلات الوفد في البلكون حتى يبدأن بقراءة البيان المبين، بيان المرأة.

نظرت ليزا من موقعها المرتفع في البلكون ورأت الجموع هنا وهناك. جموع هنا تحت البلكون بانتظار البيان، وجموع هناك من جهة الغرب فيها أعلام ولافتات بالأحمر، أبيض وأحمر. من جهة الغرب أبيض وأحمر، ومن جهة الشرق أسود وأخضر. وتحت البلكون، تحت الحاكم، رجال الدين بالأسود، ونساء القدس بالأسود، وحداد المارة بالأسود، كلّه أسود، فشعرت بالحزن لأنَّ الأسود هو لون الموت، واللون الأخضر لون الدين، وهي هنا بين اللونين تحاول أن تعلو فوق اللونين وتقول للناس إنَّ الأديان ليست عبرة، وإنَّ الألوان ليست عبرة، وإنَّ الوطن فوق الأديان.

* * *

بدأت تقرأ البيان فعمّ الصمت وهدأ المكان. لا صوت، لا هتاف، لا سعلة شيخ أو خوري، لا زحفة حذاء أو ورقة شجر. الكلّ يستمع بخشوع كما لو كانوا ينصتون إلى صلاة يوم الجمعة أو يوم الأحد. وحين خرج الحاكم من مكتبه ومشى في القاعة نحو البلكون امتلأ برهبة هو الآخر، فوقف يستمع من غير حراك. استمع لكلمات بالعربيَّة ثم أُعيدت بالإنجليزيَّة فدارت جوّاه، في أعماقه، وجعلته يفكِّر بتفاؤل أن السلام ممكن جدًّا، وأنَّ الوئام ممكن جدًّا، وأنَّ البناء والتعاون سهل التحقيق. بيان النساء يلعن الحرب، يلعن الدمار، ويلعن الانتداب والاستعمار. من الاستعمار؟ هو الاستعمار، هو مندوب الملك وبريطانيا. لكنَّه وهو يسمع كلمات النساء من فم ليزا، بدت الكلمات لطيفة رقيقة وفيها أبعاد جميلة، فيها إحساس ومشاعر، وضمير حيّ وأمومة. صحيح أنَّ الكلمات فيها لعنات وتحدِّيات وتنديد بالكذب والتآمر وما حدث هنا وما حدث هناك، إلا أنَّ ما يسمعه هنا سمعه هناك قبل سنوات من فم الجنرال قبل وفاته، والتحليلات، والوثائق، وبعض الشيوخ في مجلسهم. لكنَّ السياسة هي سياسة. وفي السياسة لا شيء جميل، لا شيء نبيل أو عادل. هذي وظيفته وعنوانه. هذا واجب. فماذا يفعل؟

في ذاك الصراع، وهو يحاور ما يسمعه ويحسّ به ويحلِّله، جاءه جنديّ وناوله ورقة مطويّة عدّة طيّات. وحين سأله: ممّن هذه؟ أشار بعينيه نحو الباب، بابه هو، مكتبه هو، فرأى شكلين معتمين بلا تمييز أحدهما مستدقّ كالقارورة والآخر شبيه بالقنفذ، فاستعاذ بالله وحزر على الفور ما في الورقة. فتح الورقة ونظر إلى المرأة المذكورة فتمتم بحنق: وحقّ السماء سئمناكم. ووقف يستمع إلى ليزا.

مشت المظاهرة في الشارع بدون تدخُّل. الحاكم أمر بألاّ يعترض الجنود طريق النساء. بما أنَّ الأمن والنظام لم يُخترقا، إذن فالجيش لن يتدخَّل. ولم يتدخَّل. فمشى الموكب بجلال مهيب واحترام يفوق أيّ تصوُّر.

لأوّل مرّة تُحترم النساء. لأوّل مرّة تشترك النساء بموضوع عامّ. لأوّل مرّة تقول النساء كلمتهنّ فيستمع الرجال بدون تدخّل. فأحسّت رفيعة ـ أمّ أحمد أنَّ الأمور تمشي قدمًا وأنَّ الرجال بدأوا يعترفون بقيمتهنّ. وحتى النساء بدأن يعترفن بقيمتهنّ. بعد البيان، ووقوف ليزا في البلكون والكلام البديع، واللغة الغربيَّة المهيبة، لغة الحاكم، لغة السلطات المحترمة، شعرن بالزهو والقيمة. وهذا جميل، هذا مذهل، امرأة ترطن وتبربر بتلك اللغة الغربيّة بدون قلقلة ولا غلطة! شيء مبهر ويرفع الرأس. حتى الرجال سمعوا ذلك. حتى الشيوخ والخوارنة هزُّوا الرؤوس بتأثُّر. فمشت النساء برأس مرفوع، واقتربت بعضهنّ من ليزا وقلن لها: يسلم فمك، كما قلن للستّ رفيعة ـ أمّ أحمد: عشت يا بطلة.

ذاك النظام والجلال المهيب لم يستمرّا إلاّ دقائق، لأنّ الجمهور المتفرّج وقد أُثير بفعل الكلمات والبيان البديع أخذ يتسرّب إلى الموكب. بدأ التسرُّب ببضعة أولاد ثم بضعة شباب ثم المارّة والبيّاعين ممّن وقفوا خلف الموكب ومعهم بسطات فيها ترمس وفيها بليلة وكعك وبيض وجبن وفلافل، لحقوا بالركب واندسّوا بين النسوة فاحتدّ الشيوخ وبدأوا يصرخون على المندسّين: ارجع يا ولد، ارجع يا شابّ، ارجع يا روحي ويا حبيبي. لكنَّ الشباب، وكذا الأولاد والباعة، كانوا يشعرون أنَّ الموضوع هام جداًّ لأنَّ الموضوع هو فلسطين وليس المرأة، وأنَّ فلسطين هي أيضًا لهم كما هي للنساء وصفّ الزعماء والخوارنة وشيوخ الأوقاف والأقصى. فأخذوا يهتفون: يسقط الانتداب. يسقط، يسقط. يسقط الاستعمار، يسقط، يسقط. عاشت فلسطين، عاشت، عاشت. فقال الخوري لشيخ الأقصى: هؤلاء الشباب فرطوا الموكب.

احتدّ الشيخ لأنَّ الموكب صار بلا شكل، وبلا قيمة. فهؤلاء النساء، أفضل نساء في المدينة، بنات العائلات والأكابر، بنات الزعماء والقادة، بتن محشورات بين الأولاد والباعة وبسطات الفلافل والترمس، فما هذا الوضع! وما يدرينا ماذا يفعل أحد هؤلاء الشباب أو الباعة؟ يحشرون النساء، يبصبصون على النساء، وقد يفعلها أحد الزعران وينكش واحدة أو يهرسها. والغريب في الأمر أنَّ بعض النساء كنّ يبتسمن وقد كشفن الوجوه وهن يسمعن الهتافات والتعليقات وحماس الشباب والباعة، ويشعرن أنّهن فعلن شيئًا عظيمًا كما لو كنَّ

هنّ القادة وهنّ من جئن بالاستقلال وحرّرن فلسطين من اليهود والاستعمار. فاشتدّ حماس شيخ الأقصى وأخذ يصرخ: ابعد يا شابّ. ابعد يا ولد. لكنّ الشباب كانوا قد اندسّوا في الموكب وما من قوّة قد تمنعهم من المشاركة في هذا الموقف والحدث الهامّ. فعاد الشيخ إلى صفّ الرجال ونادى زملاءه في الأوقاف حتى يساعدوه في حفظ النظام وحفظ النسوة. فانتشر هؤلاء على الجانبين يرجون هذا وينهرون ذاك حتى بُحّوا. وحين يئسوا من قمع الشباب التفتوا إلى النساء وأخذوا يهيبون: غطّوا يا نسوان، غطّوا، غطّوا.

وحقيقة الأمر أنَّ كلّ النساء أو معظمهنّ كنَّ يغطّين رؤوسهنّ إلاَّ قلّة. المسيحيّات بالبرانيط يغطّين شعورهنّ بطريقتهنّ. والمسلمات، معظمهنّ، كنّ مغطّيات بالمناديل والبونيهات والإيزارات والمعاطف. وبعض النساء، عدد قليل من المتعلّمات جدًّا جدًّا، والمثقّفات جدًّا جدًّا، ممّن شاركن في المؤتمرات في مصر ولبنان وسوريا ورأين سفور المصريّات وتحرُّر وأناقة اللبنانيّات، وعُدن بأفكار غريبة عن السفور وحقوق النساء ودور المرأة، بدأن يتمرَّدن على الغطوة ويلبسن شيئًا مختلفًا اسمه بونيه. وفي ذاك الزمن، زمن البونيه، راجت شائعات وأقاويل حول البونيه والخلاعة وعهر النسوان، وما للبونيه من تأثير على عقل الرجل واتّزان الرجل وحواسّ الرجل لدرجة أنَّ الزّعران في الشارع وبعض المارّة كانوا يغنّون للمرأة ذات البونيه «أمّ البونيه رقّاصة، بدها بمبه ورصاصة». لكنَّ السفور كان قد بدأ المسيرة، على مضض، وبعدد قليل، وبعض الزعماء والقادة كانوا

يؤيّدون تلك الخطوة وبدأوا يمشون في الشارع مع نسوتهم المعتمرات ببونيه صغير أو يشمك، وبذا يتحدّون جوّ الشارع ومواعظ ولعنات الجوامع. والستّ رفيعة ـ أم أحمد كانت تمشي مع زوجها منذ زمن قصير، ربّما شهرين أو ثلاثة، ببونيه صغير وقد رفعت المنديل فوق الجبهة كممرّ مبدئيّ نحو السفور، سفور كامل. كانت قد أخذت إذن الرجل، أي زلمتها، وأقنعته أنَّ المرأة بنت الأصول، بنت العيلة والأصل العريق، مصونة ومحميّة بشرفها وتربيتها والعلم والفهم والفضائل، ولا بأس عليها، بل الواجب أن تبدأ هي، بدون تردُّد، برفع الحجاب والتحرُّر لأنَّ الحجاب بدعة سخيفة، عادة مقيتة، موضة استعرناها من الأتراك، زمن الأتراك وسفر برلك. وبما أنَّ الأتراك رحلوا عنّا، إذن الحجاب سيلحقهم. وبما أنَّ أبو أحمد ذهب مع الوفد، وفد القادة، وشارك بمؤتمرات قبرص ولندن، فقد اقتنع وأعطى الإذن لزوجته أن تنزع الحجاب خطوة خطوة، بدون تسرُّع، وتمشي قدمًا نحو السفور، بلا خجل، بدون تردُّد. ولهذا، الستّ رفيعة ـ أم أحمد، حين رأت ما حلّ بالموكب وهيبته وصياح الأولاد وهتاف الشباب والباعة استاءت جدًّا واغتاظت، لأنَّ البيان كان عظيمًا، وسير الموكب كان مهيبًا، واحترام الرجال والقادة لدور المرأة، نشاط المرأة، وانضباط المسيرة والموكب، كلّ هذا الجهد يضيع هباء؟ كما أنَّ المنظر من البلكون كان جميلاً، يرفع الرأس. اهتمام الرجال ودموع النساء وخشوع المتفرِّجين والمارة، وحتى اليهود، والهستدروت، ورضى الحاكم، كل ذلك يضيع بفضل الأولاد وشلل الزعران! وتكون المحصّلة

النهائيَّة ونتاج اليوم فوضى وتشتيتًا وخيبة نسوان؟ ماذا يقولون عمّا يحدث؟ غداً يقولون: مظاهرة النساءِ كانت فوضى، كانت مهزلة بلا قيمة. ثم الإعلام، والصحافة، ماذا يكتبون في جرائدهم؟ ماذا يقولون عن المرأة؟ والعروبة؟ ونظام اليهود، وانضباط اليهود والهستدروت والوكالة؟

اقترب شيخ شبه ضرير ممّن يقرؤون على القبور وفي الموالد وقال: غطّوا يا نسوان، غطّوا، غطّوا. فلكزت الستّ رفيعة زميلتها وقالت بغضب: عجبك يا ستّ؟ قالت ليزا لتهدئها: خيرها بغيرها. صاحت بحنق: أيّ غيرها؟ إحنا ما صدّقنا نجمعهم. شو يقولوا اليهود؟ شو يقول الحاكم يا ليزا؟

اقترب ولد والتصق بها وشدّ ذيلها وصاح بها: أم البونيه رقّاصة. فمدَّت يدها بسرعة عجيبة وسحبته من أذنه وصفعت رقبته وهو يصيح: أذني، أذني. وهرب منها ووقف على الرصيف وهو يلعن ويفرك رقبته وأذنه.

اقترب الشيخ وقال بهمّة: غطّوا يا نسوان، غطّوا، غطّوا. فصاحت به: اقصد يا شيخ وحلّ عنّا. لكنَّ الشيخ لم يحلّ عنها بل أخذ يحوقل ويترحَّم على هذا الزمن وعهر النسوان، لأنَّ المرأة في هذا الزمن، زمن البونيه، صارت وقحة وقليلة دين. فنهرته ثانية وقد بدأت تهيج وتفقد أعصابها كالعادة: ابعد يا شيخ، إحنا ناقصنا؟!

اقترب أكثر وتمادى وقال كلمات جنّنتها. قال وهو ينوّس عينيه ويلوِّح بيده ويقف أمامها ويسدّ الطريق: بدل ما تدوروا في الشارع بلا

حيا ولا دين روحوا انضبّوا. ضبّوا ولادكن وضبّوا زواجكن وضبّوا حالكن. روحوا انضبّوا. وإنت يا حرمة، غطّي، غطّي. والتفت إلى ليزا وحدَّق بها: وإنت يا حرمة بالطاقية، روحي انضبّي.

صاحت أمّ أحمد كالمجنونة: وكمان بتقول الطاقية؟ أعطيه يا ليزا الطاقية خلّيه ينقعها ويشربها.

ابتسمت ليزا بحرج شديد، وهي ترى الموقف يتدحرج إلى مهزلة، فأخذت ترجوها أن تهدأ: يا أمّ أحمد، يا أمّ أحمد. والشيخ يصيح: غطّوا يا نسوان، غطّوا، غطّوا. فاعترضت طريقه وهي تلوِّح بيدها ووجهها يحمرّ: بتروح من هون وإلاّ أفرجيك؟

رأته يحدِّق كالمصعوق والنساء من حوله يتغامزن والولد يصيح من فوق الرصيف «أم البونيه رقّاصة» فشدَّت البونيه عن رأسها ورمته على الشيخ فوق اللفّة. وكنوع من المؤازرة وشدّ الأيدي نزعت ليزا برنيطتها ورمتها على الأرض بدون تردُّد، وتبعتها نساء أخريات ممّن حضرن المؤتمرات وعدن ببونيهات ويشامك، إذ رمين المناديل على الأرض وفي وجه الشيخ. لكنَّ الرجال هرعوا للخلف لاحتواء الوضع المتفجِّر، إذ سحبوا الشيخ حتى لا يقال إنَّ مظاهرة النساء انتهت بمهزلة وفضيحة. وأبعدوا المارّة والصحفيّين ومنعوا المصوِّرين من التقاط الصور، ولمّوا المناديل والبرانيط وكلّ البونيهات عن الأرض وأعادوها من حيث أتت، وقالوا للبعض ممّن شاهدوا ذاك الموقف: ضبّوا الطابق، انسوا الموضوع.

لهذا، حين حاولت بعض الباحثات بعد سنوات، ربّما خمسين أو أكثر، نبش الموضوع وفهم ما حدث في ذاك اليوم، لم يجدن أكثر من صورة، صورة وحيدة لنساء يقفن تحت البلكون، تحت الحاكم، بمعاطف طويلة ومناديل وبرنيطة(١).

١ ـ الصورة من: Before Their Diaspora للدكتور وليد الخالدي.

النوّارة

لم تنم وداد في بيتها فجنَّ جنون الأهل. انزوت الأم في بيت وحيد وبدأت تندب. وحيد اكفهرّ وصمت صمتًا أبديًّا وقاطع زوجته وأهمل خاله. والخال أحسّ أنَّه المسؤول عمَّا يحدث فذهب ليبحث عن ابنه حتى يعاقبه. وحين لم يجده في أيّ مكان يعرفه أو يسمع عنه سأل السائق فقال السائق إنَّه سمع من الناس أنَّ ابنه يذهب يوميًّا إلى ملهى السلطانة كي يسهر. والسلطانة هي يهوديَّة مغربيَّة لديها بنات وطقش وفقش وموسيقى. فقال له: خذني إليها. فأخذه إليها ووجده هناك.

كان يجلس إلى طرف البار يشرب ويستمع ويمزمز. كان قد اعتاد ذاك المكان، لأنَّه يجعله ينسى نفسه وينسى ما حلّ بحياته. هو أيضًا تعيس وبدأ يتمرَّد على وضعه. زواجه القسري كان القطرة التي طفّحت الكيل وجعلته يحسّ أنَّه مستغلّ ومستعبد. صحيح أنَّ أباه كان يغرقه بفيض النعم، إلاَّ أنَّه بالمقابل أخذ رجولته وذكاءه. تعرّفه على بنات شالوم جعله في البداية يقارن بين هؤلاء البنات وأخواته، ثم بين هؤلاء البنات وبينه هو. فحين ناولته إستر ضربة كاراتيه جعلته يدور على نفسه مثل اللولب ويسقط على الأرض مثل الميت، بدأ يتساءل بحسرة وحسد كيف أسقطته على الأرض بنت يهوديَّة وهي لا أكثر من بنت،

وهو رجل، وهو تربية السعودية! فكيف تتفوّق يهوديّة على ..
السعوديّة؟! كيف تتفوّق عليه بنت وهو الذي اعتاد أن يكون الا..
والنوّارة بين جوقة بنات! هو الوحيد بين خمس بنات، أي خليفة أبـ..
أي زينة الدار وفخر العيلة. هو من أحسّ طوال حياته أنّه ولد، أ..
الجوهرة المكنونة، وهؤلاء البنات، يعني النسوان، يعني الولا..
المستورات لا يأتمرن إلاّ بأمره ويحتجنه كي يسندهنّ ويحميهنّ ويجعـ..
لهنّ قيمة وعزوة. حتى الأديان قالت هذا. حتى الشرع، حتى القانو..
لكن يبدو أنَّ هذا الشرع وذاك القانون عند اليهود شيء آخر.

بدأ يتساءل ويراقب. عرف أنَّ بنات شالوم يركبن الخيل، وهو لا يركب. بنات شالوم يسبحن في البحر، وهو لا يسبح. بنات شالوم يلعبن تنس وكاراتيه وسكواش، وهو لا يلعب إلا الورق، ودومًا يخسر. بنات شالوم تدرَّبن على السلاح في كيبوتس عخشاف وهو لم يلمس بحياته أيّة قطعة سلاح إلاّ سكّين المطبخ. وحتى سكّين المطبخ لا يعرف كيف يمسكها أو يستعملها، لأنَّ المطبخ وفرم السكّين شغل النسوان. أمّا شغل الرجل فهو المكتب وعمل الميناء وركوب البحر وحرث الأرض وبناء الدّور وما شابه. لكنّه للحقّ لا يعرف أيًّا من ذاك. فماذا يعرف؟ لا يعرف سوى الجلوس في المكتب ومسايرة الزبائن، زبائن أبيه، والخضوع لأبيه وعاداته. صحيح أنَّ أباه طيِّب وكريم ومسالم إلاّ أنّه دقّة قديمة، غير متعلِّم. وقياسًا بزميله إسحق شالوم، بسيط وساذج. لكن هذا البسيط والساذج، الدقّة القديمة المتخلّف، يتحكَّم به ويجعله يتنازل عن حقّه في اختيار حياته وتصرُّفاته. يريده أن يكون نسخة عنه أو عبدًا ذليلاً لا يأتمر إلاّ بأمره. فماذا يفعل؟

قالت له سارة مرّة: اترك شغلك. لاقِ وظيفة. قال ليبرّر خيبته إنّ ذلك غير ممكن لأنّ والده يحتاج إليه فهو وحيده. قالت ساخرة لتغيظه: بابا يعاملني بهذا الشكل أهرب وأرجع لكيبوتس عخشاف. فقال بسرعة: يا نيّالك! ثم انتبه وقال متراجعًا: وأنا كمان يمكن أهرب. لكنّه كان يعرف في أعماقه أنّه لن يهرب ولن يتخلّى عن وظيفته في شركة أبيه، وعن منزلته كنوّارة بين خمس بنات.

* * *

وقف أبوه إلى جانبه وهو ساهٍ عن الدنيا. كان يدندن أغنية مصرية، ويمزمز ويكرع الكأس ويقول «يا ليل!» فقال أبوه فجأة، بلا سلامات ولا مقدِّمات:

ـ ملعون أبوك! قاعد تتمزمز وتتنيّز وتغنّي أمان ويا ليل ويا عين والدنيا مخسوفة على مرتك؟ قوم تحرَّك. فزّ، يا اللّه قوم.

التفت الشابّ خوفًا من وصول صوت أبيه للزبائن أو للبنات والسلطانة، أو لسارة التي وعدته أن تكون هناك ولم تحضر بعد. فقال لأبيه بصوت خافت:

ـ طيِّب، طيِّب، وطِّ صوتك.

لكنَّ صوته كان قد وصل وانتهى الأمر. فجاءت السلطانة تتبختر لترى ما الأمر فوجدت أبو رشاد وابنه رشاد في وضع يقترب من الانفجار، فصاحت مرحّبة بعلوّ الصوت:

ـ أهلاً بالبيك، أهلاً، أهلاً. شرّفت البار وأصحابه. خطوة عزيزة. خطوة مباركة. أنا من زمان كنت أستنّى إنَّك تعطف وتشرّفنا. هات يا

موشي كاس للأحباب. تشرب وسكي؟ تشرب بيره؟ أطلب طلباتك على كيفك. من يوم العرس (وأشارت إلى ابنه) ما شفناكم. معقول يا بيك نسيتونا؟

انطفأ غضب الخال في الحال ونظر إلى الستّ نظرة خجلة، لأنَّه بالفعل لم يتوقَّع أن يصل صوته إليها وينبِّهها لوجوده في ذاك المكان وهو الذي لا يرتاد البارات ولا يشرب. صحيح أنَّه يقدّم لضيوفه ما هبّ ودبّ من مشروبات ومزهزهات، إلاَّ أنَّه لا يشرب ولا يشمّ ولا ينسطل. هو يكرِّم فقط، لكنَّه لا يتواطأ. كما أنَّه لم يتعرَّف على السلطانة وجوقتها إلاّ في العرس. كانت قد جاءت مع شلّة بنات، وكلّهنّ يهوديّات، وأحيين الفواصل أثناء استراحات عبد الوهاب. وكنّ للحقّ مثل الملبن، قشطة، زبدة، نور مشعشع من أفخاذهنّ وأثدائهنّ، فصاح الوجهاء والمدعوّون: «اللّه أكبر!» وقد قيل له فيما قالوه: بنات السلطانة مثل اللوز، زيّ الملبن. فقال لهم: كلوا وتهنّوا. أما هو فلم يهنأ لأنَّه تربية السعوديّة وعيلة قحطان.

همس لابنه:

ـ كلّه منك!

ابتسم الابن وعرف أنَّ الجوّ بدأ يصفو، وأنَّ مرجل أبيه بدأ ينفِّس. فقال لموشي بلهجة حميمة، لهجة من يعرف أهل الدار:

ـ هات يا موشي، هات ليمونادة.

سأله موشي وهو يغمزه:

ـ ليمونادة حاف؟

أجاب بنخوة وهو ينظر في وجه أبيه متودِّداً:

ـ طبعًا، طبعًا، ليمونادة حاف. الوالد محافظ لا يشرب.

فصاحت السلطانة بصوت رنّان:

ـ معقول يا بيك؟

هزّ الخال رأسه وقال معتذراً كما لو كان يعتذر عن إساءة:

ـ طبعًا، سامحيني، لا أشرب.

قالت بدهشة ومرح زائد:

ـ معقول يا بيك؟! لأ مش معقول! في العرس الويسكي كان أنهار والليل نهار. يا سلام يا بيك. أنا بحياتي لا شفت ولا سمعت. حتى البنات قالوا فرحكم كان زيّ الحلم. الورد والبركة والأضواء والأكل والمازة والكعكة والحلويات، شيء مش معقول! وفوق كلّ هذا عبد الوهّاب! يا سلام يا بيك. يدوم العزّ يا أهل العزّ يا أهل الكرم يا أهل الذوق. لكن قل لي، كعكة العرس والبطّ والحمام والجبنة القريش أكيد من مصر. صح وإلاّ لأ؟

قال باعتزاز وقد بدأ يلين وينسجم مع الموقف والإطراء:

ـ صحيح من مصر.

قال رشاد مؤكِّداً كلام أبيه كي يكسب رضاه:

ـ فعلاً من مصر. الوالد ما بيحبّ إلا الغالي لأنّه غالي وكريم وذوق. مذوِق وفنّان يفهم بالأكل ويفهم باللِّبس ويفهم بالفنّ. حتى صوته لما يغنّي مثل عبد الوهّاب ويمكن أحلى.

حدج الخال ابنه مبتسماً وقال مهدِّئا:

ـ بسّ يا ولد، عيب، تواضع، بلاش فضايح.

فصاحت السلطانة معاتبة:

ـ أيّ فضايح؟ الفنّ والطرب صاروا فضايح؟ لا يا باشا، لا يا حبيبي. هات يا موشي، اعطيني كاس واعطي الباشا وخلِّينا نسمع ونسلطن.

والتفتت إلى الابن وقالت بمرح:

ـ آه يا ملعون، فهمنا السرّ، هذا الصوت أبًا عن جدّ! هات يا شمعون، اعطيه العود خلّينا نسمع.

وبلمح البصر انتقل العود إلى رشاد فحمله وانسحب عن البار وجلس إلى طاولة قريبة وبدأ يدندن أغنية كان والده يحبّها حبًّا جمًّا ويدندنها وهو يحلّق:

يا غصن نقا مكلّلاً بالذهبِ
أفديك من الردى بأمّي وأبي
إن كنتُ أسأت في هواكم أدبي
فالعصمة لا تكون إلا لنبي

انفعل الأب وقال بدهشة:

ـ وله يا ملعون، وتدقّ العود؟!

لم يجبه الابن، وأشار للتخت في الجهة المقابلة فانطلق العزف وارتفع صوت السلطانة ترافقه بالغناء. ووجد الخال نفسه في موقف

غريب لم يتوقّعه، فبدلاً من أن يجرّ ابنه ويسحبه من أذنه كما كان يتوعَّد، ها هو الآن يستمع إِليه وهو يعزف على العود. فكيف باللَّه يحدث هذا؟ ابنه التيس، ابنه الكسول، ابنه الحمار يعزف على العود؟ شيء مذهل! إِذن الحمار ليس حماراً لأنَّه بالفعل يعزف على العود. فالتفت لموشي جرسون البار وقال بدهشة وفرح مكبوت:

ـ يعزف على العود!

أشار موشي للسلطانة وقال ضاحكًا:

ـ هي علّمته.

فهزّ الأب رأسه غير مصدِّق وهمس بإِعجاب: «ما شاء اللّه»!

لم يكن الشابّ غبيًّا مثل أبيه وأخواته، لأنَّه ورث ذكاء أمّه، لكنَّ الدلع أفسده وجعله يهيم على وجهه. وهو بذلك كان ضحيّة كما كان أبوه. أبوه لم ينل من التعليم ما يعوّضه عن الغباء والبساطة، والابن نال من الدلع ما جعله خرقة مرقة بدون صلابة وبدون أساس لعمل نافع. لكنَّه في أمور الهزل والفكاهة وعمل المقالب وحبك النكات كان لمّاح الذكاء وخفيف الروح، بل كان بظرف الرِّيحاني ملك الفكاهة في ذاك الوقت. ولهذا أحبّته سارة وأحبّته البنات.

علاقته بسارة بدأت كنوع من المزاح أو النكتة. بدأت بموقعة الحمار وتلتها وقائع أخرى. كان يراها فتنهمر النكات من فمه كسيل رقراق. يبدأ بتقليد أبيه ثم أبيها، ويجعل من الواحد كاريكاتيراً شبيهاً بالأصل. وكان يعدِّد لها مناقب أبيه وأبيها خصلة خصلة. وكلَّما زاد كبته في الشغل أو حقده على أبيه، بسبب زواجه وقمع رجولته ونزواته، زاد غلوًّا في عمل المقالب وابتداع النكات. كان يعبّر عن ثورة غير ناضجة انعكست بأعمال صبيانيَّة تلائم مزاج البنت الميّالة للمرح والشقاوة وحبّ الحياة، فانسجمت معه. وحين أخذ يقلِّد زوجته وحماته ووضعه في البيت كزوج مغلوب على أمره بشكل مسخن،

حزنت عليه وقالت جملتها الشهيرة: لاقِ وظيفة! انهال عليها بسيل النكات وجعل من المأساة أضحوكة. جعل من الجلسة الحزينة نزهة ممتعة تتخلَّلها النكات والتمثيليّات والمقالب. لهذا اجتمع حوله أصحاب المزاج وبنات اليهود، وصار الملك المتوّج لتلك الشلّة. ما ساعده على اجتذاب هؤلاء هو خفّة روحه ومزاجه الضاحك والمال الكثير.

كان يغدق على الجلسة الواحدة ما يكفي عائلة بأكملها عدّة أشهر. فأخذت الفتيات يتسابقن على كسب ودّه، رغم شكله السقيم وضخامة أنفه. لكنَّ المال يحلّي القبيح، وخفّة الظلّ تعوّض عن سخف المضمون. فاعتادت سارة على رفقته وجلساته ودخلت في السبق مع فوج البنات لتحتفظ به رغم زواجه. وهكذا عرف الجميع أنَّ رشاد قحطان واقع في البنت اليهوديَّة ابنة شالوم.

سمع شالوم أنَّ ابنته تعاشر الولد الرقيع المتزوِّج رشاد قحطان. وبما أنَّه تربية عرب، فقد أخذ يلاحق ابنته ويحذِّرها ويهدِّدها ويتوعَّدها أو يتودَّد لها، حتى سئمت وتركت البيت وعادت لأمّها في كيبوتس عخشاف. هذا إذن أصل القصّة. وهذا بالطبع أدى إلى فضيحة مزدوجة، فالمسلمون يتحفَّظون من اليهوديّات لأنّهنّ - كما هو شائع - نساء مفضوحات بلا أخلاق ولا عفّة، يصلحن للعشق ولا يصلحن للزواج والأمومة. لهذا كان العربي يدور ويلفّ ويعشق ويتمعشق على كيفه ويحتفظ بمحظيّة يهوديَّة في مكان ما، يفتح لها بيتاً، يشتري لها شقّة، أو يزورها في مكانها كما يحلو له، لكنَّه عند الزواج يعود ليتزوَّج من ابنة عمّه أو ابنة خاله.

واليهود أيضًا يتحفَّظون من العرب لأنَّ اليهود صنف أرقى، دين أسمى، شعب مختار. كما أنَّ العربي عينه زائغة يستعمل المرأة ويقذفها، أو يتزوَّج عليها ويبقيها كأمّ للأولاد فقط لا غير. وبما أنَّ اليهود القادمين من دول الغرب جاؤوا بأفكار حديثة حول المرأة والجنس والمدنيّة، فقد نشروا تلك الأفكار بين اليهود الشرقيّين الذين كانوا ما زالوا يتمسَّكون بمفهوم النكاح من خلف ستار، والاشمئزاز من نجس الحيض، والاستعاذة من المرأة لأنَّها مخلوق أدنى وأحقر، لدرجة أنَّ الرجل يستيقظ صبحًا على صلاة شكر للمولى لأنَّه خلقه على صورة ذكر. المهمّ في الأمر أنَّ هؤلاء اليهود من دول الغرب مدّنوهم ورقّوهم، وقالوا لهم إنَّ المرأة لها ما لهم بدليل أنَّها قادرة على حمل السلاح والعمل في الكيبوتس والاستفادة من غباء العرب.

كلّ هذا وذاك جعل إسحق شالوم يفقد عقله حين وصلت إليه حكاية ابنته مع رشاد قحطان. كما أنَّ الخال جنَّ جنونه لأنَّ علاقة ابنه بتلك الفتاة اليهوديَّة قد تدمِّر زواج ابنه وزواج ابنته وتجعل سمعته مثل الزفت. فماذا يقولون في نابلس؟ ماذا يقولون في الكرمل ووادي النسناس؟ ماذا تقول أخته زكيّة؟ ألن تبدأ بالنقيق ضدّ ابنته وتوغر صدر ابنها ضدّ امرأته حتى تنتقم لابنتها؟ كما أنَّ زواج ابنته لم يثمر بعد، فهي لم تحمل رغم مرور عدّة أشهر. وهذا أيضًا سبب آخر يحسب له مليون حساب. فماذا يفعل سوى أن يلاحق ابنه ويشكم أنفه ويتعاون مع شالوم في التصدّي لحبّ ممنوع؟!

صعد الأدراج نحو الطابق العلوي، وطرق الباب فقابله الصغير بعينين مخفوقتين. قال إنَّ الأم راقدة في الفراش وإنَّها مذ اختفت وداد والطبيب يحقنها بالإبر، ووحيد ترك زوجته وأشغاله والتصق بها. سأله وهو يحدِّق في وجهه: عرفت عن وداد؟ وما كاد ينهي السؤال حتى رأيا وحيد والطبيب يخرجان من غرفة النوم ويتّجهان نحو الباب فلحق بهما، بينما هرع سمير إلى أمّه.

قال وحيد وهو يلهث: الجوّ خانق. يا اللّه نمشي. فنزلا الأدراج بصمت ووجوم. كان وحيد ما زال مأخوذاً بانهيار أمّه، فظلّ صامتاً ينظر أمامه ولا يلتفت إلى أخيه حتى وصلا كورنيش البحر. وقف أمام الأمواج والعتمة وقال بتجهُّم ووجهه مشدود نحو البحر:

ـ هذا الزواج كان لعنة.

ظلّ الآخر صامتًا يفكِّر بما عساه يقول عن وداد وكيف رآها مع ليزا في مظاهرة النساء. وفيما هو يفكِّر كيف يبدأ وإذا بأخيه يهمس كما لو كان يخاطب نفسه:

ـ ما عدت أطيق.

قال الآخر مهدِّئًا وهو يتحيَّن الفرصة لمفاتحته:

ـ بكره تفرج.

التفت إِليه وحدَّق في وجهه بشكل غريب:

ـ وكيف تفرج؟ قل لي يا شاطر كيف تفرج؟ الوضع رهيب، أمّك وخالك ورشا الهبلة، أغبى مخلوقة في العالم، واليوم وداد. هذا في البيت، أما في الشغل فالوضع مخيف، جوّ مرعب. ما عدت أطيق. طيّروا عقلي. نابلس أرحم.

لم يعلّق، فالتفت إِليه وقال وهو يحدجه بنظرات غاضبة كما لو كان هو المسؤول عن الجوّ المخيف واختفاء وداد وغباء زوجته وسوء اختياره.

ـ ما عدت أطيق. الشركة وخالك وبنت خالك يروحوا يغوروا. أنا مالي ومالهم ومال الهمّ؟ يروحوا يغوروا. وأمّك كمان، تروح تغور.

لم يصدِّق ما سمعه. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يرى فيها أخاه يخرج عن طوره ويثور على أمّه ويتمرَّد.

ـ مالك؟ مستغرب؟ مش مصدَّق؟ طبعًا، طبعًا، لأنّي عوَّدتكم على وحيد حمّال الأحمال، وحمار الشغل؟ يا أخي انفلقت. حلُّوا عنّي. ارحموني.

وأجهش بالبكاء وهو يبتعد عن أخيه مسافة خطوات، فبقي الآخر جامداً في مكانه غير مصدِّق ما تراه عيناه وما تسمعه أذناه، لأنَّ المفاجأة كانت أكبر من أن تصدّق. وحيد الهادئ، وحيد الرزين، وحيد

الجبّار يفقد رشده؟ كانت تلك هي المرّة الأولى التي يراه فيها فاقداً لتماسكه ورباطة جأشه.

جلس وحيد على مقعد حجري فجلس أمين بجواره دون أن يفوه بأيَّة كلمة. بعد فترة صمت قال وحيد وكأنَّه يخاطب نفسه:

ـ أنا نصّاب. أنا كذّاب، أنا منافق. أنا أكرهكم وأكره حالي. أكره وداد وأكره رشا وأكرهك أنت، أنت بالذات، أنا أحسدك. أنت حرّ لا همّ ولا غمّ ولا مسؤولية. أنت بدروسك ومدرستك. أنت الذكي، أنت الشاطر. أنت الفيلسوف المثقّف والمتعلِّم، وأنا حمار الشغل. وأنا صغير حملت شوالات على ظهري حتى تعيشوا. ولما كبرتوا صرت السوّاق، يعني الشوفير، يعني عامل. دخلت السوق وأنا ولد صغير وصارعت الدنيا وصارعت الناس. ولما تزوَّجت، تزوَّجت لكم، يعني لأمّك، يعني لأختك، يعني لخالك وبنت خالك والعيلة. واليوم، ضاعت وداد، ومرضت أمّك وأنا المسؤول. أمّك تقول إنِّي المسؤول. أسألها كيف؟ كيف أنا مسؤول؟ تهمهم وتبرطم وتقول كلمات مش مفهومة. تقول لي بلؤم: اسأل أمين. أسأل أمين؟ طبعًا يا سيِّدي يا متعلِّم لأنَّك فهمان وأنا الجاهل. أنت الفيلسوف المثقّف. تفضَّل علِّمني يا متعلِّم. مالك ساكت؟ مش عاجبك كلامي يا خواجه؟ مش عاجبك تسمع أسراري؟ كان من زمان لازم أحكي. بس كنت أخاف أحكي وأغلط. لكنِّي غلطت. هذا الزواج أكبر غلطة. ولمّا صحيت لقيت نفسي في قفص مخيف وشركة رهيبة. خذ، تفرّج.

ومدّ يديه إلى جيبيه وأخرج باليمنى مسدسًا وبالأخرى حفنة رصاص كحبّات الفول، وهمس في وجه أخيه وهو يحملق كالمجنون:

ـ شايف هذا؟ مثل هذا ألوف. صناديق سلاح كتبوا عليها قابل للكسر. انكسر صندوق بالصدفة واكتشفنا رصاص ورشّاشات وأشياء عجيبة وغريبة. واحد عامل فهم الموضوع وفهّمني. إسحق شالوم، هذا المقصود: إسحق شالوم.

سأله بذهول:

ـ طيِّب وخالي؟

ـ خالك مسكين زيّ الأهبل. والأدهى وأمرّ أنَّ العامل قال للعمّال، ٣ عمّال، وبعد يومين طلبوا منِّي أن أسكت على الوضع وأتعاون.

صاح بذعر:

ـ تتعاون مع يهود؟

وضع يديه المليئتين على صدره:

ـ أنا مع يهود؟

ـ إذن الثوّار؟

لم يجب.

ـ والإنجليز؟

أطلق قهقهة ساخرة ولم يعلّق.

ـ ورشاد يعرف؟

ـ رشاد لا صاحي ولا واعي.

ـ طيِّب وأنت؟

ـ في مهبّ الريح. تسريب وتهريب ابتدأ بحفنة من هنا وقطعة من هناك ومع الوقت زادت الطلبات وأنا أغطس أكثر وأكثر.

ـ وإذا انكشفت؟

ـ بستّين داهية.

وسأل بسخرية ومرارة:

ـ شايف همّي؟ هذا همّي. وجاي تقول لي بكره تفرج؟ وكأنَّ المسألة هروب وداد ومرض أمّي. تغور وداد وتغور أمّي ويغور خالي وتغور أنت. يا أخي حلّوا، حلّوا عنِّي، اعتقوني!

بات مشدوداً بين قطبين. أخوه في فخّ، وأخته في فخّ، وهو حائر بين الاثنين. أيُّهما أصعب حالاً، وبأيِّهما ينشغل الآن؟ لم يتردَّد طويلاً واختار أن يبدأ بوحيد.

ذهب إليه في الميناء ووجده بين العمّال يأمر هذا وينادي ذاك بين مراكب تحمّل صناديق البرتقال وتنك الزيتون وبعض الركّاب. إذن هنا يحدث كلّ هذا، صناديق سلاح، تهريب موّاد، تهريب يهود وتغيير ملامح فلسطين.

رآه وحيد فوقف مستطلعاً مندهشاً. كانت هي المرّة الأولى التي تطأ فيها قدما أمين مكان عمله. طوال عمره بين الكتب. طوال عمره كان نظيفاً وكان الآخر بالأفرهول ورائحة الكاز.

استقبله بفتور وتشكّك:

ـ خير انشا اللّه؟

أحسّ بحماسه يتبخَّر. فماذا يقول حتى يواسيه؟ سأله إن كان باستطاعته أن يتحدَّث فقال ساخراً:

ـ تفضّل، تحدَّث على كيفك.

ومدّ يده إلى جيبه لظنِّه أنَّ أخاه جاء ليطلب منه ـ كالعادة ـ مصروف الكلّية وسكن الطلاّب. أحسّ الآخر باللَّطمة فانبجست من عينيه طبقة رقيقة جعلته يرى العالم من خلف ستار. لمح وحيد الدموع فتراجع وقال برقّة:

ـ طيِّب تعال.

ومشى أمامه. مرّا برفوف وصهاريج وعربات نقل وموتورات وسقالات وبعض العمّال، وزكمت أنفه رائحة النفط والشحمة، رائحة اعتادها منذ الطفولة، رائحة وحيد.

دخلا المكتب، مكتب رجل يعمل بالحديد والميكانيكا. عفش من حديد مكسوّ بجلد بنّيّ مسودّ اللون، ورفوف رماديَّة متَّسخة ببقع الزيت والشحم والغبار، وملفّات قديمة حائلة مهترئة ونسخة لقاموس صغير عربي ـ إنجليزي.

جلس وحيد وراء مكتبه وقال: تفضّل. فبقي الآخر واقفًا متردِّدًا لا يعرف كيف يبدأ. تأمَّل ارتباكه فابتسم وقال وهو يشير إلى المقعد وما زال في وضع المتهكّم:

ـ اقعد، خايف على مقعدتك، مسحناه الصبح.

قال بغصّة:

ـ أرجوك، أرجوك.

رآه متأثِّرًا فقال برأفة:

ـ طيِّب اقعد، أنا متأسِّف.

اندفع أمين وهو يتأتئ:

ـ أنا متأسّف. حقّك وأكثر أن تكرهنا. كنّا عبئك، وهو عبء ثقيل. لكن لا ذنبي ولا ذنبك. هي الظروف. مات الوالد وأنت استلمت عن الوالد. بالنسبة لي أنت أبونا وأنت أخونا وأنت ربّ البيت ولولاك أنت لمتنا من الجوع. لولاك أنت . . .

قاطعه بأسف مشوب بالحزن:

ـ اسكت، اسكت. كلّ اللّي قلته ونعفته كان فشّة خلق، كنت متضايق.

واتّكأ بكوعيه على مكتبه وهو يضمّ يديه إلى صدره ويقول بجديّة وصوت هامس:

ـ اسمع يا أمين. لازم أقول حتى تفهم. يمكن بفهمك وبعلمك وقراءاتك تضحك عليّ، لكن اليوم لازم تفهم. اسمعني بسّ ما تقاطعني، اسمع وافهم لأنَّك بعدي أنت المسؤول. أنا يا أمين أعترف لك أنِّي أحيانًا أحسّ أنِّي مظلوم، لكن في كلّ مرّة أحسّ بهذا أذهب للجامع لأصلِّي وأدعو اللّه أن يصبّرني فأحسّ بالهدوء وأرجع للدار وأنا واثق من خطواتي. وتكون أمّنا فوق الماكينة ورقع القنابيز فأبوس يديها واطلب منها أن ترضى عليّ وترشدني لأنَّها قويّة وجبّارة، أقوى منِّي. امّي حملت همّي وهمّك وهمّ الجميع. لولاها هي ما كنت أنت في الكلّيّة ولا كنت أنا مسؤولاً كبيرًا بشركة خالك ولا كان زواجي وزواج وداد.

قاطعه أمين بسرعة واضطراب:

ـ ولهذا تكرهها وتكرهنا.

ضرب صدره وقال بذعر:

ـ أنا أكرهها؟! معقول يا أمين أكره أمّي؟

قال الآخر متأمِّلاً:

ـ بعض الأحيان أنا أكرهها. هذا طبيعي، سمعت عن فرويد؟

لم يجبه بل حدَّق متسائلاً فقال أمين مفسِّرًا:

ـ عالم نفساني يفهم الناس وأسرار الناس.

رفع يديه الاثنتين وهزّ رأسه:

ـ اسمع، اسمع، لا تتفلسف. النبي قال: أمّك ثم أمّك ثم أمّك. أمّك يا أمين بالنسبة لي رمز الإيمان والمحبّة ونكران الذات.

علّق الآخر بنقمة وسخرية جارحة:

ـ يعني أمّك ملاك؟!

ـ اسكت، اسكت. طوال عمرك تتفلسف. طبعًا ملاك؟ هذه أمّك!

ـ ولو كانت أمّي، هي غلطانة. لولاها هي ما كنّا الآن في هذا الفخّ، وبالذات أنت. حياتك يا وحيد أهمّ من أمّك وشركة خالك.

ابتسم ابتسامة صفراوية ساخرة فاندفع يحاول إقناعه:

ـ حياتك أهمّ. لا شيء أهمّ من حياتك؟

ـ لأ فيه أهمّ.

ـ أهمّ من حياتك؟

ـ طبعًا أهمّ.

ـ وما هو الأهمّ من حياتك؟

ـ إيماني.

ـ أي إيمان؟!

ـ إيماني باللّه ورسوله. إيماني بدوري بالحياة وبنصيبي. هذا نصيبي. هذا قدري. هذا مكتوب.

ـ أيّ مكتوب وأيّ نصيب؟

ـ يعني زواجي، يعني خالي، يعني الشركة.

ـ لكنَّك قلت....

ـ كنت مرتبكًا بسبب الضغوط ومرض أمّي. لكن اليوم أنا صاحٍ. اليوم الصبح صليت ودعوت وطلبت الرَّحمة من ربّي. قلت له يا ربّ، بجاه النبي وملائكتك، بجاه الأنبياء والمرسلين أنر طريقي وأرشدني لما فيه الخير، ابعث لي بنور وبإشارة. وإذا بالشيخ، شيخ الجليل، هو بذاته، بلحمه وشحمه، ينزل من الجبل ويقعد قدّامي، مكانك بالضبط، ويقول لي أحلى الكلام وأحلى إشارة. قال لي: أنت يا وحيد بتّ منّا.

ـ عن أيّ شيخ تتكلَّم؟

ابتسم برأفة وتسامح وكأنَّه يتكلَّم مع طفل أو معتوه:

ـ شيخ الجليل، شيخ الجبل وشيخ الجامع، هو قائدنا، هو مرشدنا لطريق الخير، هو فسَّر لي وقال قدرنا، قدر مكتوب، قدري وقدرك.

كـان ينعت أخـاه بالـولد النظيف والمفلسف، لأنَّ الآخـر تعلَّم واحـتـضن الـكتب وظلّ هو بـالأفـرهول ورائحـة الكـاز وكـأنَّ الشحـمـة ورائحة الكاز هما قدره. حتى يداه كانتا بلون أغمق وتحت أظافره حزوز سوداء لا تنظّف مـهما فـركها. حين يغسل يديه ينزل منهـما ماء أسود بلون القطران، ولون الصـابون يصبح معكوراً بسبب الزيت والقطران، فيضطرّ لغسلهما بالكاز ثم بماء ساخن حتى يتمكَّن من رغي الصابون. طقوس التغسيل ورائحة الكاز كانت همّه، أحد همومه، وحزوز أظافره السوداء تخجله وتزيد تناقض إحساسه.

قبل زواجه كانت الأمّ تنقع ملابسه بالكاز فتظلّ الرائحة الحرّيفة عالقة في ثيابه مهما استحمّ ومهما تعطّر. أيام الجمعة حين يذهب إلى الصلاة كان يلبس ملابس نظيفة ويتعطّر أكثر ممّا يجب، حتى يُخفي رائحة الكاز. يلبس قميصًا أبيض وبنطلونًا مكويًّا وحذاء جلديًّا أبيض مثل حذاء عبد الوهّاب، ويدعك شعره بالبريل كريم حتى يبدو كعبد الوهّاب. كان يحبّ عبد الوهّاب ويحبّ أن يبدو مثله. كان يحبّ صوته وغناءه ويتمنّى لو يغنّي ويعزف مثله. ورث الموهبة عن الوالد

فكان يعشق الموسيقى ويطرب للغناء وصوت الأذان. كان يغنّي بصوت خفيض وهو يغسل يديه كلّ ليلة. غسل اليدين من الزيت والشحم كان يستغرق وقتًا طويلاً يصرفه بالغناء فتبتسم الأمّ وتقول له: اللّه اللّه! صوتك بالضبط مثل صوته، لكن يا خسارة على القانون. آه يا حسرة!

كانت تتحسَّر على القانون لأنَّه مخبوء فوق الخزانة في كيس قطني كالح يكسوه الغبار. تنزله أحيانًا لتنفض كيسه ثم ترجعه إلى مكانه كذكرى لأيّام المرحوم الذي كان يملأ الدار بأنغامه ومواويله. تقول له: أنت مثله. صوتك مثله. حبّك للغناء والموسيقى، وتقي وكريم وروحك حلوة وقلبك طيِّب. خذ القانون، خَلِّه عندك، لأنَّ أمين لا عنده مزاج ولا عنده صوت.

أخذ القانون وخبَّأه تحت السرير على أمل أن يتمكَّن يومًا من أخذ دروس في الموسيقى تعلِّمه العزف، وظلّ هناك طوال سنوات ولم يعزف لأنَّه لم يتعلَّم. لم يجد الوقت ليتعلَّم، لا الموسيقى ولا اللغة الإنجليزيَّة كما تمنّى. وحين تزوَّج وأصبح مسؤولاً في الشركة وأصبح لديه الوقت والمال، حاول أن ينتسب إلى معهد يعلِّمه الإنجليزية حتى يصبح مثل الوجهاء لكنَّ مشروعه لم ينجح. كان لا يميل إلى الدراسة ويملّ سريعًا ويتعثّر في القراءة فيخجل وييأس ويرمي الكتاب ويقول بسخرية ضاحكة: بعد ما شاب ودّوه عالكتّاب. فتقول الأمّ مواسية: أنت موهوب بالموسيقى وأخوك بالكتب والدراسة. تراه يبتسم بحسرة فتقول مشجّعة: أمين ما عنده صوت مثلك، صوتك أحلى. فيبتسم ثانية ساخراً إذ ما نفع الصوت إذا لم يستعمله كعبد الوهّاب؟ عبد الوهّاب نجم مشهور، أمّا هو فعامل متواضع بالأفرهول.

عبد الوهّاب كان مثاله بالشكل والغناء وحبّ النساء. يذهب إلى السينما ليشاهده ويسمعه ثم يقلّده. وكان يحبّ تعليق رشا: أنت مثله، الخالق الناطق مثله.. فيتشجّع، ويضع مزيداً من البريل كريم ويقلب شعره، ويفصّل بذلة بيضاء كعبد الوهّاب ويضع في عروته وردة بيضاء ثم يذهب إلى المعهد ليتعلّم عزف البيانو بدل القانون لأنَّ عبد الوهّاب في آخر فيلم كان يعزف على البيانو وخلفه نساء جميلات بالديكولتيه يغنّين ويتمايلن وهو يغنّي: «يا دنيا يا غرامي،» فيحسّ بخفقان في قلبه ويزداد اجتهاداً على اجتهاد لكنّه لا ينسى الصلاة.

أمّا كيف اجتمع ذاك المزيج من حبّ الغناء والموسيقى وأجواء الطرب والتديُّن، فهذا ما لم يجد تفسيراً له. يحبّ اللّه ويصلّي ويصوم ويزكّي، ولا يدع فرضًا يعتب عليه. وفي الوقت نفسه لا يدع فيلمًا لعبد الوهّاب دون أن يراه مرّة واثنتين وثلاثًا حتى يحفظه ويحفظ الحوار والمشاهد والأغنيات. حين شاهد عبد الوهاب يعزف على البيانو نسي القانون كلّيًّا، واشترى بيانو من ألفريدو وطنطن عليه عدّة مرّات وأخذ دروسًا فيه ثم هجره، لكنّه ظلّ يغنّي وهو يغسل يديه كل ليلة ويتحسّر لأنّه لم يتعلّم ولا يعرف الإنجليزيَّة مثل الوجهاء. ربّما لهذا السبب اعجبته رشا في البداية، فهي غير متعلّمة وهو غير متعلّم، وهي بسيطة طيّبة القلب وهو طيّب، وهي كذلك لا تعرف الإنجليزيَّة وبالكاد تعرف العربيَّة، وهو كذلك لا يعرف الإنجليزيَّة لكنَّه يعرف العربيَّة ويحسّ أنَّه يتفوَّق عليها، فيقرأ لها الجريدة فتنظر إليه أكثر ممّا تسمع وتقول له بحبّ وإعجاب: نيّالك يا وحيد، تقرأ الأخبار مثل الراديو. فيبتسم بكبرياء وكأنّه لا يسمعها. فتقول له وهو يقرأ عن الإنجليز والثوّار: «االو!

أنا بشبه أثمهان؟ فيهزّ رأسه ويواصل. تقول ثانية بملل: أقرأ عن الثينما وعن أخبار فريد الأطرث. فيقول بجدّيّة تشبه جدّيّة المثقّفين: فريد الأطرش؟! ذوقك عفشيكا يا بنت خالي. فتقول بدلال: طب أثمهان؟ وتحدّق في وجهه كي يرى كم باتت تشبه أسمهان بعد أن رفّعت حاجبيها ورفعت شعرها بشكل شنيون ورسمت شامة على جانب ذقنها. فينظر إليها بحبّ وإعجاب ويقول لها: أسمهان حاجة ثانية. اسمعي، اسمعي، فيه فيلم جديد لعبد الوهّاب يا اللّه نروحه. فتقول بحماس: يالّله. فترمقهما الأم شزرًا وتقول بغيظ: كلّ يوم والثاني على السينما؟ يا مثبّت العقل والدين! وين راح إيمانك يا متديّن؟ فيقول لها وهو يضحك: موجود، موجود. يراها جامدة وقد لوت فمها وعقدت حاجبيها فيقول مطمئنًا: ساعة لقلبك وساعة لربّك. فلا تردّ. يقول لها: «خلص يا أمّي نسيت حالك؟ بزمانك كنت تحبّي الكيف والغناء والرقص والاستقبال، كيف نسيت؟» فتبتسم خلسة ولا تردّ عليه. لكنّها في اليوم التالي تعود لتردّد نفس العبارات: يا مثبّت العقل والدين، كلّ يوم والثاني على السينما!

وفي يوم اشتكى لأخيه فنصحه الثاني بأخذها إلى السينما حتى يضمن راحة باله. أخذها إلى السينما رغمًا عنها. لم يرغمها لكنّه ساير تمنّعها، وحلف عليها أغلظ الأيمان كي يرضيها ويجعلها تحسّ أنّها لم تخن مبادئها، وأنّها لم تبدّل موقفها إلاّ بسببه. فقالت بدلال: اللّه يسامحك. معقول واحدة كبيرة مثلي تروح السينما؟ قال مؤكّدًا: طبعًا معقول. لكنّه كان خجلاً من منظرها بتلك الغطوة التي ظلّت متمسّكة بها رغم اختلاف موقعها، ولم تصغ إلى إلحاحه وهو يحاول إقناعها بأنّ

حيفا مختلفة عن نابلس، وأنَّ روّاد السينما ـ خصوصًا في الليل ـ من عليّة القوم والمتفنّنين والمتفرنجين. وحين لم تصغ إلى نصحه حجز بنوارًا خصوصيًّا ودعا خاله وبنات خاله وأخذهم جميعًا إلى السينما فملأوا البنوار. وفيما هم يستعدُّون لتلك الحفلة أقامت الأمّ حفلة مشابهة في المطبخ فأعدّت أقراص السبانخ والكبّة، وطلبت من وحيد أن يحضِّر كيلو مكسّرات وبزر بطّيخ. وكانت وداد تروح وتجيء وترى الاستعدادات على قدم وساق فتقول بغيظ: كأنَّكم رايحين على جنازة. تقول رشا لتكايدها: هذا من غيظك ومن كيدك. تقول الأمّ وقد أكلها قلبها على ابنتها: اسكتي يا رشا! لكنَّ رشا الغبيّة لا تسكت، بل تنظر إلى الأخرى بحسد واضح لأنَّها حبلت ولم تحبل هي وتقول لها: خلّيك بحبلك أحسن لك. تقول وداد بحسرة وغضب: لو كان أخوك بني آدم لأخذني معكم على السينما. تقول الأمّ مهدِّئة: بلا سينما بلا قرف بلا حكي فاضي. عظيم بيمين، لولا أخوك حلف عليّ ما أروح السينما ولا أدخلها. يهمس وحيد في أذن الأمّ: يمّه ممكن وداد تيجي معنا؟ فتهمس الأمّ زاجرة: من غير زوجها؟ لا يا ابني. لا مش ممكن. تسمع وداد أطراف الحديث فتحمرّ وتصفرّ وتخرج من الشقّة وتخبط الباب. وفي ثاني يوم تجيء من الصبح لتسمع ما قال فلان وما قال علاّن وقصّة الحبّ بين عبد الوهّاب وراقية إبراهيم، وكيف قال لها حين فتحت فمها ورأى الأسنان: أنا مش شايف غير صفّين لولي. وتبدأ بتخيُّل ذاك المشهد كأنَّها حضرته، وتسرع إلى الراديو لتسمع الأغنية وتستحضرها في مخيّلتها كما صوّرتها رشا، وتعيش الحلم وتتمنّى أن يأتي يوم ويأخذها ذاك الغائب في يوم ما إلى السينما. لكنَّ الغائب لا يحضر

واليوم المرتقب لا يتحقَّق، وتظلّ أمنيتها في علم الغيب. وهذا ما زاد بؤس شابّة لم تذق الحبّ، وظلَّت نكرة من قبل الأهل ثم من الزوج، وظلَّت جائعة إلى الاهتمام والعواطف حتى انفجرت وهربت من جوّ ترى فيه الناس يحبُّون الحبّ والطرب والكيف ويذهبون إلى السينما، وهي في السجن تنتظر الزوج.

وفي يوم ما فتنت رشا لأخيها رشاد ما أفلتته وداد حين قالت: لو كان أخوك بني آدم لأخذني معكم للسينما. فقال لها: خذي يا أختي. وناولها ورقة العشرة جنيهات وقال لها: خذيها للسينما بعد الظهر وقت النسوان. أخذتها بعد الظهر أوّل مرّة وثاني مرّة وثالث مرّة، وبدلاً من أن تكفّ وداد عن التذمُّر زادت نقمة وزادت حدّة وأخذت تردّد كالمسحورة: معقول فيه حبّ زيّ السينما؟ معقول فيه حبّ؟ تردّ رشا: طبعًا فيه حبّ. وتبدأ بوصف مشاعرها وما قال لها وما قالت له ثم الأوضاع. وتصف لها بدقّة شديدة ما فعل هو وما فعلت هي ثم الصور والمجلاّت أحضرها رشاد من عند اليهود وأعطاها لوحيد كبادرة محبّة وصداقة، ولكي يرشوه حتى يسكت عن ظلم الأخت، لكنَّ رشا تسرّ لوداد ما يخفيه وحيد فتزداد نقمة وتشعر بالقهر والخيانة لأنَّ أخاها يعيش حياته ولا يسأل عنها ولا يأبه. فانتحت به جانبًا في يوم ما وقالت له بقلب مغلول ما فعل رشاد وما سوّى رشاد، كما أشارت بلؤم إلى الصور والمجلاّت حتى تنخزه وتسمّ بدنه وتشعره بالذنب، وهذا ما حصل. إذ عاد مساء ممقوتا واتّجه إلى الصور والمجلاّت ومزَّقها وتوضّأ وصلَّى واستغفر ربه. وطوال الليل ظلّ يفكِّر بالصور والمجلاّت وأحزان وداد ويشعر بالذنب. وتهيّأ له أن ما يقوم به لا يرضي اللّه لأنَّ النكاح

خُلق لغاية، وأنَّ الغاية توليد النَّسل. وبما أنَّ رشا لم تحبل بعد، وربّما لن تنجب على الإطلاق لأنَّ اللّه سيعاقبها كما يعاقبه بسبب الصور والمجلاّت. كما أن الصور والمجلاّت من عند اليهود هي بلا شك دليل أكيد على انحلال اليهود. وإذا كان رشاد يقوم بذلك فلأنَّه ضالّ منحلّ مثل اليهود. أمّا هو فعفيف شريف من أصل نظيف ومحافظ، فكيف ينساق لأجواء لا ترضي اللّه؟ وها هو اللّه يعاقبه بقلّة النسل لأنَّه ارتكب الخطيئة مرّتين، مرّة بانجرافه واستغراقه بالملذّات، ومرّة لأنَّه غضّ النظر عن عذاب أخته وتعاستها. كما أنَّ اللّه بدأ يعاقبه بأوجاع الظهر. لكنّ رشا لا تفهم هذا ولا تفهم ذاك، وتصرّ على أن تقوم بإغرائه كل ليلة، كل ليلة، حتى سئم وزهق وقلّ وزنه. وصار يتحجّج بالصلاة وإفساد الوضوء وما شابه، حتى سمعها تقول عن وداد: زيّ الدودة. وكانت تلك هي فاتحة الانقلاب فقال لأمّه: رشا يا أمّي تيسة وهبلة. واختلف الحال.

في كيبوتس عخشاف

قالت رشا إنَّها لن تسكت على الوضع، ولن تدع السكناجيّة تخرِّب بيتها وبيت أخيها. اقترحت على وحيد أن يقوما بزيارة البنت عند أمّها في كيبوتس عخشاف ويقنعاها أو يبرطلاها كي تبتعد عن رشاد وتحلّ عنهم. هزّ وحيد رأسه موافقًا وصلّى ركعتين إضافيتين، ودعا اللّه أن يوفّقهما في مسعاهما، عسى أن تحلّ عنهما لعنة وداد فتحبل رشا وينصلح رشاد وتنستر وداد ويهدأ باله. كما أنَّ الشيخ قال له حين زاره آخر مرة إنَّ وضع رشاد لا يرضي اللّه وإنَّ خطيئته في عنقه وإنَّ عليه، بعد أن أصبح من الأبرار، أن يقوِّم الاعوجاج ويصلح الانحراف بدون إهمال أو تأخير.

مرّ بها ببكبّ الصيانة ونقل الموتورات، فجلست بجواره وغطّت وجهها بمنديل أسود حتى لا يراها أحد فيقول لأبيها إنَّ ابنته تركب البكبّ مثل العمّال. كما أنَّ وحيد لا يحبّ الغلط، وغلط جدًّا أن يدع زوجته تركب البكبّ مثل العمّال، وهذا هو السرّ في تساهل بوّاب الكيبوتس الذي أدخلهما بدون تدقيق لظنِّه أنَّ القادمين هما عامل الصيانة العربي وزوجته العاملة في قطف الخضار. أدخلهما البوّابة بسرعة وهو يحدج وحيد بنظرات غاضبة مستاءة وقال بتأفّف

واستعجال إنّ جفيريت أهرون سألت عنه عدّة مرات، فلماذا التباطؤ والتأخير؟! جفيريت أهرون؟ من هي هذه؟ لم يسأله وحيد وظلّ صامتا خوفًا من أن يفوه بكلمة تفسد مسعاه وتكشف هويّته الحقيقيَّة. لكنّه مشى خلف البوّاب بخطوات واسعة عصبيَّة وزوجته تهرول وراءه بالكعب العالي والمنديل ودستة مباريم وأساور من الذهب الحرّ تملأ الأسماع برنين لطيف جعلت البوّاب يلتفت للخلف عدّة مرّات، ولا يعلّق، بل جعلت رأسه يهتزّ كمن انتشى بنغم آسر.

أدخله البوّاب مطعمًا ضخمًا وطلب منه أن ينتظر جفيريت أهرون. فوقف في الباب ورأى العشرات يأكلون على طاولات خشبيَّة بدون شراشف ومن صحون معدنيَّة كصحون العمّال، ويشربون الماء من أكواب ألمنيوم ذات مماسك. كانت أشكالهم مثل العمّال إلاّ أن بينهم نساء بشعور مقصوصة وبدون زواق وبالكاد تبيّن فيهنّ جنس النساء. فوقف واجمًا لا يعرف إلى من يتّجه ومن يسأل عن جفيريت أهرون.

اقترب منه رجل مسنّ بشعر أشيب ووجه لطيف يحمل صينيَّة طعام وسأله بعربيَّة واضحة ولدغة بالرّاء عمّا إذا كان باستطاعته مساعدته. هزّ رأسه واجمًا وهو ما زال يتأمّل أجواء الكيبوتس إذ إنَّه لم يتوقَّع أن يرى اليهود بهذا الشكل. ألم يقل الشيخ إنَّهم جاؤوا لبلدنا حتى يكونوا الأسياد ونحن العمّال؟ لكنَّهم لا يبدون كالأسياد، بل هم أنفسهم كالعمّال. يأكلون على خشب ويغرفون الأكل بالمعدن ويشربون بالألمنيوم، ويلبسون الكاكي والمبهدل. أهؤلاء هم الأسياد؟!

سأله المسنّ عمّا إذا كان قد تناول طعام الغداء فهزّ رأسه واجمًا ونظر إلى صينيَّة الرجل وكان فيها لحم وخضار وحبّة برتقال وكوب

المنيوم. وصدمت أنفه رائحة الأكل، إذ بدت له زنخة وتسدّ النفس «قال مهمهماً: شكراً، أكلت. قال له المسنّ إنَّ جفيريت أهرون ستجيء بعد الغداء. فسأل بحيرة: جفيريت أهرون؟ قال المسنّ برطنة ظريفة: عشان المواسير والبلاّعات. ظلّ صامتاً على أمل أن ينتهز الفرصة فيسأل الرجل عن جفيريت شالوم دون أن يثير الفضول أو الشبهة فمشى خلفه، ومشت رشا. حينذاك التفتت عيون، كل العيون، تتأمَّل المرأة المختبئة بالمنديل وتطقطق بالكعب العالي وينبعث منها رنين لطيف وهسهسة حميمة للجورجيت الذي يموج ويتدفَّق تحت جاكيت أسود يتعدَّى الخصر. كانت ما زالت تغطِّي وجهها خوفاً من أن يراها الناس مثل العمّال، لكنَّها الآن خائفة وترتجف برعب من جوّ اليهود. فهذا الجوّ غريب كئيب فيه رجال مثل النسوان وفيه نساء مثل الرجال والكلّ يحدِّق بتساؤل، فلفت نظرها خشب الطاولات والألمنيوم ورائحة الطعام التي بدت لها زنخة وغريبة وتسدّ النفس.

جلس المسنّ إلى طاولة فارغة وجلس وحيد أمامه وبجانبه رشا أمام الشباك. كان الشبّاك يطلّ على ساحة رمليّة وخلفها شجر الليمون، وكان يحمل بغزارة ويلمع في الشمس بلون ذهبي ساحر. همست رشا بدهشة وإعجاب: شوف الليمون. نظر وحيد وتساءل عن سرّ حمل الليمون في عزّ الصيف لأنَّ الوقت ليس وقته؟ فأجاب المسنّ بأنَّ الشجر عندهم يحمل على طول، صيفاً شتاءً وبكلّ الأوقات.

تذكَّر وحيد ما سمعه من الناس أنَّ اليهود يجعلون الشجر يحمل على طول، بلا توقّف. البعض فسّر الأمر أنَّه استغلال واستنزاف للتربة ـ كعادة اليهود ـ والبعض الآخر فسّره بأنَّ اليهود جاؤوا بعلوم وفنون

الغرب وسبقونا بالزراعة والكهرباء والميكانيكا. لكنَّ وحيد لم يصدِّق أنَّ هناك من يتفوَّق عليه بالميكانيكا لأنَّه عمل بالبوابير طوال حياته، كما لم يصدِّق أنَّ اليهود سبقونا بالزراعة لأنَّنا أبناء الأرض وفلاّحون أبا عن جدّ. لكنَّه ظلّ ينظر حوله بفضول ويتحيَّن الفرصة ليتساءل عن جفيريت شالوم. في تلك الأثناء لمح تراكتوراً أصفر اللون يضاهي الليمون بريقًا ونضارة، فسأل بفضول عمّا إذا كان ذاك ما يسمّونه تراكتور؟ ابتسم المسنّ وسأله عمّا إذا كان عندهم ـ أي العرب ـ تراكتور مثله؟ هزّ وحيد رأسه نفيًا وسأل بفضول عمّا إذا كان التراكتور يدور بموتور مثل الباص والسيّارة؟

هزّ المسنّ رأسه وهو يأكل ومدّ يده بالبرتقالة وقال: تفضَّل. همست رشا لزوجها تحت المنديل: يهودي وكريم؟! سمعها المسنّ فابتسم وادّعى أنَّه لم يسمعها. لكنَّ التعليق حفزه لأن يثبّت للعرب أنَّه فعلاً كريم، مثل العرب، وربّما أكرم، فقال لوحيد وهو ينهض: يا اللَّه تفضّل. سأله وحيد بتوجُّس إلى أين يأخذه وما هو قصده فقال مبتسماً: تشوف الموتور.

نهض وحيد ومشى خلف المسنّ ورشا تدقّ الأرض بكعبيها والصوت اللطيف يشنّف الأسماع ويلفت الأنظار، فتطلّعت العيون، كأوّل مرّة، وآخرون لم يتطلَّعوا لأنَّهم مشغولون بالقهوة ونفث الغلايين.

حين وصلوا التراكتور سأل وحيد المسنّ عن نوع شغله فطبّل الآخر على مقدّمة التراكتور باعتزاز وقال بمرح: هذا شغلي. ابتسم وحيد لأنَّ شغل الرجل يشبه شغله. فاتح الرجل بما يدور في رأسه فهزّ

الآخر رأسه نفيًا وقال إنَّه ليس عاملاً بل هو أستاذ. فتح وحيد عينيه بحيرة وسأله عن نوع أستذته ففسّر له أنَّه يعلِّم الميكانيكا في التخنيون لأنّه ليس عاملاً بل هو أستاذ. همست رشا غير مصدِّقة الادِّعاء: يعني الميكانيكا لها أثتاذ؟ نهرها وحيد بغيظ دون أن يعرف سبب غيظه، لكنَّه بدأ يفسِّر للرجل باعتزاز شديد كيف أنَّه عمل بالميكانيكا طوال حياته لأنَّ أباه عمل فيها من قبله، وكيف كان يفكّ البوابير ويركّبها مثل الساعة، وأنَّه بالميكانيكا طالع لأبيه.

ابتسم المسنّ وربَّت كتفه وقال: برافو. وبدأ يحكي هو الآخر كيف أنَّ أباه كان يعمل بالميكانيكا ويلبس أفرهول شبيهًا بأفرهول وحيد. أسرع وحيد ليوضِّح له بخجل واستياء أنَّه ليس عاملاً بل موظّف، موظّف كبير في شركة كبيرة للاستيراد.

رمقه الرجل بأدب بالغ وربت كتفه ثانية، وبدأ يشرح بلهجة استاذيَّة أنَّ العامل ليس عيبًا لأنَّ العمّال هم أصل الحضارة والتقدُّم. وحين رأى وحيد يحدِّق محاولاً استيعاب ما يقوله عن العمّال والحضارة والتقدُّم وعمله كأستاذ في التخنيون أردف مؤكِّدًا أنَّ العامل كويّس، كويّس كتير. تدخَّلت رشا وقالت بأنفة واستياء إنَّ وحيد ليس عاملاً بل موظّف كبير في شركة أبيها المحترمة. نهرها وحيد ثانية وقال بغلظة:

ـ اسكتي يا رشا.

وأمرها أن ترفع المنديل عن وجهها لأنَّ الرجل ليس منّا فهو يهودي، وهو أيضًا مسنّ. ثم التفت إلى المسنّ يسأله بشكّ كيف أنّه استاذ في التخنيون ويسوق تراكتور مثل العمّال؟! ابتسم المسنّ ابتسامة

واسعة وقال شارحًا إنَّه في الكيبوتس يسوق التراكتور ويقصّ الزرع ويزرع الورد وفي التخنيون يعلِّم الكهرباء والميكانيكا. هذا التفسير زاد وحيد غيظًا فرفع صوته:

- وكمان الكهربا لها أستاذ؟!

وأضاف بلهجة متشكِّكة ساخرة:

- أوعى تقول لي إنَّ الليمون عنده أستاذ؟

قهقه المسنّ وقال بلهجته الأستاذيَّة المتسامحة إنَّ الليمون عنده أستاذ، وإنَّ العنب عنده أستاذ والموز واللوز وحتى الفجل عنده أستاذ. صفقت رشا يديها غير مصدِّقة كلّ ذاك الكلام، وصاحت باستخفاف: اللّه أكبر! فنهرها وحيد للمرة الثالثة:

- اسكتي يا رشا!

هدّأه الأستاذ:

- معلش، معلش.

وحين التفت إليها، وكانت قد زاحت المنديل، رأى وجها جميلاً كالبدر فقال بإعجاب:

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

- توفا، توفا (جميلة، جميلة).

فقالت بانزعاج:

- أنا مش توفا، أنا اثمي رشا.

نهرها وحيد للمرّة الرابعة:

ـ اسكتي يا رشا.

هذه المرّة هي من نهرته:

ـ مالك اليوم!

للمرة الثانية تدخّل الأستاذ مهدِّئًا:

ـ معلش، معلش.

وشدّ بذراع وحيد وهو يسأله لينسيه الموضوع عمّا إذا كان يرغب برؤية الموتور؟ هزّ وحيد رأسه وقد تعكَّر مزاجه من تدخُّل رشا وبدأ يحسّ بالندم لأنَّه أحضرها معه، ونسي أنَّها هي التي أحضرته.

فتح الأستاذ غطاء الموتور وأخذ يشرح:

ـ هذا الموتور وهذا الرادييتر وهذا الزيت...

قاطعه وحيد بأنفة وكبرياء:

ـ عارف، عارف.

تأمَّله الأستاذ مبتسمًا وسأله عمَّا إذا كان يرغب في رؤية الزرع الذي يتولَّى رعايته أستاذ زراعة متخصّص؟ كشّر وحيد لاعتقاده أنَّ الرجل يسخر منه ولم يجب. لكنّ رشا قالت بحماس مبالغ فيه حتى تثبِّت لوحيد أنَّها لن تسكت مهما نهرها، وأيضًا لتثبِّت للأستاذ أنَّه فشّار ومدّعٍ ويسرح بهما فقالت بسرعة:

ـ خلِّينا نشوف فجل الأثتاذ.

التفت الأستاذ وهمس للمرة الأخيرة:

ـ توفا، توفا.

فصاحت في أذنه كأنَّه أطرش على اعتبار أنَّ كلّ المسنّين يشكُّون قلّة السمع مثل أبيها:

ـ أنا مش توفا، أنا أثمي رشا.

* * *

ركبوا التراكتور. وحيد يسوق والأستاذ المسنّ إلى جانبه ورشا قبعت في الخلفية. كان الجوّ جميلاً والسماء زرقاء ملساء مثل الساتان، والزرع يملأ الأنظار بخضرة نضرة، ورائحة الأرض تملأ الفضاء بعبير لطيف.

بدأ وحيد يهدأ وينسجم مع الموقف، فصوت الأستاذ مريح ولهجته ناعمة رقيقة، وأيضًا حميمة إلى حدّ ما. قصَّ عليه كيف فقد زوجته بعد مجيئه لأرض فلسطين، وكيف يشتاق لأولاده الذين رفضوا مرافقته حين جاء مع زوجته لتحقيق الحلم بإقامة دولة اشتراكيَّة لأنَّ أولاده لا يؤمنون بالاشتراكيَّة، وها هو هنا في كيبوتس عخشاف بلا زوجة وبلا أولاد.

ظلّ وحيد مركِّزًا على السواقة والنظر إلى المزروعات ليرى الفارق بين زرع اليهود وزرع العرب. ورأى زرع اليهود أطول وأنضر ويحمل أكثر. يعني التفّاح يحمل أكثر، وكذا الإجّاص والخوخ والعنب، لكنَّ الزيتون على حاله كما كان منذ القدم، منذ عهد المسيح. فعلّق مستغربًا كيف أنّ كلّ المزروعات قد تحسَّنت إلا الزيتون، وربّما كان ذلك لأنَّ الزيتون كبير في السنّ.

قال الأستاذ إنَّ الزيتون ليس كبيراً في السنّ لأنَّهم زرعوه يوم تاسيس الكيبوتس من ١٠ سنين. داس وحيد الفرامل فجأة وصاح متعجِّبًا:

ـ هذا الزيتون من ١٠ سنين، هذا يمكن من عمر المسيح!

أصرّ الأستاذ أنَّهم زرعوه يوم تأسيس الكيبوتس، من ١٠ سنين.

سأله وحيد حانقًا:

ـ أنت زرعته؟

هزّ الأستاذ رأسه نفيًا وهو يفسِّر أنَّ رجال ونساء الكيبوتس زرعوه قبل مجيئه، من ١٠ سنين. سأله وحيد بسخرية وغضب واضحين:

ـ قالوا زرعوه من ١٠ سنين؟

أكَّد الأستاذ:

ـ قالوا زرعوه من ١٠ سنين.

تذكَّر وحيد ما سمعه من الناس كيف أنَّ اليهود يزعمون أنَّ فلسطين كانت صحراء بلا زرع ولا ناس ولا حتى كلاب، وأنَّهم هم من زرعوها وبنوا فيها وجاؤوا بالناس والقطط والكلاب فقال حانقًا:

ـ قالوا زرعوه وتصدّقهم؟

قال الأستاذ بامتعاض خفيف:

ـ طبعًا يا خبيبي أصدّقهم.

التفت إليه ليرى مدى صدقه فرآه كما رآه أوّل مرّة: بني آدم مسنّ، وجهه لطيف، صوته مريح، رجل حسّاس ومتواضع، وهو أستاذ،

يعني فهمان، يعني عاقل، يعني ذكيّ ومتعلّم. لكنّه رغم ذلك لا يرى أنّ هذا الزيتون كبير في السنّ، من عمر المسيح أو قبل المسيح. ألا يرى جذوع الأشجار كم هي ضخمة! ألا يرى الأغصان كم هي عالية وغليظة! ألا يرى الجذور كيف تبرز فوق سطح الأرض دون أن تؤذي الأشجار وتقلقلها! لكنّ الرجل يصدّق ما قيل رغم فهمه، ورغم علمه، ورغم خبرته وأستذته، فلماذا يا ترى يصدّق ما قيل؟

قال بلهجة متأنّية حاول أن يقلّد فيها لهجة الأستاذ الواثقة اللطيفة:

ـ عندكم أستاذ للمزروعات؟

هزّ الرجل رأسه دون أن يلتفت إليه، فقال وحيد محاولاً أن يبدو منطقيًّا ويتكلّم بلغة العقل:

ـ وهذا الأستاذ ما فسّر لك أنّ عمر الزيتون أكثر بكثير من ١٠ سنين؟

بدا على وجه الأستاذ الضيق، لأنّ الموضوع تجاوز الحدّ ولأنّ العربي الظريف بدأ يصبح مشاكساً فقال مهدّئًا:

ـ ليش إنت بزعل يا خبيبي!؟

ولمس كتفه بمودّة ونظر في عينيه مباشرة وابتسم له، فأحسّ وحيد بغضبه يتلاشى ونفسه تهدأ وقال حزنًا:

ـ أنا مش زعلان.

استعاد الأستاذ سيطرته على الموقف وقال ملاطفًا:

ـ ليش إنت بزعل يا خبيبي؟ إذا قلت الزيتون من ١٠ سنين إنت بزعل. وإذا أنا أقول أنت عامل أنت بزعل. وإذا مرتك قالت كلمة صغيرة أنت بزعل. ليش أنت بزعل يا خبيبي؟

لم يجبه وأخذ يفكِّر أنَّه أخطأ خطأ جسيمًا بمجيئه، إذ لا يمكن أن تكون جفيريت شالوم أو أيّة جفيريت في كيبوتس عخشاف تختلف كثيراً عن الأستاذ.

رآه الأستاذ ساهمًا عابسًا فقال مهدِّئًا:

ـ مش لازم بزعل يا خبيبي. أنت شابّ صغير ومرتك توفا، لازم مبسوط، مبسوط كتير.

لم يجبه فواصل الأستاذ متأمِّلاً بحسّ فلسفي مرهف:

ـ لازم مبسوط، مبسوط كتير. هذي الدنيا دنيا صغيرة والكلّ يموت. الناس يموت والزرع يموت وأنا وأنت وحتى الزيتون، مش كلّه يموت؟ لازم مبسوط، مبسوط كتير.

همست رشا باستطارة وهي تسمع كلمة الموت تتردِّد عدَّة مرّات: بعيد الشرّ! بينما ظلّ وحيد صامتًا عابسًا لا يتجاوب. ألحّ الأستاذ:

ـ ليش أنت بزعل يا خبيبي!

همهم وحيد وقد بدأ يملّ دور التلميذ وذاك الأستاذ:

ـ طيِّب، طيِّب، خلص فهمنا.

قال الأستاذ:

ـ أنت لازم مبسوط، مبسوط كتير، مش لازم بزعل يا خبيبي.

رفع وحيد صوته بضيق وملل:

ـ طيِّب، طيِّب، خلص فهمنا.

قال الأستاذ بعناد رجل كبير مسنّ:

ـ مش لازم بزعل يا خبيبي.

أوقف وحيد التراكتور بهزّة قويَّة وقال لزوجته وهو ينزل:

ـ يا اللّه يا مرة.

ومشى خطوات وهو يهمهم:

ـ قال ١٠ سنين!

سمعه الأستاذ فزجره محذِّرًا بإصبعه وهو مكانه:

ـ أنت لازم مبسوط، مبسوط كتير. مش لازم بزعل يا خبيبي؟

استدار وحيد وقد فقد توازنه وأعصابه:

ـ يا سيِّدي زعلان ولاّ مفلوق، مالك ومالي؟ وأوعى تقول لي من ١٠ سنين.

قال الأستاذ وهو ينتقل بمقعدته إلى كرسيّ القيادة ويهزّ أصبعه زاجراً:

ـ من ١٠ سنين.

قال البوّاب إنَّ جفيريت شالوم تعمل في مدرسة الأطفال، وإنَّ عليه أن يتبع ممرّ الدفلى حتى يصلها. فمشى مطرقًا يفكّر بما قاله الأستاذ ويتلفَّت حوله ليرى كيف يعيش اليهود، وكيف يتعاملون مع الزرع والطبيعة. فبدت له الأشياء وكأنَّها ليست منّا، غريبة عنّا، كأنَّها بلد آخر. هو لا يعرف كيف تبدو بلاد الآخرين لأنَّه لم يخرج من بلده ولم يزر أيّ مكان أبعد من القدس. إلاّ أنَّه سمع من الناس أنَّ بلاد الإنجليز وبلاد الألمان أنظف وأنظم، ذلك لأنَّ الحكومات أنظف وأنظم، ولأنَّ الناس أنظف وأنظم. فهل اليهود أنظف وأنظم؟

قال له الشيخ إنَّ اليهود ليسوا نوعًا واحدًا، بل عدّة أنواع. يهود الشرق مثلنا في كلّ شيء لأنَّهم كانوا منّا، يأكلون مثلنا ويلبسون مثلنا ويحافظون على طهارة نسائهم مثلنا. أمّا يهود الغرب فهم مثل الغرب بلا أخلاق ولا ديانة ولا شهامة ونساؤهم كالعاهرات بلا عفّة، ولحمهنّ رخيص. وحين فكَّر وتذكَّر رأى أنَّ أقوال الشيخ مطابقة للواقع لأنَّ بنات شالوم يسرن في الشارع شبه عاريات ويتصرَّفن كما لو كنَّ أنصاف رجال. وتذكّر الكراتيه بشيء من الإعجاب والشماتة، فقد نال رشاد ما يستحقّه، لكنَّه غطس فيما بعد باللحم حتى أذنيه، فماذا دفع مقابل

ذلك؟ هل دفع القليل أم دفع الكثير؟ وأمّ البنات، جفيريت شالوم، هل هي مثل الشرق أم مثل الغرب؟ وأحسّ بالتخوُّف من ذاك اللقاء. فماذا لو كانت مثل الغرب؟ وإذا كانت، فبأيَّة لغة يخاطبها؟ وماذا لو كانت عصبيَّة مثل ابنتها ذات الكراتيه؟ وعاد يفكِّر أنَّ فكرة مجيئهما لهذا اللقاء سخيفة جدًّا، بل غبيَّة، كصاحبتها. فلماذا استمع إليها ووافقها؟

سألته رشا بتهيُّب إن كان بعد غاضبًا من الأستاذ، فهمهم باستياء أنَّه ليس كذلك. حاولت التسرية عنه واسترضاءه بأن قالت إنَّ الأستاذ كذّاب كبير إذ ليس معقولاً أن يكون الفجل عنده أستاذ؟

نظر إليها بطرف عينه واحتار في أمرها للمرّة الألف، إذ إنَّ ما لصق في عقلها ولفت نظرها هو فجل الأستاذ فقط لا غير. ألم تفكِّر بعمر الزيتون؟ ألم تفهم ما لعمر الزيتون من معنى؟ طبعًا لم تفهم. لماذا؟ لأنَّها غبيَّة وهبلة. وتذكَّر تعليقاتها الأخيرة وتدخّلها أثناء حديثه مع الأستاذ بكثير من القلق والتذمُّر. فماذا لو تدخَّلت أثناء الحديث مع جفيريت شالوم؟ جفيريت شالوم مسؤولة عن المدرسة، وهذا يعني أنَّها متعلِّمة وذكيَّة. فإذا تدخّلت رشا ستضيع معها وتضيّعنا. إذن لا بدّ من أن تخرس ولا تفتح فمها بنصف كلمة.

التفت إليها وقال بجفاف إنَّه يريد منها خدمة صغيرة. توقَّفت عن العبث بأساورها وأنصتت باهتمام شديد لتعرف منه نوع الخدمة التي يطلبها وماذا يريد. فقال ببطء إنَّه سمع من الناس أنَّ جفيريت شالوم قويّة وصعبة، وأنّ عليهما قبل الدخول أن يتَّفقا على من يتكلَّم ومن يسمع حتى لا يغلطا ويختلط الكلام.

التفتت إليه حتى تعرف إذا كان يريد منها أن تتكلَّم وهو يسمع، أم أنَّه يريد أن يتكلَّم وهي تسمع لأنَّها ما عادت تعرف ماذا يريد! ما عادت تعرف ما يرضيه! ما عادت تعرف ما يزعجه! ما عادت تعرف لماذا اختلف وصار غريباً!

قالت بحذر إنَّها تترك الأمر له حتى يختار، فاقترح بجفاف أنَّ من الأفضل أن يظلّ أحدهما في الخارج والثاني يدخل ويفاوض. فسألته بقلق إن كان يريدها أن تدخل وهو ينتظر في الخارج؟ وحين لم يجبها أسرعت تقول حتى ترضيه: طيِّب، طيِّب. ادخل أنت.

وجلست على حوض الأزهار بانتظاره.

* * *

دخل المدرسة وسأل عن جفيريت شالوم. قالوا له إنَّها مع الأطفال خلف ذاك الزجاج. وبالفعل رآها من خلف الزجاج تجلس بين الأطفال حول مائدة دائريَّة في وسطها كعكة كبيرة وأطباق مليئة بالحلويات. كانت رؤوس الأطفال محاطة بأطواق الزهر الورقيَّة، بينما تُوِّجت إحداهنّ بإكليل من زهر حقيقي وورق الزيتون. ولفت نظره أنَّ معظم الأطفال بيض وشقر، عدا طفلة واحدة سمراء فقط. أما جفيريت شالوم، وكانت تجلس وظهرها له، فهي شقراء بشعر مقصوص وخطّه الشيب ومريول أبيض كالأطبّاء. مظهرها زاد من إحساسه بالقلق والتخوُّف لأنَّها بيضاء كالإنجليز وهو أسمر، وهي في مريول أبيض كالأطبّاء، وهو في أوفرهول كحلي تفوح منه رائحة الكاز، وهي شائبة ومسنّة في عمر أمّه أو أكبر. فما عساه أن يقول لامرأة في هذا العمر

وبأيّة لغة؟ وفكَّر أن يرجع من حيث أتى لولا وداد وخيال وداد ولولا ما قام به الأطفال. بدأوا ينشدون ويرفرفون بأيديهم مثل فوج حمام. أما الطفلة المتوّجة بإكليل الزيتون فوقفت فوق مقعدها وأخذت ترفرف وتغرّد مثل العصفور بفم من كرز وعينان كياقوت أزرق وسماء الصيف. ابتسم وتمايل رغماً عنه. امتلأ حناًنا وحنيناً ووجد نفسه يبتسم لها وقلبه ينساب ويخترق الزجاج فهمس بإحساس: طيور الجنّة، أحباب اللّه.

أطلّت سارة من خلف الدفلى، ورأت رشا على حافّة حوض الجيرانيوم تعبث بأساورها وتبدو ساهمة وحزينة. اقتربت منها وقالت لها بدهشة مرحة: أهلاً رشا. أنت عندنا في كيبوتس عخشاف!

رفعت رشا رأسها ورأت سارة أمامها بشكل لا أحلى ولا أروع. كانت ترتدي ثوبًا واسعًا بخصر ضيّق، مكشوف الصدر، مكشوف الظهر وبلا أكمام. لونه أصفر، وعليه زهرات ضخمة لعبّاد الشمس، واحدة على الصدر وأخرى على الذيل، وفراش يتطاير على الداير. ولفت نظرها أنَّ الزهرات والفراشات كانت من قماش مختلف ومثبتة بالخرز والتطريز. فقالت بإعجاب منذهل: اللّه ما أحلى فستانك، وشعرك وجزدانك والصندل! منين اشتريت هالفستان؟

ابتدأ الحديث بهذا الشكل واستمرّ لفترة طويلة عن اللبس والشعر والأحذية والأظافر، ومن أين هذا ومن أين ذاك، وسارة تستغرق بوصف الأشياء والأماكن وكيفية الوصول إلى المتاجر وأسماء الباعة والتجّار، ومن هو أحسن ومن هو أشطر ومن يستورد من أوروبا، وصالون الحلاقة الفلاني ثم الصاغة ومن أين هذه الأساور وخلّيني أشوف؟

بمرور الوقت نسيت رشا دوافعها وحوافزها والخوف على بيتها وبيت أخيها من هذه الفتاة اليهوديَّة، بل نسيت أصلاً أنَّها يهوديَّة لأنَّها تحكي العربيَّة مثل العرب، ولأنَّها سمراء شرقيَّة ولأنَّها لطيفة وظريفة وتقول أشياء تعجبها، وفي جعبتها أسرار الجمال والأناقة وحياة الانبساط وسهر الليل. كانت تحكي عن الشباب والخروج للمراقص بصورة طبيعيَّة بلا تكلُّف، كما لو كانوا إخوتها، لكنَّهم ليسوا كذلك. فهذا طويل وذاك قصير، هذا غني وذاك فقير، هذا غبي وذاك خطير. لكنَّ أطرفهم وأظرفهم هو رشاد بلا منازع. رشاد قحطان هو أكرم وأظرف الشباب جميعًا لأنَّه يحكي النكت بدون توقُّف، ويُضحك الجميع ويُسعدهم مع أنَّ المسكين بلا سعادة.

أبدت رشا تعجُّبها لأنَّها كانت تظنّ أنَّ أخاها يعيش حياته بالطول والعرض، ولا يهتمّ بأيَّة مشكلة مهما كانت. فقالت سارة إنَّه مسكين بلا سعادة لأنَّ ضميره غير مرتاح ويقول إنَّ وداد مسكينة وابنها مسكين. وافقتها رشا وقالت باقتضاب إنَّ الاثنين، بل الثلاثة، فعلاً مساكين. وافقتها سارة على طول الخطّ بدون تردُّد وهزّت رأسها عدّة هزّات وهي تردِّد: طبعًا مساكين.

رمقتها رشا بدهشة وإعجاب. فها هي الفتاة اليهوديَّة تشعر معنا وتحسّ بنا، ولديها قلب من ذهب وتحبّ الناس، فلماذا يقولون عن اليهود إنَّهم لا يحبّون أحدا غير اليهود؟!

قالت بفرح وكأنَّها وجدت كنزاً:

ـ اللَّه عليك يا سارة ما أطيب قلبك!

جلست سارة إلى جانبها وغرقت الاثنتان في حديث طويل مليء بالقصص والعواطف، وعبارات مليئة بالتأمُّل الفلسفي مثل «غريبة الدنيا!» و«الناس للناس»! و«اللَّه أكبر من كلّ الناس». وفهمت رشا من ذلك كلّه أنَّ سارة لن تتعدَّى على زواج أخيها وتخرب بيته وتحرم الطفل من والده، ووداد المسكينة من زوجها. فما كان منها إلاّ أن نزعت إِسوارة من أساورها وألبستها لسارة كدليل على العرفان والصداقة وبداية عهد جديد من التفاهم والانسجام لأنَّه ـ كما قالت سارة بإيمان شديد: الناس للناس واللَّه أكبر من كلّ الناس.

حين طال انتظاره، قرَّر أن يدقّ الباب ويلفت نظر جفيريت شالوم إلى وجوده. ففتحت له الباب وواجهته بنظرة مستطلعة مندهشة. عرّفها بنفسه وقال لها إنَّ لديه موضوعًا هامًّا يتعلَّق بعائلتها وزوجها إسحق شالوم. لم تعلِّق، ولم تقل أيَّة كلمة، بل ظلَّت تتأمَّله بنظرة زجاجيَّة باردة. لم تقل «ادخل» أو «تفضَّل» أو حتى «انتظرني في الخارج»، بل أشارت له بيدها كي يجلس على كرسي بجوار الباب.

جلس حائرًا وهو لا يعرف إن كانت قد فهمت عليه أم لم تفهم. لكنَّها، بعد أن عادت إلى مقعدها بين الأطفال حول مائدة عيد الميلاد التفتت إليه وسألته بالعربيَّة إن كان يعمل في شركة إسحق شالوم؟ حينذاك التفتت إليه عيون الصغار تتفحّصه وتتمحّصه، كما لو كان مخلوقًا غريبًا أو مسخًا. رأى الطفلة ذات إكليل الزيتون تحدِّق فيه بنظرة جامدة غريبة، فابتسم لها لكنَّها لم تبتسم له واستدارت بوجهها وقد ارتسم على وجهها جمود وبرود.

لم تكن الطفلة وحدها التي واجهته بذاك التفحُّص والجمود، بل كلّ الأطفال، وحتى هي، جفيريت شالوم، كانت قد كست وجهها

بطبقة من الكلس المتحجّر جعلته يخشاها وينفر منها. فهي بالإضافة إلى أنَّها غريبة بعيون زرقاء زجاجيَّة، وفي عمر يناهز عمر أمّه، وفي لباس أبيض كلباس الأطبّاء، فقسمات وجهها كانت تعزله وتقصيه وتقيم حاجزاً زجاجيًّا أشدّ سماكة من الحاجز الزجاجي الذي جلس خلفه قبل دخوله. فتساءل عمّا إذا كان السبب في تجهّمها هو ذكر اسم زوجها إسحق شالوم الذي كان يعلم أنَّها منفصلة عنه ولا تكنّ له أيّة مودّة. ولأنَّه تأكّد من ذلك بسرعة غريبة لام نفسه لاستخدامه ذاك الاسم، وتمنَّى لو ذكر سبباً آخر كمبرّر لزيارته وتطفّله. لكنَّه سمع طفلاً يقول همساً لرفيقه: «هازي عرافيم». فارتعشت أجفان الصغير وحدَّق في وجهه بنظرة سريعة، وحين رأى وحيد يتطلّع إليه غضّ بنظره واستدار بوجهه لجهة أخرى.

قسموا الكعكة وبدأوا يتناولون الحلويات. وأخذ يستعدّ بداخله لما سيقوله لجفيريت شالوم حين تعرض عليه قسمًا من الكعكة والحلويات. أيقول لها إنَّه تغدّى كما قال لأستاذ الميكانيكا، أم يقول لها إنَّه غير جائع أم يأخذ القطعة ويشكرها؟ لكنَّها لم تعرض عليه قسماً من الكعكة ولا قطعة من الحلويات. فاستدار بوجهه جهة الشبّاك وأحسّ بإحراج بالغ وخجل شديد، لأنَّ الموقف كان غريبًا وجديداً عليه. كانت تلك هي المرّة الأولى في حياته التي يدخل فيها على أناس يأكلون ولا يقولون له: «تفضّل معنا». لكنَّ هؤلاء ليسوا مضيفين ولا هو ضيف. هو لا أكثر من دخيل متطفّل، وهم دخلاء. ألم يقل له الشيخ هذا حين زاره؟ ألم يقل له: كانوا منّا وصاروا علينا؟ هذا طبعًا عن يهود الشرق، أمّا الغربيون فهم غرباء في كلّ شيء بما في ذلك

طبائعهم، يعني الكرم، يعني المرأة، والبخل الشديد والتديُّن. فلماذا توقّع أن تعرض عليه قطعة من الكعك؟!

مرّت لحظات نسي خلالها ارتباكه كما نسيته جفيريت شالوم. وأخذ يراقب الأطفال وهم يأكلون ويتبادلون الألعاب وقطع الحلوى، ويملأون المكان بالضحك واللعب ونفخ الزمامير فأحسّ بداخله يتحرَّك. وجد نفسه يبتسم بسخرية من شكوكه ويهمس بحنان وحنيّة: الأطفال طيور الجنّة، الأطفال أحباب اللّه.

* * *

تركته في المكتب وغابت عنه. نظر حوله ورأى أنَّه في مكان عجيب، سقف معقود بإكليل عريض ونوافذ ممتدّة تصل حتى السقف، في نهايتها زجاج معشّق بعدّة ألوان وزخرفة عربيَّة منقوشة تلتفّ كحزام مبروم حول الجدران. هذا السقف مثل سقف غرفته في نابلس. وهذا الحزام مثل الحزام المبروم حول صالون الضيوف. وهذا الزجاج مثل زجاج جامع الخضر وجامع عمر. فلماذا أبقوه على حاله؟ هل يعجبهم؟ هل ينفعهم؟ شيء غريب!

كل شيء رآه كان غريبًا، بناء المطعم، أدوات الأكل، أدوات الزراعة والتراكتور، نساء الكيبوتس بملابسهنّ وشعورهنَّ، وكذا الأطفال وألعابهم، ثم المرأة، جفيريت شالوم بشعرها المقصوص كرجل مسنّ، ثم ملامحها الزجاجيَّة، كل ذاك عجيب غريب إلاّ هذا، هذا البناء، فلماذا أبقوه على حاله؟ وربّما، بل أكيد، لو سأل أستاذ الميكانيكا لقال له ما قال هناك: من ١٠ سنين. وأصابه إحساس بالندم لأنَّه جاء الكيبوتس لإنقاذ أخته، إنقاذ أخته من كيبوتس!

وقف وقد حزم أمره وإذا برشا تدخل فجأة مع سارة وتصطدم به، وجهًا لوجه، وهي تضحك. قالت له وهي في قمّة الانشراح والسعادة إنَّها اكتشفت أنَّ هذه البنت ـ يعني سارة ـ قلبها طيِّب وأنَّها أفضل من عرفت من البنات لأنَّها تشفق على أخته وابن أخته، وأنَّها تقول عن أخته إنَّها مظلومة وابنها مظلوم.

كان واقفًا فجلس في أقرب مقعد. نظر إليهما بشكّ وذهول، كانتا تبتسمان وتتبادلان النظرات، وكأنَّ بينهما أسرارًا حميمة وصداقة. وها هي إسوارة زوجته تلمع في ذراع سارة وتبدو أكثر انسجامًا وأناقة. كانت قد رفعتها لما فوق الكوع فبدت كإسوارة ممثّلة في فيلم أجنبي عن روما. شيء غريب! أمن المعقول أن تكون سارة قد قبلت الرشوة وتخلَّت عن رشاد بكلّ بساطة!

رأته رشا يحدِّق بالإسوارة، فقالت بسرعة كي تطمئنه إنَّها وسارة تفاهمتا على كلّ شيء، وإنَّها وسارة باتتا مثل الأخوات. وصفت له كيف ظلَّت تحكي معها مذ تركها عند حوض الزهور، وكيف اتّفقتا على مشاريع مغرية ولطيفة. ستنزلان معًا للسوق لشراء بعض الحاجات لأنَّ سارة دلّتها على أماكن رخيصة جدًّا وبشكل لا يخطر على البال. مثلاً، هذا الفستان بعشرة جنيهات، وهذا الجزدان بثلاثة جنيهات، وهذا الصندل بجنيه واحد فقط لا غير. هل تصدِّق؟ وطلبت من سارة أن تقف لتريه الفستان كم هو جميل وأنيق وغير مكلف. فوقفت سارة واستدارت كي تريه الفستان وهو ما زال مأخوذًا مشدوهًا لا يتحرَّك. فها هي زوجته الغبيّة تقوم بما عجز هو عن تحقيقه. ها هي تعيد الأمور

إلى نصابها بعكسه هو الذي كان قد بدأ ييأس، وقرَّر مغادرة الكيبوتس دون تحقيق أهدافه. وهذا يثبِّت أنَّ زوجته أشطر بكثير ممّا تصوَّر، بل أشطر منه، ويثبت أنَّها مصيبة وهو مخطئ.

ابتسم وهو يفكِّر بردود فعل رشاد حين يكتشف أنَّ سارة تخلَّت عنه مقابل إسوارة ذهبيَّة، وهمس بشيء من التشفّي والشماتة:

ـ مسكين يا رشاد!

سمعته سارة فعقّبت على الفور:

ـ طبعًا مسكين.

ثم أضافت أنَّها منذ زمن بعيد وهي تقول إنَّ رشاد مسكين جدًّا، فعلاً مسكين.

أحسّ وحيد من نبرتها أنَّها متعاطفة مع رشاد بطريقة مغايرة لما أوحي إليه، وأنَّها تحسّ بأسف حقيقي وبعض الحزن. فهل هي حزينة عليه أم على فقدانه؟ رمى إليها بالطُّعم ليتأكَّد وقال مداوراً: رشاد مظلوم. هزّت الفتاة رأسها وقالت بحماس:

ـ طبعاً مظلوم، مظلوم جدًّا.

رأته يحملق بعينيه مستطلعًا فقالت كي توضح فكرتها إنَّ رشاد مظلوم، مظلوم جدًّا، وإنَّها منذ زمن بعيد وهي تنصحه بترك الشركة والهرب من تسلُّط أبيه، لكنَّ رشاد لا يسمع، وإنَّها لو كانت مكانه لتركت الدنيا وما فيها، وأثبتت لأبيها وللعالم أنَّها حرّة، وأنَّها بالفعل فعلت ذلك حتى تعيش حياتها كما يحلو لها لا كما يريد أبوها.

الكون، فهل من المعقول أن يقبل أيّ أحد ذكي أو عاقل أن يكون تحت رحمة أبيه أو أمّه في هذه السنّ؟ وأنهت مقولاتها بأن أكَّدت على وجوب تحرُّر رشاد من ظلم أبيه، وأنَّ عليه أن يعيش حياته كما يحلو له لا كما يحلو لأبيه وعائلته. وتوجَّهت لوحيد بسؤال أخير:

ـ لو كنت مكانه شو بتعمل؟

كان يحدِّق في وجه الفتاة وقد انفتح فمه وتلاحقت أنفاسه، فما تقوله يثبِّت أنَّ زوجته أغبى بكثير ممّا تصوّر. قالت «تفاهمنا على كل شيء»، وهي في حقيقة الأمر لم تتفاهم إلا على الفستان والجزدان والصندل. خسرت إسوارتها بدون مقابل، وها هي تنظر إليه نظرة خائفة مرعوبة. خائفة منه. لم لا تخاف؟ الآن اكتشفت أنَّها لم تفهم ولن تفهم. الآن اكتشفت وانكشفت، بل إنَّها انكشفت منذ زمن بعيد، مذ اكتشف أنَّها بلهاء. لكنَّه الآن يزداد اكتشافاً ومرارة. فها هي الفتاة تقول أشياء تهزّ بدنه، تجعله يحسّ أنَّه ضعيف وتكشف ضعفه، فما ينطبق على رشاد ينطبق عليه. هو مثل رشاد، فكيف لم يخطر بباله قبل اليوم أنَّه كرشاد ورشاد مثله؟! كيف لم يتنبّه لهذه الحقيقة حتى الآن؟ كان يظنّ أنَّ رشاد هو الظالم وها هو يكتشف أنَّ رشاد مظلوم، وهو مثله.

وتأمَّل زوجته وهي تحدِّق برعب وذهول، فأحسّ بإشفاق مضاعف لأنَّها مظلومة هي الأخرى. هي لا أكثر من طفلة ضعيفة ولا شيء لديها تقاوم به. لم يمنحها اللّه عقلاً تفكِّر به، ولم يمنحها أبوها تربية تعوّضها عمّا بخلت به الطبيعة. وهذه هي النتيجة. لا تعرف

كيف تتصرَّف. لا تفهم الدنيا وحركات الناس، وانخدعت بكلام ومظاهر. خدعتها البنت. ضحكت عليها وسلبتها. أخذت الإسوارة مقابل لا شيء، فكيف يستردّ الإسوارة بدون فضائح؟

عادت جفيريت شالوم إلى المكتب وهي تحمل رزمة كتب. وقفت في الباب وقد فوجئت بوجود ابنتها مع امرأة عربيَّة غريبة. تمعَّنت في شكل ابنتها وأهملت وجود العربيَّة. وقالت وهي تزمّ شفتيها وقد بدا وجهها أكثر جمودًا وبياضًا:

- هذا الفستان في كيبوتس عخشاف؟!

لم تجب البنت، بل هزّت كتفيها بصفاقة. عادت الأم تستنطقها وقد تجاهلت وجود العربيين تمامًا:

- هذا الفستان في كيبوتس عخشاف؟!

وتأمَّلت الإسوارة في ذراع ابنتها الشبيهة بأساور المرأة العربيَّة وقالت بقرف:

- وهذي الإسوارة في كيبوتس عخشاف!

قالت رشا باندفاع يائس:

- إسوارتي أنا.

رشقتها الأمّ بنظرة سريعة ثم تجاهلتها كليًّا، وعادت تقول وهي تتأمَّل ابنتها من فوق لتحت وقد احمرّت:

- إسوارة ذهب في كيبوتس عخشاف؟

هزّت البنت كتفيها وقالت بتبرّم وعدم اهتمام:

ـ بكره أبيعها.

صاحت رشا:

ـ كيف تبيعينها؟ إسوارتي!

نهرها وحيد:

ـ اسكتي يا رشا.

صاحت بغضب:

ـ إسوارتي أنا، كيف تبيعها؟!

فعاد يردِّد بخجل وارتباك:

ـ طيِّب. خلص. اسكتي يا رشا.

بدأت تبكي مثل الأطفال:

ـ إسوارتي أنا، إسوارتي أنا.

أحسّ بإشفاق لا يوصف. انتقل إحساسها بالخديعة إليه هو ولم يعرف كيف يتصرَّف، لكنَّه لملم نفسه ومدّ يده نحو زوجته وقال بعطف:

ـ يا اللّه يا رشا، إنسي الموضوع.

وخرج مهزوماً مهموماً من كيبوتس عخشاف.

شيخ الجليل

أصرّ أمين على مرافقة أخيه لزيارة شيخ الجليل. كان قد سمع الكثير عنه، مّما أثار تخوّفه وفضوله. فبالإضافة إلى قدرة الشيخ على استيعاب أخيه وإقناعه بمفاهيم أكبر من قدرة رجل شبه أمّي على التفكير فيها والدخول من أجلها في متاهات خطرة، فقد تمكّن من التأثير على مئات الفلاّحين وأصحاب السوابق، وجعل منهم مناضلين أشدّاء على استعداد للتضحية بكلّ ما يملكون، لدرجة أنّ البعض باع كلّ ما لديه من متاع ـ بما في ذلك مصاغ زوجته وعنزته وخاتم أمّه ـ ليشتري سلاحًا قديمًا يقاتل به جيش أقوى دولة على وجه الأرض. وحين حذّر أمين أخاه من مغبّة الانسياق وراء أحلام الشيخ ووعوده ردّ الآخر بغلظة لم يعهدها فيه: لكم دينكم ولي دين. وهذا ما دفع أمين إلى الإصرار على مرافقة أخيه ليتعرّف على من تسبّب بكلّ ذاك التغيير في حياة أخيه.

حين دخلا الجامع فوجئ أمين بهيئة لم يتوقّعها. كان الشيخ في الستّينات، بلحية شائبة وعباءة قديمة فوق قنباز حائل. ما كان طويلاً ولا عريضًا كما كان يظنّ، ولا كانت ملامحه كملامح الزعماء والقادة،

ولا كانت عيناه تلمعان ببريق فذّ. كان قد سمع ما أثار خياله وتوقُّعاته وإذا به أمام رجل عادي بلا رهبة.

أدخلهما الشيخ داره. كانت عبارة عن غرفتين ومنافعهما. الغرفة التي دخلاها كانت عارية إلاّ من بساط قديم وسرير حديدي من مخلَّفات الجيش التركي، وفي الزاوية قوس فراش تغطّيه ستارة مهترئة تخفي كمًّا هائلاً من الحشيّات والوسائد، وعلى الأرض بُسط وحُصر ومساند.

بدأ يعيد عليهما ما كان يعظ به العمّال والفلاّحين في مدرسة الجامع، فقاطعه أمين قائلاً إنَّه لا يتَّفق مع منهجه في تحفيز البسطاء على الثورة. واستأنف بقلق وتوتّر:

ـ أنت تحرِّض البسطاء وتدفعهم إلى الانتحار. ماذا لديهم؟ سلاح عتيق لا يصلح لصيد العصافير، ووضع دولي متحيِّز، وجوّ عربي ممزّق لا يعبأ بهم؟ يا سيِّدنا الشيخ أنت تجازف، من يرعاكم؟ حتى في القدس لا أحد يهتمّ أو يحسّ بكم؟ ماذا تفعلون وأنتم قلّة؟ لماذا التضحية بلا طائل؟ لماذا الموت بلا مقابل؟ وأخي هذا لماذا تورّطه؟

امتعض وحيد، لكنَّ الشيخ هدّأه وتولّى الدفاع. قال بهدوء:

ـ في القدس زعماء نيام سنصحّيهم، وأصحاب نفوذ ومصالح سنواجههم، فماذا فعلوا في المؤتمرات؟ ولجان التحقيق المنتدبة وخداع الإنجليز ونواياهم في إقامة وطن بديل ليهود الغرب على أنقاض أمّتنا وعروبتنا، ماذا فعلوا مقابل ذلك؟ يفاوضون؟ يفاوضون من؟

الصليبيين؟ ألا يعرفون أنَّ قلب الصليبي الحاقد لم يتغيَّر. بالنسبة لهم كما لليهود نحن الكفرة، نحن الأغيار، دمنا حلال، غزونا حلال، أرضنا حلال وأرزاقنا، وتجريدنا من كل غالٍ ومقدّس. هم واليهود جاؤوا إلينا بهذا المفهوم، فهل نرضخ أم نشحذ قوانا ونقاوم؟ وكيف نقاوم؟ بالمظاهرات؟ بالمؤتمرات؟ بالعرائض؟ أنا لا أرى إلاَّ السلاح طريقًا ينفعنا. جرّبنا كل التجارب. حاربنا معهم للخلاص من تركيا فماذا نلنا؟ كذبوا علينا وخدعونا وأهانونا، وقسَّموا بلادنا كذبيحة، فعدنا قبائل. رحمة اللّه على تركيا، على الأقل كنَّا أمّة وكان الإسلام منارتنا. أضأنا العالم ثم خبونا فانتشر الظلم. فماذا نفعل الآن وقد ضعنا؟ نركع؟ ننخّ؟ نسكت على الظلم؟ نخرس ونشلّ ولا نقول كلمة الحقّ في وجه الضلال والمستعمر؟

وارتفع صوته وتهدّج فأحسّ أمين بالغرفة تتزلزل:

ـ اسمع يا بني، بلدنا تضيع من أيدينا. باعوا فلسطين وباعونا. وها هم ينتزعون أراضينا قطعة قطعة. اتّفاق مكتوب بين اليهود وبين السلطة. الانتداب يسنّ القوانين ويشرّعها، وتكون النتيجة إفقار الناس ونزوح القرويين عن أراضيهم. ألوف الفلاّحين لجأوا لحيفا لإيجاد عمل فضاعوا فيها. بدأوا بتهجير القرى والفلاّحين، وغداً يصلون إلى حيفا ويافا وعكا وكلّ فلسطين. زعماء القدس يظنُّون أنَّ الدور لن يصلهم لأنَّهم لا يفكِّرون إلاّ بالكسب ومصالحهم. قل لي من باع وادي الحوارث وأراضي العفّولة وقصص وطبعون وشطا والزبيدات وجبل

كنعان؟ قل لي من باع مرج ابن عامر[1]؟ قل لي من تاجر مع اليهود وشاركهم؟ لا تستدر بوجهك عنّي، أنا لم أقصد شركة خالك، خالك واحد من طبقتهم. والغريب في الأمر، كلّ الأحزاب نبعت منهم. يسمّون الأحزاب قوميّة فأين الإسلام؟ زمن الإسلام كنّا وحدة، من الأناضول حتى السودان حتى اليمن حتى المغرب. بزمن الإنجليز عدنا قبائل. فلو استرجعنا منارتنا وتمسّكنا بعرى الإسلام لعدنا أمّة وتفوّقنا. هو الإسلام ناصرنا ومخلّصنا. فلنتمسّك بعرى الإسلام.

سأله أمين وهو يلهث:

ـ يعني الإسلام سيخلّصنا؟

أجاب بثقة:

ـ طبعًا يا بنيّ، فإيمان الناس يوحّدهم ويقوّيهم.

التفت إلى أخيه ليعرف رأيه، لكنَّ الآخر ظلّ صامتًا يتطلّع إلى الشيخ بثقة وانبهار. فبادره الشيخ:

ـ لا تنظر إليه فهو منّا.

وحين رآه صامتًا لا يتجاوب ابتسم وقال:

---

١ ـ انظر يوميات كلّ من: أكرم زعيتر، محمد عزّت دروزة، خليل السكاكيني، فيصل الحوراني وغيرهم، شاعر المرحلة الكبير إبراهيم طوقان عبّر عن الحالة بقوله:

أمّا سماسرةُ البلاد فعصبةٌ ... عارٌ على أهل البلاد بقاؤها
يتنعّمون مُكرَّمين كأنّما ... لنعيمهم عمَّ البلادَ شقاؤها
هم أهلُ نجدتها وإن أنكرتَهم ... وهُمُ ـ وأنفُكَ راغمٌ ـ زعماؤها

ـ وأنت منّا. أخوك منّا وأنت منّا. نحن بحاجة لشابّ مثلك، شابّ خلوق ومتعلّم.

استدار أمين بوجهه مفكّرًا بقلق فصاح الشيخ:

ـ اصحَ يا رجل. الوطن يضيع. رأيت بعينيك ما حلّ بالقرى والفلاّحين. إن نحن سكتنا على الهجرة سيحلّ بنا ما حلّ بهم. هل تفهمني؟ هل تسمعني؟ هذا ما ستقوله للمفتي في أول مهمّة تقوم بها.

قال مندهشًا وقد فوجئ:

ـ أنا أقول للمفتي؟ أنا؟ من أنا؟

قال بجديّة وحماسة:

ـ وتقول أيضًا للأحزاب.

نظر إليه حتى يفهمه أنّه غير مؤهّل، فصاح به بصوت كالرعد:

ـ اجمد يا رجل. أنت مثلهم وأكبر منهم. أنت ابن ناس ومتعلّم. أنت بالذات أحسن منهم. أخوك هذا أنت مثله، بإذن اللّه أنت مثله. اذهب يا بنيّ، ابذل جهدك. قل للمفتي وقل للزعماء إنّ العرائض والمؤتمرات لن تنفعنا. نهج السلاح هو الأصلح.

قال بجمود وتلعثم:

ـ دعني أفكّر.

وغادر المكان وقلبه يخفق.

استيقظ صبحًا ولم يجد أحدًا في الدار. ولم تدم وحدته طويلاً إذ جاء شابّ طويل نحيف متجهِّم الوجه فظّ الملامح، وقال إنَّه مبعوث من قبل الشيخ ليأخذه للفطور قبل رحيله. وحين خرجا ورأى الشارع في ضوء النهار لاحظ المباني المهلهلة وأكشاك الصفيح حيث يقطن مهجّرو القرى التي أحيلت إلى مستعمرات يهوديَّة. كما رأى العمّال العاطلين يتسكَّعون على الرصيف أو يتحلَّقون تحت الشجر بخمول كئيب.

جلسا إلى طاولة أمام دكّان الفوّال وطلبا صحني حمّص وكوبي شاي. وفيما هما يتناولان الفطور حدّثه الشابّ عن علاقته بالشيخ، وكيف غيّر مجرى حياته. قال إنَّه وُلد في أسرة فقيرة لأمّ تعاني كثرة الأطفال وهجران الزوج، فانحرف عن الطريق السويّ منذ صغره ولزم الشارع. بدأ بأعمال السرقة الصغيرة كانتشال محفظة أو سرقة الثياب عن حبال الغسيل، إلى أن التقطه رجل عصابات معروف درَّبه على أعمال السطو وألحقه بعصابته فبات من قطّاع الطرق.

في البداية كان قليل الحيلة والدراية ثم تمرّس. خلال سنتين أصبح من الأشقياء المعروفين وبات الناس يلقّبونه بالزيبق لقدرته الفائقة

على التخفّي والانسلال من المواقع بسرعة البرق وانسياب الزئبق. وحين قبض رجال الشرطة على زعيم العصابة أخذ مكانه وبدأ يقوم وعصابته بأعمال اتّسمت بالجرأة والقدرة على ابتداع الحيل الماكرة ودقّة التخطيط.

زادت شهرته وذاع صيته، فاستغلّ خوف الناس منه ومن عصابته وفرض إتاوات على المخاتير وتجّار المدن، واتّخذ من عيون الحرامية بين رام اللّه ونابلس مقرًّا له ومسرحًا لعملياته. كان ورجاله يسرحون في القرى الجبليَّة نهارًا وينزلون في غارات فجائيّة ليلاً، يقطعون الطرق على السيّارات، يشلّحون الركّاب أمتعتهم وأموالهم فأعلنت السلطات عن مكافأة مجزية لكلّ من يتصدّى للزيبق أو يأتي بأخبار عنه. بالمقابل، أعلن هو عن تحدّيه للسلطات بأن قطع الطريق على قوّة عسكريَّة قام بتشليح ضبّاطها الإنجليز وعساكرهم أموالهم وأسلحتهم وفجّر شاحناتهم وجعلهم يعودون إلى نابلس بملابسهم الداخليَّة سيرًا على الأقدام، ممّا جعل الناس يغفرون للعصابة ذنوبها ويعتبرون عملها نوعًا من المقاومة والجهاد ضدّ الانتداب. ولعبت مخيِّلة الناس دورًا هامًّا فانتشرت قصص مختلقة تجلَّت فيها عبقرية الزيبق وجرأته وقدرته على تحدّي الإنجليز ومقاومتهم. وكان وزملاؤه يسمعون تلك القصص ويستلهمون منها مادّة قابلة للتطبيق حتى امتلأت أحاديث الناس بمآثرهم. ثم سمعوا أنَّ شيخ الجليل ذكرهم بالخير وامتدحهم ولقّبهم بالأبطال والمجاهدين. استثارت تعليقات الشيخ فضولهم ودهشتهم فجاؤوا متخفِّين واندسّوا بين المصلِّين ليتعرَّفوا على الشيخ ويستمعوا لمواعظه وأفكاره. وكانت تلك هي البداية، إذ تغلغلت كلمات الشيخ

في وجدانهم وجعلتهم يقتربون من الشيخ ويكشفون له عن هويّتهم. رحّب الشيخ بهم واحتواهم وغيّر أسلوب حياتهم. وها هو ورفاقه مواطنون صالحون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويهبون حياتهم للدفاع عن حقوق الناس وممتلكاتهم ويتصدّون للإنجليز ومستعمرات اليهود.

حين لم يجد في ملامح أمين ما يدلّ على الانبهار، قال بحماسة شديدة إنَّ لديهم تنظيمًا يمتدّ من حيفا حتى نابلس، ولو استطاعوا الوصول إلى القدس لشكّلوا جبهة عريضة تعجز عن دحرها قوّات الإنجليز وجيش اليهود.

ابتسم أمين لمعرفته ما يرمي إليه الرجل، فصاح الآخر مؤكّدًا أنَّ لدى اليهود جيشًا مدرّبًا أحسن تدريب وضبّاطًا تدرَّبوا في أوروبا، وجهاز مخابرات وسلاحًا حديثًا، وأنَّ عليهم الاستعداد لمواجهتهم وقد بدأوا. صاروا قوّة. خيرة الرجال صاروا معهم.

ابتسم أمين ثانية فقال الآخر معترفًا أنَّ تنظيمهم يضمّ اللصوص والمشرَّدين أمثاله، وهذا ما لا يخجلون منه، لأنّهم أصبحوا شرفاء وأتقياء بفضل الثورة والإيمان. وحين رأى أمين ما زال يبتسم بشكّ لفت نظره إلى بيوت الصفيح وقال صارخا، وهو يحملق كالمجنون، إنَّ أعشاش الدجاج أحسن من تلك البيوت، فهي في الصيف نار، وفي الشتاء وحلٌّ ودلفٌ ومزاريب. وأتبع ذلك بقوله إنّه لا يرى حلاًّ للفقر إلاّ الجهاد أو السرقة. إمّا أن يصبح الفقير شقيًّا وقاطع طرق أو أن يصبح مجاهدًا في سبيل اللّه وسبيل الوطن. أمّا أن يبقى الفقير على فقره، فهذا برأيه نذالة وجبن وهبل. وأنهى قوله صائحًا:

ـ اذهب للقدس وقل هذا: إمّا الجهاد أو السرقة.

ـ ماذا تقصد؟

ـ لا تتغابَ. أنت تفهم ماذا أقصد. لدينا رجال ولديهم المال. نحن بحاجة لتلك الأموال.

سأل بدهشة واستنكار:

ـ يعني أهدِّدهم بالسرقة؟

ابتسم لأوّل مرّة وتجعّد أنفه، وبانت أنيابه فبدا قبيحًا مثيرا للذعر. فقال أمين متمتماً باكتئاب:

ـ هذه إذن تعاليم الشيخ!

صاح وهو يلوِّح بيده:

ـ وما شأن الشيخ؟ الشيخ يعدهم بالجنّة، وأنا أعدهم بأرض فلسطين. اذهب للقدس وقلْ للزعماء ما سمعته. قلْ: الجهاد أو جهنّم.

كان منقسمًا بين طرفين، وأضحى الآن بين ثلاثة. ثم اكتشف طرفًا رابعًا لم يخطر له. ابن صاحب سكن الطلاّب، وهو شابّ صموت ومثقّف، ولا يراه إلاّ والكتب تحت إبطه، جاء ليقول لهم إنَّ المفتي وكلّ الزعماء يدعون لاجتماع خطير، وإنَّه وأباه وزملاءه سيتوجَّهون بعد ظهر اليوم إلى البلدية للاطّلاع على بيان الأحزاب.

مشى التجّار في المقدمة، ومشى الطلاّب في الخلفيَّة. أمّا محمود فسار بعيداً عن أبيه والتجّار، وبعيداً عن الطلبة كذلك. وربّما كان اختلاف السنّ ونوع العمل هو ما جعله يبتعد عن الطلبة وعن التجّار مسافة خطوات. فتذكَّر أمين ما سمعه من البقّال وبعض الطلبة. قالوا بلشفيك، قالوا مسكوب، قالوا كافر، يعني بلا دين ولا أخلاق ولا وطنيَّة. قالوا البلشفيك لا يحترمون الكبار ويتمرَّدون على العيلة ويكرهون الأغنياء مهما كانوا، عربًا، يهوداً وفي أيّ مكان، وينقمون على السلطة. لكنَّ محمود ـ كما قالوا ـ شابّ خلوق ومتعلِّم، يقول الصدق، ويحترم الناس، ويعمل بصمت ضدّ الانتداب والحكومة. وقالوا أيضًا إنَّه سُجن مرّة وحُقِّق معه عدّة مرّات، وهذا ما جعل أباه غير راضٍ عنه ويتأفَّف من سلوكه.

وصلوا البلدية، وكانت القاعة تغصّ بالناس من كلّ الطبقات والاتّجاهات. كانت الغالبية من أصحاب المهن الصغيرة وحرف التقديس والسياحة. فهذا نجّار ينحت الصلبان وتماثيل العذراء وقبّة الحرم والقيامة، وذاك رسّام للأيقونات، وآخر بيّاع للكعك والبيض والفلافل، وعشرات المعلّمين والطلبة، وشيوخ وخوارنة وعمّال بناء. كلّهم جاؤوا لهدف واحد، وهو الدفاع عن أرزاق الناس وعروبة فلسطين. كانوا يرون البلد تهرب منهم، وأنّهم في سوق العمل لا يضاهون اليهود، وأنَّ الحكومة تعمل ضدّهم، وأنَّ الانتداب بات لعنة، وأنَّ على القادة أن يجيبوا على السؤال الصريح: ماذا نفعل؟

دخل التجّار واندسّوا بين الوجهاء في أوّل صفّ، وتوزَّع الطلبة بين عدّة صفوف. للصدفة، جاء مقعد أمين بجوار محمود ابن الجيران. تلفّت حوله ولم يجد أحداً يستأنس به فالتفت لمحمود وابتسم له فقال الآخر «أهلاً» وهو شارد الذهن متململ.

فجأة عمّ الهرج والمرج، وتململ الناس في مقاعدهم. اندفعت مجموعة من الرجال المسلّحين وشقّت طريقها بسرعة وجلبة بين الصفوف، يتوسَّطها عدد من الزعماء بالبذلات البيضاء والطرابيش وعصيّ الوجاهة. تذكَّر على الفور هيئة خاله، إلاّ أنَّ هؤلاء أرقى وأوجه لأنَّهم يتكلَّمون الفصحى بلا تلكّؤ ويتحدَّثون بالسياسة والشأن العامّ.

وقف الخطيب وقال للناس بلغة مقعّرة ذات زوايا تنعم بالسجع والتفاخر إنَّ العرب خير أمّة أُخرجت للناس، وإنَّ فلسطين هي أرض الأنبياء والمرسلين، منها عرج النبيّ على فرسه وانبثق النور من الجلجلة

حيث صُلب المسيح. وأطنب الرجل في تقريظ أرض السلام والمحبّة، وعدّد ما فيها من مآثر وتاريخ مجيد حتى تململ بعض الطلبة وقال أحدهم: طيِّب، وبعدين؟! فنهره رجل بصوت آمر: «اسكت، بلا صوت، خلِّينا نسمع».

أنهى الخطيب خطبته بأن أعلن عن بدء الاجتماع بآيٍ من الذكر الحكيم. تنحنح البعض وسعل آخرون، وتهامس شبّان وتطلّع الفضوليون حولهم ليعرفوا من حضر ومن لم يحضر. وسلَّم الوجهاء، بعضهم على بعضهم الآخر أثناء صعود الشيخ الضرير إلى المنصّة. لكنَّ الصمت حلّ فجأة مع بدء التجويد، فجوَّد الشيخ بصوت جيِّد فطرب البعض وقالوا «اللَّه!». وما كان الشيخ، ولا حتى الخطيب ذو السجع الفخيم بحاجة لكلّ ذاك الجهد لإقناع الناس، فقد كانوا مقتنعين فعلاً وأصلاً ولأبعد حدّ، لأنَّ الدماء سالت على الأرض ورأوا بأعينهم شنق الشهداء، ولأنَّ الانجليز ضربوهم من على الخيل بالكرابيج وطاردوهم ورموهم بالرصاص واعتقلوهم.

جوَّد الشيخ وزاد وأطنب فقال البعض له «أحسنت». فاسترسل ومال على الجانبين وهو يقلقل فعيل صبر بعض الطلبة وقالوا: وبعدين؟! فنهرهم الكبار وقالوا: إذا قرئ القرآن فاستمعوا. فاستمعوا للشيخ رغماً عنهم.

أخيراً انتهى الشيخ من تجويده وسحبوه عن المنصّة بين ثناء الوجهاء وبسملة الحضور. ثم صعد الخطيب ثانية وبدأ وصلة جديدة من الترحيب والتقريظ للزعماء لأنَّ أحدهم يمتدّ بجذره للحسن والحسين، وآخر يمتدّ إلى خالد، وآخر يمتدّ لإبراهيم الخليل. وأخيراً قال

إنَّ الانجليز يحابون اليهود ويهبونهم أرض المشاع ويوظِّفونهم في أرقى المناصب، ويشجّعون السماسرة على بيع الأرض ويسمحون لليهود بالهجرة وتهريب السلاح. فقال أحدهم: مفهوم، مفهوم! وقال آخر: طيِّب وبعدين؟

بدأ الناس يتململون في مقاعدهم لأنَّه مضى على الاجتماع أكثر من ساعة ولمّا يسمعوا من الوجهاء والقادة كلمة واضحة تقول لهم ماذا يفعلون؟

ثم وقف خطيب آخر وألقى قصيدة لعن فيها سماسرة الأرض وبائعيها، وحكم الإنجليز ومكر اليهود، وقال إنَّ الشهداء لهم الجنّة وإنَّ فلسطين تناديهم وجبال القدس تهيب بهم وظلال الأقصى والصخرة وأجراس القيامة تدقّ لهم، فليهبّوا للحرب وامتشاق السيوف وليدكُّوا الأرض ويزلزلوها تحت أقدام الأعداء ليعرفوا أنّا أمّة لا تسكت على ضيم وأنَّ اليهود أبناء رجس وشياطين.

دوّى التصفيق، ودمعت أعين، وقال الزعماء باتّزان مهيب «أحسنت، أحسنت». فصاح رجل وقد عيل صبره: اعطونا سلاح! وصاح آخرون: اعطونا سلاح.

وقف زعيم من الصفّ الأوّل ببذلته البيضاء وطربوشه، واستدار بجذعه للعامّة ومدّ ذراعيه يهدّئهم وقال: صبرًا يا شعب، صبرًا، صبرًا. ووقف آخر وسط القاعة بلا طربوش ولا بذلة وصفّق بيديه وقال: هش هش. فلم يفعلوا لأنَّهم كانوا قد فقدوا الصبر ويريدون جوابًا صريحًا عن سؤال بسيط: ماذا نفعل؟

أخيراً اتّفق قادة الأحزاب على أن يقف أحدهم ليقرأ البيان المتَّفق عليه، فأخذ يقرأ. وسمع الناس ككلّ مرّة أنَّ المطلوب هو الاستنكار وتوقيع العريضة وتوكيل فريق الزعماء للتوجُّه للحاكم الإنجليزي والطلب منه بأقسى لهجة أن يمنع السمسرة وبيوع الأرض[١].

صاح محمود ابن الجيران بدون سابق إنذار وسط وجوم الزعماء ودهشتهم:

ـ لماذا لا تبدأون بأنفسكم؟

التفت الناس إلى المصدر وساد صمت أعقبه هياج. هذا يقول: الحقّ معه، وآخر يقول: ابن أبو محمود، وثالث يقول: بلشفيك كافر.

وقف من قال لهم: هش، هش أوّل مرّة وأعاد القول: سَمَع يا ناس. فصمتوا لحظات ليستمعوا لأنَّهم كانوا بحاجة للمزيد ولم يشبعوا من بيان مُعاد وقول مُعاد وآيات ذكر وقصيدة. كانوا يريدون فعلاً حقيقيًّا يقنعهم أنَّ الأمور ستتحسَّن. لكنَّ الأمور لم تتحسَّن، على الأقلّ في ذاك الاجتماع، لأنَّ الخطيب صاح بمحمود ابن الجيران:

ـ أنتم البلشفيك مثل الحيّة من تحت التبن. تثيرون الفتنة بين الناس وتقسمون العرب إلى عربين. أنتم خونة.

---

١ ـ إبراهيم طوقان عبر عن ضمير الناس بقوله:

أنتم رجال خطابات مُنمَّقة ... كما علمنا وأبطال احتجاجات!
وقد شبعتم ظهوراً في مظاهرةٍ ... مشروعةٍ وسكرتم بالهتافات!
أضْحت فلسطين من غيظٍ تصيحُ بكُم ... خلّوا الطريقَ فلستم من رجالاتي

وقف أبو محمود من الصفّ الأوّل وهمّ بالخروج من القاعة، فشدّ الزعماء بقنبازه وقالوا: اقعد، ابنك مسكين، لعبوا بعقله. فقعد على مضض بانتظار أن يتراجع الخطيب عن أقواله، لكنَّه لم يتراجع إذ عاد إلى القول:

ـ أذناب المسكوب بلا إسلام ولا وطنيَّة. أذناب المسكوب بلا أخلاق. هم مثل اليهود، الواحد يتزوَّج أخته.

فوقف محمود ولوّح بأوراق في يده وصاح بحدّة:

ـ معي قائمة بالأسماء. قولوا للناس الحقيقة. قولوا الواقع.

صاح الخطيب:

ـ يشقّون الصفّ، هذي خيانة. البلشفيك لا دين لهم. الواحد يتزوّج أخته.

لوَّح محمود بقائمته، لكنَّ أحدهم كان أسرع. هجم واختطف القائمة ومزَّقها وطيَّر القصاصات فوق الرؤوس فعمّ اللغط واحتدّ الهياج. وانتقل غضب الناس من الإنجليز ومكر اليهود إلى البلشفيكي ابن أبو محمود، لأنَّ البلشفيك أقبح ذنبًا فهم بلا دين ولا وطنيَّة ويحلِّلون الزواج من الأخوات. استغفر البعض واحتدّ الخطيب وقال: ملعون، ملعون، هذا شيطان، ملعون، ملعون. فوقفت مجموعة من الرجال وسحبوا محمود من كتفيه ومن ظهره ودفعوه دفعًا نحو الباب وهم يصرخون: ملعون، ملعون.

وقف أبو محمود وهمّ بالخروج فامتدَّت بعض الأيدي لإيقافه. انتزع نفسه بالقوّة ومشى بسرعة ليلحق بابنه، وأقوال الخطيب تهيب به

أن يعود إلى الجمع لأنَّ التهمة لا تنطبق عليه، فهو رجل محترم وصاحب أخلاق ومتديِّن(١).

* * *

كان من الصعب على أبو محمود أن يتقبَّل ثورة ابنه. لكنَّ الأصعب والأقسى هو أن يقف ذاك الموقف، فهو مع ابنه ضدّ الناس، ومع الناس ضدّ ابنه. لكن، حين تصبح سمعة العيلة على المحكّ فيُتَّهم فرد منها بأنَّه خائن، فهذا يعتبر أكبر تنكيل بالحمولة. لديه بنات يخاف عليهنّ، ولديه عائلة طيِّبة الذكر، ولديه قبل وبعد كل شيء تجارة ناجحة في خان الزيت. فإذا توقَّف الناس عن الشراء منه وخطبة بناته والنظر إلى عائلته بشيء من الشكّ والتوجُّس فماذا يبقى؟ يبقى النبذ والفضيحة وبوار البنات.

جاء محمود وقال لأبيه إنَّ الاجتماع كان مهزلة، وإنَّ الزعماء يضلّلون الناس ويوهمونهم أنَّهم سيجدون الحلّ، مع أنَّ الحلّ بعيد عنهم لأنَّ فلانًا جاء بتوظيف من الحكومة، ولأنَّ المعارضة اخترعها الإنجليز، ولأنَّ القوميّين لا يفهمون أنَّ الدنيا ميزان قوى وأنَّهم خسروا الميزان بمعاداتهم الإنجليز والمسكوب، وأنَّ الألمان أسوأ من الاثنين لأنَّ الألمان مع تركيا ولأنَّ تركيا تكره العرب بعد أن تآمروا عليها مع الإنجليز ودحروها. وسأل والده محاولاً إقناعه بلغة العقل: إذن يا والدي من بقي لنا؟ قال أبو محمود بإيمان عميق: أمّة العرب والمسلمين. سأله محمود

١ ـ انظر «الأحزاب السياسيَّة ومسيرة الحركة الوطنيَّة» في **القيادات والمؤسّسات السياسيَّة في فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٤٨** لبيان الحوت.

باسماً: إذن يا أبي، لماذا حاربتم تركيا المسلمة؟ لم يجب الأب فعاد الابن يلحّ عليه: ووقفتم مع بريطانيا المسيحيَّة ضدّ الأتراك! هزّ الأب رأسه وقد بلبله القول وقال بأسف: كانت غلطة. سأله ساخراً: يعني استعمار تركيا كان نعمة؟ ردّ الأب بحسرة ونقمة: على الأقل كنّا بلا يهود. علّق همساً: بعض اليهود أحسن منّا. سمعه أبوه فصاح مهدِّداً: إيَّاك أن تقول مثل هذا الكلام. أتبرَّأ منك. أنشرها بكلّ الجرائد. أحرمك الميراث واسم العيلة. إحنا ناقصنا؟ سوّدت وجهي قدّام الناس، يسوّد وجهك. غور من وجهي.

فغار محمود من وجه أبيه وصعد إلى السطح ليتنفَّس، وهناك التقى بجمع الطلبة، وكانت سهرة امتدَّت حتى الصباح(١).

---

١ ـ انظر «الفصل ٣» **من الوطن في الذاكرة** لفيصل حوراني.

عالم ضيِّق

عادت وداد لدار العيلة. نصحتها ليزا بالعودة لأنَّها خافت من اقتراب موعد ولادتها، كما أنَّ البقاء في غرفتها لن يحلّ المشكلة أو يجد الحلّ. قالت لها: ماذا تريدين؟ تريدين الطلاق؟ تريدين حياة جديدة؟ تريدين شروطًا لرجوعك؟ ماذا تريدين؟ حين لم تجبها قالت بأسف: وماذا بعد؟ ماذا نفعل؟

ماذا نفعل؟ فعلاً وحقًّا هذا هو السؤال: ماذا تفعل؟ تعود إلى الزوج؟ هذا مستحيل. تعود إلى دار العيلة لتعيش مع الأمّ؟ أيضًا مستحيل. تظلّ عند ليزا مختبئة بين جدران الغرفة؟ أهذا هو الحلّ؟

في البداية، كانت تتوقَّع أن يكون هذا هو الحلّ، فليزا المنطلقة ستطلقها مثل حمامة في سماء القدس. هذا ما كانت تحلم به. وهذا ما كان في البداية. أخذتها ليزا إلى المظاهرة والجمعيات النسائيَّة، ودارت بها في شوارع القدس القديمة والحديثة، ودعتها إلى الغداء وأكل البوظة. وفي كلّ مرّة كانت تحكي لها عن حياة القدس وحياة العمل والحريّة. هنا أصدقاء وزملاء عمل، وهناك اجتماعات وحركة ونشاط وانطلاق جميل، فلا قيود ولا مشاكل ولا ذلّ الزوج وحساب الأهل والتزمّت. فخلعت منديلها واستبدلته بشال صغير وجاكيت قصير.

في جوّ القدس لا أحد يعرف من هي وما قصّتها. يرونها برفقة ليزا فيصافحونها ويبتسمون لها، ثم يلتفتون إلى ليزا ويواصلون حديث الأمس والسياسة وما يطرأ على الساحة من أحداث. هذا ما كان في البداية. لكن مع الوقت، عادت ليزا لبرامجها وصارت تغيب عن الدار حتى المغرب، وأحيانًا بعد ساعات من حلول الليل. وصارت هي تشعر بالملل ثم بالخجل ثم بالخوف. أخذت تراجع موقفها، فهذا الوضع لن يطلقها مثل حمامة في سماء القدس كما حلمت. هذا الوضع لن يتغيَّر ويغيّرها. إذن ما الحلّ؟

قالت ليزا: الحلّ لديك، اتّخذي القرار وضعي خطّة. ماذا تريدين؟ تريدين حياة جديدة؟ وماذا تفعلين بحياتك وحياة ابنك؟ أين تعيشين؟ ماذا تعملين؟ من يصرف عليك وعلى ابنك؟ أم تكونين عبئًا على إخوتك؟ لا بدّ أن تحدِّدي ماذا تريدين. قالت بحيرة وسذاجة: أريد أن أصبح مثلك. سألتها ليزا بدون ابتسام: طيِّب، عظيم، ولكن كيف؟ أنا تعلَّمت في الجامعة ثم سافرت إلى لندن ثم أميركا واعتدت العمل والحرّيّة. أنا لي أجوائي، لديّ وظيفة ولديَّ نشاط في الجمعية ولديَّ ارتباط سياسي. فلنكن واقعيّات ونبحث عن حلّ مناسب.

سألتها بحيرة وأمل غامض: وما هو الحلّ؟ قالت بحزم وجدّيّة: هذا بيدك، بيدك أنت لا بيدي. ماذا تريدين؟ تريدين الطلاق كخطوة أولى؟ وماذا بعد؟ بعد الطلاق ماذا تفعلين بحياتك وحياة ابنك؟ بإمكاني إلحاقك في الجمعيّة. لدينا برامج مهنيّة لتأهيل النساء، كوافير، سكرتاريا وخياطة. قالت بأنفة واستهجان: أنا خيّاطة؟ أنا كوافيرة أقصّ

الشعر؟ وسكرتيرة، أنا لا أجيد الطباعة. قالت ليزا بصبر نافد: تتعلّمين.

عقدت حاجبيها وتلوّت. كانت قد اعتادت حياة الكسل والبلادة. تجيئها الأشياء بلا مجهود. تجدها أمامها فتأخذ منها ما يحلو لها ثم تتصرّف باستعلاء كأن تقول: أنا لا أريد هذا وهذا. لا أريد الذهب والجواهر. لا أريد الحرير والمخمل. لقمة وزيتونة وحصيرة أفضل من كلّ هذا الذهب والجواهر وحياة الكذب. كذب بكذب. حياتي كذب، زواجي كذب، العزّ كذب، وحب الأهل كذب بكذب.

أخذت تتخيّل حلول ليزا المقترحة، فانزعجت وغضبت وأحسّت باكتئاب شديد، إذ إنّها لم تحلم قطّ أن تستبدل موقعها المريح بمهنة حقيرة كالخياطة وقصّ الشعر والطباعة. صحيح أنّ أمّها عاشت سنوات وهي تُخيط الملابس وربّتهم من عرق الخياطة ورقع القنابيز، وكانت هي تساعدها آنذاك، لكن بعد الزواج، وبعد أن عاشت بطرانة، باتت تحسّ أنّ الخياطة لم تخلق لبنات العزّ، بنات العيلة. هي تستعيض عن واقعها بواقع أسوأ؟ بمهنة حقيرة؟ تعود إلى الفقر والعمل والجهد مثل خدّامة من الشارع؟ صعب جداً. وحين تنظر في وجه ليزا لترى ردّة فعلها على موقفها ترى الأخرى تتأمّلها بصمت يائس، فتحسّ بحقد لا تفهمه وتكرهها.

ثم جاء أمين وأخذها لدار العيلة.

* * *

استقبلتها الأم بالدموع والعتاب ومزيج من الغضب والتخوّف. إذ ماذا بعد؟ ماذا تفعل هي بابنتها وماذا تفعل ابنتها الآن؟ هل تتطلّق؟

هذا أبعد من أيّ احتمال، إذ لا يمكن أن يطلّقها رشاد مهما فعلت. تحرد، تهرب، تتجرّع السمّ أو تحرق نفسها أمام عينيه، لن يتحرَّك. لن يطلّقها، لا حبًّا بها ولا كرمًا منه، بل لأنَّ الطلاق أبعد ما يكون عن التقليد. سمعة العيلة لن تسمح. قال أخوها في آخر لقاء: أولادنا يا أختي أولاد صغار، لا يعرفون مصلحتهم. أنا وأنت يا أمّ وحيد لن نسمح بالعيب ولن نرضى به. أترضين أن يقال بنتك طالق؟ أترضين أن يقال طعام بايت؟ صرمة قديمة؟ ممسحة استعملها ورماها؟ ستعود وداد مهما غابت. أين اختفت؟ أنا أشكّ بابنك أمين. هل سألت أمين؟

لم تجب عن السؤال حتى يظلّ على اعتقاده أنَّ ابنتها، زوجة ابنه، حردانة ومختبئة في بيت أمين. وهي أيضًا تشكّ، أو تتمنَّى، أن تكون ابنتها في بيت أمين. لكنَّها تعلم قبل كلّ الناس أنَّ أمين لا بيت له لأنَّه يعيش مع زملائه في دار مشتركة ككلّ الطلاب. لكنَّها ظلَّت على صمتها وقالت بعد حين وهي تنظر في فنجانه: ابشر يا حاجّ، بعد إشارتين أو ثلاث، بشارة كبيرة، طير محمّل بالرزق والخير، بقجة بيضا ومكتوب كبير مجلّل بالبياض، بياض ببياض. ابصم في القاع.

بصم وابتسم وهو يبسمل فابتسمت له بسمة غريبة، بسمة مندهشة ومبهورة. وهزّت رأسها عدّة هزّات وقالت بعجب: سبحان اللّه، نفس الإشارات في فنجاني، صدّق وآمن يا أبو رشاد أنَّ بشارتك مثل بشارتي وفنجانك بالضبط أخو فنجاني. طير محمّل وبقجة بيضا ومكتوب كبير وبياض ببياض. قل يا اللّه، وحّد اللّه.

قال بإيمان وسعادة: لا إله إلا اللّه محمّد رسول اللّه. وخرج من عندها منشرح البال.

جلست في الحضير ونظرت للسماء. سماء زرقاء صافية وأوراق الليمون والخشخاش تبرقشها فتبدو سوداء تحت الأزرق. رائحة الزهر تدير الرأس فتخدِّرها وتغيب عن الواقع لحظات ثم ترتدّ بارتطامه حين تحسّ بركلات الطفل. ما عادت تتمنَّى إسقاطه والخلاص منه كما كانت تفعل خلال أشهرها الأولى. بدأت تحسّ أنَّه موجود وله شكله وملامحه وعينان زرقاوان مثل جدّه. تتمنَّى له عينين زرقاوين أو خضراوين تتميَّزان عن كلّ الناس. معظم الناس بعيون سوداء أو عسليَّة، لكنَّه هو، أو ربما هي، كما حلمت قبل يومين، ستكون بعينين ملوَّنتين كَلُبّ الفستق.

رأتها في المنام مثل اللعبة، بيضاء شقراء بعينين خضراوين مفتّحتين مثل القطّة. ما كانت حديثة الولادة، بل كانت ابنة شهرين أو ثلاثة وربّما أكبر. كانت تضحك وتلوِّح بيديها البضّتين وأصابع بيضاء شفّافة مثل الحلقوم ولعابها يسيل من شفتيها، شفتان حمراوان بلون العنّاب، وشعرها يتلولب في حلقات. طفلة جميلة، أجمل بكثير ممّا تمنّت. وحين حملتها إلى صدرها وأحسّت بطراوة ملمسها ودفء

ورديّ على صدرها امتلأ قلبها بحب دافق، دافئ ، حسّاس، غمر كيانها حتى امتلأت. ما عادت تحسّ أنَّها فارغة في الداخل، ولا أنَّ الدنيا باردة والظلام كثيف، بل إنَّ العالم بدأ يضيء والعيش فيه ما عاد مملاًّ كئيبًا والناس قساة.

صارت تحسّ أنَّ في الكون من يحبّها وهي تحبّه، يحبّها هي من دون الناس، يتعلَّق بها. تتعلَّق بها، لا تتركها ولا لحظة. ستقول لها «ماما، أمّه». ستلحق بها أينما ذهبت. ستشدّ بذيلها حين تخرج، وتمسك بيدها حين تمشيان في عرض السوق، وتأخذها معها إِلى الحمّام، حمّام البلد حيث النسوان والبخار والضباب وصدى الأصوات والطاسات والصابون ورائحة التوابل والحنّاء وشراب الورد والليموناذة حول البركة، وزهر الليمون فوق سطح الماء، وكوى الزجاج تلمع في السقف فتضيء عيني طفلتها مثل زمرّد يلمع في الشمس فتبسمل النساء وتصلّي على النبيّ من هذا الجمال وتلك الخلقة. «صلُّوا على النبيّ»، تصيح امرأة، فتنهمر الصلوات من كل اتجاه، وتقول الحممجيَّة وهي تمسك بوعاء البخور: هاتي البنّوتة لأرقيها.

قالوا هربت. قالوا انخطفت. قالوا ضاعت. قالوا سقطت. وحتى تثبِّت الأم أنَّ ما قيل ليس صحيحًا قرَّرت أن تذهب بابنتها لحمّام البلد ـ مجمّع النسوان ومنبع الحكايات والفضائح ـ لتثبت لذوات اللسان أنَّ ابنتها موجودة ومستورة وفي أحسن حال، فلا هي ضائعة ولا مخطوفة، بل هي محترمة ومصونة لأنَّها حامل. فهل الحامل تدور في القدس مثل البطّالات بشعر أشقر؟ وداد ما زالت بضفائرها، بشعر أسود لم تصبغه ولم تكوه ولم تقصّه مثل النساء السافرات، بل احتفظت به طويلاً مجدولاً بضفائر. وحين تفرده في الحمّام كي تتغسَّل وتخلع ملابسها ويرون بطنها منفوخًا كالقربة سيخرسن ويخجلن ويطوين القصص. وإذا سألنها ستقول لهنَّ إنَّ ابنتها جاءت عندها لتولّدها، وهذا طبيعي، ألا تفعل كلّ النساء مثل ذلك؟ تذهب الحامل عند أمّها لتولّدها ثم تعود بالطفل إلى زوجها ودار حماها مثل كلّ النساء. هذا هو الحال، فمن لديها قصّة مختلفة فلتتفضّل وتطوِها لأنَّ الصحيح أنَّ ابنتها محترمة ومصونة وتغرق بالعزّ والذهب والألماس ودستة مباريم وسلسلة ذهب بنهاياتها «ما شاء اللّه».

وهكذا، حين دخلتا الحمّام، كانتا قد استعدّتا لذاك الموقف. ذهبٌ ومباريم وسلسلة ذهب وبقجة مليئة بالملابس كلّها مقصّبة وجديدة من مال الشام. ومال الشام فيه أشكال وألوان وفيه المقصّب والمذهّب والراحة والحلقوم والمشبَّك. في آخر زيارة لتجارة عاد منها الخال أحضر معه ما لذّ وطاب من حلويات شامية وسبع حقائب ملأها بالشراشف والملاحف والقرن المطرَّزة والقباقيب ذات الأجراس. وحتى يُرضي ابنة أخته، أيْ كنَّته، جاء لها بشنطة كبيرة من الوزن الثقيل مليئة بالمقصّب والمذهّب والفستق الحلبي والحلقوم، وطبعًا بقجة عليها آيات كريمة مشغولة بالقصب والذهب، وعبارات تفتح النفس للاستحمام مثل: حمّام الهنا، ويا سعده من دخل الحمّام.

سمير الصغير ذهب معهما كي يحمل البقجة ويستحمّ هو الآخر، مع النسوان، لأنّه ما زال ولداً صغيراً ولم يبلغ بعد، وصوته رفيع مثل النسوان. كان فخوراً بما حملت يداه، فمشى أمامهما يقفز قفزاً مثل العصفور، ويتلفَّت يمينًا وشمالاً ليرى تأثير حمولته على أهل السوق، وأمّه خلفه ببطء ملحوظ حتى لا تسبق ابنتها، ووداد تجرجر قدميها مثل النائمة بلا إرادة. كانت قد انصاعت لإرادة أمّها بعد فشلها ورجوعها من عند ليزا مكسورة الجناح والخاطر. وكان الحمل وانتظار الطفل ونظرات الأم المستاءة قد أعادوها إلى موقعها، مثل السابق، امرأة مقهورة مكسورة تمشي بذهول، بلا إرادة. لكنَّ التعليقات أيقظتها ولهاث الأمّ ودمدماتها خلف المنديل وهي تستغفر وتتشهّد ممّا سمعت. كانت قد سمعت كلامًا جعلها تهتزّ من الغضب والغيظ من ابنتها وعلى ابنتها. سمعت النجّار يقول للمنجّد: بنت القحطان قالوا

رجعت! فردّ الآخر بهتاف جبّار كأذان السحور: يا مثبت العقل والدين، استر يا رب. ولم ينته الأمر عند ذلك، إذ سمعهما أجير الفرّان فأخذ يغنّي: يا ريتني طير لاطير حواليك، مطرح ما تروح عيوني عليك.

دخلتا الحمّام فاستقبلتهما الحممجيَّة كالعادة. امرأة شمطاء بشعر مقسوم إلى نصفين، النصف العلوي أبيض كالليف، والنصف السفلي محنًّى بحنّة حمراء سعودية قيل إنَّها المفضّلة عند النبيّ فاعتمدتها. لكنَّ انشغالها بتحنية النساء وتكييسهنَّ وتحفيفهنّ وصناعة تحاميل البيض والزنجبيل لفروجهنَّ وتلاوة الرقيات وكتابة الحجب، كل ذلك جعلها تنسى شعرها وتنشغل بشعور الأخريات وأعضائهنّ وما تتطلَّبه تلك الأعضاء من نتف ودعك ومراهم.

استقبلتهما الحممجيَّة بالصلوات والدعوات وصلاة النبي على هذا البطن، وما شاء اللَّه والحامي يحماك ويحماها، وطوَّلت الغيبة يا أمّ وحيد اشتقنا لك، واسم اللَّه ابنك صار طولك، صار فرخ شابّ وهذي آخر مرّة ييجي معكن بين النسوان. اسم اللَّه ما شا اللَّه يخزي العين، وبر الشارب صار معلّم وبكرة يشوّك مثل القنفذ والوتد يشتدّ ويهدّ الحيط. وله يا عكروت جاي تتصبّب؟!

ابتسمت أمّ وحيد وهي تأخذ البقجة عن رأسه وتغمز له وتهمس بخبث: زيّ القنفذ؟ فطأطأ واحمرّ واختبأ خلف ظهر أخته يحتمي بها من عين الحممجيَّة ولسانها، ورفض أن يخلع ملابسه حتى لا يظهر ما يخجل منه، وجلس على المصطبة يتفرَّج على القبّة وكوّات الزجاج والزخارف وآيات القرآن المنقوشة على الأعمدة وزنّار السقف.

* * *

كانت الأمّ قد خلت خلوة في الحمام، أي حجزتها ودفعت أجرها طوال النهار. وهذا الأمر مكلف جدًّا إذا ما قيس بالاستحمام مع النساء في الصالة أو في الخلوات المشتركة. لكنّ الأم، وكانت تخطِّط أن تثبت للنساء ولكلّ البلد أنّ ابنتها تغرق بالعزّ، وأنّها مصونة ومحترمة، تعمّدت أن تقول للحممجيَّة بصوت عالٍ تسمعه كلّ من حضرت في قاعة الاستراحة إنّ إخلاء الخلوة ودفع الأجرة تمّ عن طريق ابنتها وزوج ابنتها، لأنّ زوج ابنتها لا يريد لزوجته أن تستحمّ في الصالة وتنتظر الدور لاستعمال الجرن. لكنّ الحممجيَّة همست لها وكأنّها تفشي سرًّا أو تقدِّم النصيحة لوجه اللّه أنّ الانزواء في الخلوة لن يجديها لأنّ النساء لن يروا عزّ ابنتها، وكانت تقصد ذهب ابنتها: لو كنت مكانك يا أمّ وحيد لخلّيتها تدور على النسوان تضيفهنّ من هذا الملبّس والحلقوم.

سمعت أمّ وحيد المشورة وادّعت أنّها لم تسمعها لأنّ الموافقة والتجاوب يعني الإقرار بما أبطن. وما أبطن في هذا النصح أنّ ابنتها مشبوهة ومتّهمة بين النساء، وأنّ عليها أن تردّ على الشبهة بما يؤكِّد براءتها أو تسترضي النساء برشوة صغيرة واستعطاف لطيف من خلال تقديم الملبّس وحلقوم الشام. كما أنّ النصح يعني أنّ الحممجيَّة قد سمعت، وربّما شاركت، بما يُقال عن ابنتها. ويعني أيضًا أنّ الحممجيّة تحاول أن تثبِّت لها أنّها معها ومع ابنتها ضدّ الأخريات وضدّ ما قيل أو يروّج عن هرب وداد وحرد وداد وشعر وداد.

قالت الحممجيّة، وهي ترمق وداد وتتفحّصها بكلّ وقاحة، وتتأمّل المباريم وسلسال الذهب والما شاء اللّه: ما شا اللّه عليك

وحواليك. إنشا اللَّه بقيامك سالمة تحلّينا ملبّس وكنافة وهذا الحلقوم. ومدَّت يدها وتناولت حبّة حلقوم ووضعتها في فمها بدون استئذان.

لكز سمير والدته وقال همسًا: يمّه الحلقوم! فنهرته أمّه: طيِّب اسكت. فسكت على مضض وعن غير اقتناع لأنَّه المسؤول عن إحضار كشكول الحلقوم والملبّس رغمًا عن استياء أمّه وتجاهل وداد، وعليه فهو يعتبر أنَّ الكشكول أصبح ملكه. أمّه قالت: هذا الكشكول لأختك وداد. سأل وداد إن كان باستطاعته أخذ الكشكول إلى الحمّام فقالت ببرود وعدم اهتمام: خذه مين سائل! وذلك تعبيرًا عن عدم اهتمامها، بل ضيقها بما أحضره خالها من هدايا الشام كي يرضيها. وأردفت بتنهُّد وهي تنظر إلى الكشكول بيأس وقرف: خذه اللَّه ياخذه وياخذني. فأخذه ودسَّه بين المناشف والطاسات وفلق الصابون. حين فكُّوا البقجة قصد أن يبرز الكشكول أمام الآخرين كي يتباهى ويأكل منه ويطعم الأولاد حتى ينال صداقتهم. لكنَّ الأولاد، ومعظمهم بنات، ظللن ملتصقات بأمّهاتهنّ ولم يلتفتن لسمير وأمّ سمير وأخت سمير. كنَّ قد سمعن من أمّهاتهنّ وشوشات منفّرة حول أمّ سمير وأخت سمير، فلم يقتربن من موقع سمير وأمّ سمير ولم ينتبهن لما في الكشكول من حلويات. وهذا ما عزَّز إحساس سمير بالعزلة ونفور الناس منه ومن أمّه ومن أخته وداد. عزلتهم كان سببها، كما فسَّرت أمّه وصدّقها، أنَّ الناس يغارون منهم ويحسدونهم على هذا العزّ الذي غرقوا فيه منذ زواج أخته وداد وأخيه وحيد.

قالت له عدّة مرَّات إنّ اللَّه كفاها شرّ الخياطة ورقع القنابيز لأنّ الخياطة هدّتها وقلّلت قيمتها بين الناس، وأنَّ الفضل في هذه النعم

وهذا النعيم الذي باتوا يغرقون فيه ويستمتعون بأفضاله هو لخاله. فلولا خاله وغنى خاله وكرم خاله هل كانوا يلبسون كما يلبسون الآن؟ هل كانوا يأكلون كما يأكلون الآن؟ هل كانوا يبيّضون الدار ويدهنون الحديد ويبلّطون الحضير ببلاط جديد ويستبدلون ستائر الشاش بستائر ساتان وأورجنزا لولا خاله؟ هل كان يحظى بحذاء جديد وبنطلون جديد وقميص جديد وحقيبة جلديَّة من الحميديَّة بدل القديمة لولا خاله؟ «خالك يا سمير أكرمنا وزاد قيمتنا أوعى تنسى». فوعدها بألاّ ينسى، وصار يقبِّل يد خاله ويرفعها إلى جبينه عدّة مرّات حين قدومه، فيرضى عليه ويبشّ له ويمدّ يده إلى جيبه ويعطيه شلنًا كاملاً كي يشتري به ما يحلو له. فينزل إلى السوق ويشتري قضامة وشوكلاتة ويتباهى أمام الأولاد.

لكنَّ الأولاد صاروا يغارون منه. صاروا يغارون ويسخرون منه ومن حذائه ومن بنطلونه ويدّعون أنَّه دلّوع وشايف حاله. «قالوا يمّه شايف حالي» قال لأمّه. «قالوا دلّوع، خرقة مرقة». فهزّت أمّه رأسها عدّة هزّات كي تفهمه أنَّها تفهم وكي تعزِّز مقولاتها حول الغيرة والحسد والكيد عند الناس.

فهم الموضوع واقتنع به لكنَّه لم يفهم لماذا هربت وداد للقدس. لماذا تبكي وداد دومًا خلف الياسمينة وشجر الخشخاش وتشهق وتنوح؟ لماذا تنهره وداد بعنف ثم تحضنه وتعتذر له وهي تبكي حين يسألها عمّا بها؟ أحيانًا تقول: راسي مصدّع. أحيانًا تقول: ممغوصة. وأحيانًا تقول: مالك ومالي، حلّ عن ديني. فيذهب إلى أمّه ويشكو لها ويقول

وداد قالت لي كذا وكذا. فتقول الأمّ: مالك ومالها. ابعد عنها. فيقول بخوف: أنا خايف عليها يا أمّي. فتقول له وهي تطبخ أو وهي تحمّمه: ما تخاف عليها ولا تحزن. بكره تعقل. تعقل على شو؟ تعقل من شو؟ ولماذا تعقل من وجعها، من وجع الرأس أو وجع البطن أو الإثنين. وهل دواء وداد في أن تعقل أم في الدكتور؟ لماذا لا تذهب إلى الدكتور؟ لماذا لا يحضرون لها الدكتور؟ ولماذا تقول «اللّه ياخذني وياخذهم»، كلّما سألها إن كان باستطاعته أن يأخذ كذا أو يأخذ مذا؟ لماذا تتنازل عن الأشياء بسهولة؟ قبقاب الشام وحلقوم الشام ومسبحة صغيرة من الفضة ومصحف صغير مصدف قالت له خذه وخذها. يسألها بحذر: أشوف القبقاب؟ فتقول بقرف: شوفه وخذه اللّه ياخذهم. أشوف المسبحة؟ شوفها وخذها اللّه ياخذني وياخذهم. أشوف المصحف؟ شوفه وخذه اللّه ياخذني وياخذهم. يأخذها هي سهلة على الفهم. أمّا يأخذهم، فمن هم؟ هل هم الخال وبنات الخال ورشاد ورشا وإسحق شالوم؟ أم هم أمّه ووحيد وأمين وهو معهم؟ لكن من الواضح أنَّ وداد غير سعيدة وتغرق بالعزّ كما تقول أمّه. تقول عنها: غرقانة بالعزّ لشوشتها وياريت يرضيها ويعجبها. مسكين خالك لأنّه حاير بين سين وجيم. ما السين وما الجيم؟ سأل أمّه فقالت: اسكت. سأل عن وداد فقالت: اسكت. سأل عن وحيد فقالت: اسكت. والآن يقول: يمّه الحلقوم، فتنهره همسًا وتقول له بطرف فمها: طيِّب اسكت. لماذا يسكت؟ هو لا يفهم. وأيضًا لا يفهم لماذا الأولاد لا يفهمون أنَّ حذاءه الجديد وبنطلونه الجديد والحقيبة الجلد، كل ذلك لا يعني أنّه لا يرغب باللّعب معهم في الحارة. لماذا يقولون عنه خرقة مرقة وهو الأشطر في مدرسة

ولعب الفوتبول وكرة السلة؟ في حصّة الرياضة هو الأشطر. وفي الحساب هو الأشطر. وفي قراءة القرآن والتجويد يقول له الأستاذ: عفارم عليك، صوتك جميل، ولا غلطة. لكنَّ الأولاد يقولون له حين يخرجون إلى الساحة: صوتك رفيع زيّ البنات، أحو، أحو.

نظرت الأمّ إلى ابنتها ثم إلى الناس. رأت النساء في مجموعات. فلانة وبناتها وكنّتها. فلانة وجارتها وصاحبتها. فلانة وفلانة مع فلانة ودستة أطفال. كلّهنَّ مع بعضهنّ يتسامرن ويتمازحن ويتبادلن النكات معًا وهي وحيدة. هي وحيدة مع هذه البنت ذات النكد والبوز الممتدّ والبطن العظيم. آخر مرّة زارتا الحمّام، وكان ذلك قبل بضع سنين، كانت وداد ما زالت مثل القشّة، رفيعة، نحيلة، بعظام بارزة وصدر ممسوح. وها هي الآن منفوخة كقربة ضخمة وتكاد تنفجر من الحبل والحقد. ابنتها تحقد عليها وتعتبرها السبب في زيجتها. قالت لها قبل يومين: أنت السبب. أنت رميتني هالرمية. قالت مدافعة عن نفسها: ما حدا غصبك. ليش وافقت؟ لطمت وداد خدّيها: كنت صغيرة. أنا كنت خدّامة لولادك. أنا كنت خدّامة لك أنت. نزلت أجوبتها كالصاعقة فلم تجبها. خدّامة لها؟ خدّامة لأولادها؟ وهي إذن خدّامة لمن؟ لمن خاطت ورقعت القنابيز؟ لمن سهرت الليل وهي تدرز وترقع وتكوي الطرابيش؟ لمن انقطعت عن الزيارات والاستقبالات وأجواء الحارة ولمّات الموالد والأعراس؟ أيّام المرحوم كانت تخرج يوميًّا من بيتها تزور هذه وتزور تلك لأنَّ المرحوم كان «مستّتها» وكانت هي ستّ الستّات. كانت

تدخل على الاستقبال فيستقبلنها بالقبل والنكات وأحيانًا بالغناء والزغاريد. لم يفتها استقبال لم تحضره. لم يفتها عرس لم تشارك في زفّته أو نقوطه. كانت تنقِّط كل عروس مهما كانت ومن أيّ أصل وخلفيَّة. وكنّ يعتبرن مشاركتها شرفًا وتنازلاً وقيمة كبيرة لأنَّها من أصل وفصل ولا كلّ الأصول. أبوها الشيخ فلان الذي يعود بأصله إلى جذر النبي، وجدّها فلان صاحب الطريقة والحضرة، وستّها فلانة المعروفة بكرامتها وطهارتها وانكشاف السرّ ومخاواة الجنّ. وهي ذاتها، ألم تكن تكشف المخبوء في وجه القمر وتفتح بالزيت وبالفنجان؟ ألم يكنّ يزرنها صبحًا ظهرًا عصرًا ليلاً، لترقي فلانة أو تبطل مفعول حجاب عمل لفلان أو تعدّل معصمًا مفكوكًا أو ترفع اللوز بمسّاج الزيت؟ كانت مختارة في الحارة ثم انعزلت حين اعتزلت لأنَّ الدنيا لم ترحمها وأخذت منها أحلى الرجال وأغلى الرجال وأغنى الرجال. كان غنيًّا، وكان فنّانًا وصاحب كيف. يعزف القانون ويغني لها ويغازلها ويحيي لياليها بشهواته. كانت أنثى. وكانت تحسّ بقيمتها وتبتسم بنشوة وهو يقول: أنت الملكة وستّ الستّات. ثم يغنّي: ملك قلبي وملك روحي أنت يا ملاك يا مجنِّني. كانت ملكة، وأيضًا ملاكًا لأنَّها امتلكت الإثنين: جمال الجسم وجمال الروح. جمال لا يضاهيه أيّ جمال لا في العيلة ولا في الحارة، ولا حتى في نابلس وكل فلسطين. وجمال الرّوح لأنَّها من أصل تتجلّى فيه القدرة على الوصول إلى السموات وإخاء الجنّ واكتشاف الغيب. كانت ملكة ثم انحدرت حين ترمَّلت وانكسر التاج. ما عادت حلوة كالسابق، ما عادت تفتح للنسوة ولا ترقي فلانة أو تعدل معصم فلان أو ترفع اللوز بمسّاج الزيت. ما عادت تستقبل جاراتها أو تذهب

الأعراس والموالد. ما عادت تملك نقوطًا لتنقّط به. ما عاد لديها الوقت لتجامل أو تتجامل. بعد الرملة، وبعد أن غدر بها كبير العيلة وسرق الذهبات والمجيديّات وتركها أرملة مكسورة بكومة أولاد بلا عائل، ما عادت تفتح بيتها للستّ فلانة أو أمّ فلان. صارت غرقانة لشوشتها بالهمّ والغمّ والخياطة وقلّة المال. المال مهمّ. المال أساس. المال حياة. لم تفهم هذا ولم تفكّر فيه إلا حين احتاجت. فهمت ساعتها أنَّ الحاجة هي ألاّ يكون لديك مال تشتري به ما تأكله وما تلبسه، وما يحفظ وجهك بكرامة أمام الأعين وفضول الناس. صارت أرملة مسكينة بنظر الناس بعد ان كانت ملكة ومختارة في الحارة. كانت محظوظة ومرموقة. كانت محترمة ولها شأن. كانت ملجأ لذوات الحاجة المحتاجات. وحين صارت من ذوات الحاجة المحتاجات سقطت هالتها وسقط التاج وما عادوا يقولون «ستّ الستّات». والغريب في الأمر أنّهنّ لم يفرحن لها حين اغتنت وعادت للعزّ بعد زواج ابنها وزواج ابنتها وقدوم الخير. صاروا يقولون: شايفة حالها. وابنها الصغير: شايف حاله. وابنتها وداد: نفشت ريشها زيّ ديك الحبش بعد ما كانت قطّة مغمّضة بلا شكل ولا فهم ولا شخصيَّة. وانتهزن فرصة هرب وداد ليكلن التهم ويخترعن القصص، وينظرن إليها من تحت لتحت وشقوق الشبابيك، ويحرّضن الأولاد على ابنها لأنَّه يتميَّز على الأولاد بشطارته وفصاحته وهدايا جميلة من خاله. صار أولادهنّ يعيّرونه بالبنطلون الجديد وكأنَّ البنطلون الجديد عاهة مشينة.

شيء غريب طبع النسوان. يغرن ويحسدن ويقلن الكلام خلف الظهور ثم ينقلن ما قالت فلانة وما قال فلان. أمّا الرجال، جيران الحيّ،

فهذا النجّار وذاك الحدّاد والمنجّد، كلّ يغنّي على كيفه ويسمعها الكلام المبطّن وما قيل وقال. ألم يقل النجّار للمنجّد حين مرّت، وكان يقصد أن يسمعها: بنت القحطان قالوا رجعت. فقال الآخر: يا مثبّت العقل والدين. أي ما معناه أنَّ ابنتها بلا عقل ولا دين، أو أنَّها هي، بنت القحطان وشيخ المشايخ سيِّدنا الشيخ، أبوها فلان وجدّها فلان، وجدّتها فلانة بنت فلان، بنت الأصل والفصل وخير الأصول، هي من يقصد بلا عقل ودين. وربّما يقصد كلّ العيلة، عيلة قحطان. أما الآخر، أجير الفرّان فأخذ يغنِّي: مطرح ما تروح عيوني عليك. أي ما معناه أنَّ ابنتها مهما هربت، مهما اختفت ومهما اختبأت فهي مكشوفة للأعين وكلام الناس. هذا ما قيل، وهذا ما يشاع عن ابنتها وهذا ما يعاني منه سمير، وهي أيضًا تعاني منه. وكلّه، كلّه، بسبب وداد وتياسة وداد. فلو أنَّ وداد تتلحلح وتتبحبح مثل النساء الشاطرات ومثلها هي أيام العزّ لأخذت عقله. لكنَّها..

ونظرت إليها بغيظ مكبوت. لكنَّ منظرها صفراء عجفاء رغم حبلها، عظامها بارزة في كتفيها وصدرها ممسوح، وذراعاها مسحوبتان جلدًا على عظم، كل ذلك جعلها تحسّ بقلبها يهبط وثقل يجثم كرحى الطاحون على صدرها. تذكَّرت ما مرّت به وداد من ذلّ وعذاب مع ذاك الزوج. هل كان زواجًا أم لعنة؟ منذ الخطبة ووداد تدور في دوّامة، وهي معها. منذ الخطبة وهي تراقبه، لم يقل لوداد كلمة واحدة تردّ الروح. وبعد جريشة، حين طلبت وداد فسخ الخطبة قالت لها، كما قال وحيد، ألاّ طلاق في عيلتنا. طلاق البنات يعني فضيحة. كتب الكتاب يعني زواجًا شرعيًّا على سنّة الله ورسوله. فسخ الخطبة يعني الطلاق

والفضيحة. وتمّ الزواج وظلّت وداد في وحدتها وفي وحشتها وعزلة واغتراب عن دنيا الناس. ما كانت تحكي ولا تشكو، فقط تنظر. تنظر إليها ولا تراها. تقول بعينيها ما لا يقوله لسانها أو يصرّح به. تنظر إلى أخيها وزوجة أخيها ولا تتكلّم. تجلس في البلكون تنظر للبحر بصمت ووجوم. وحين تقترب منها لتحدّثها حتى تفتح قلبها وتفضفض لها تهرب منها. تهرب للنوم في غرفتها وتظلّ هناك من الصباح حتى المغرب. وفي المساء تجلس ساهمة في البلكون تنظر للبحر لمنتصف الليل، أو ربما لطلوع الفجر. قالت لوحيد: خايفة يا وحيد أختك تنجنّ! هزّ رأسه وقال ساهماً: وأنا يا أمّي خايف أنجنّ. وهذا ما حدث، وداد جنّت ووحيد جنّ. وحيد جنّ، ربّى لحية وصار يصلّي مثل المهووس ويمضي لياليه في الجامع. ووداد جنّت وعقلها طار فهربت منهم. وهي بينهما ماذا تفعل؟ وحيد المسكين يجد عزاءه عند ربّه فقال الناس: خير وبركة، أمّا وداد ففضحوها.

اقتربت شابّة من الخلوة ووقفت في الباب. هي ابنة تاجر الألبان والأجبان في وسط السوق. كانت في صفّ وداد وهي طفلة ثم اختفت. قالوا ذهبت مع أمّها إلى الشام وبقيت هناك. أبوها تزوَّج على امّها لأنَّ أمّها ما عادت تلد. حملت الأمّ ابنتها وذهبت إلى الشام. وحين بلغت البنت استعاد الرجل ابنته وأعادها إلى نابلس كي تعيش معه ومع زوجته التي لم تلد ولم تحبل قطّ. قيل وقتها إنّ السبب كان من الزوج، لكنَّ الزوج لم يعترف بعدم الإخصاب لأنّه قادر، وقرَّر أن يتزوَّج ثانية، بل ثالثة، حتى ينال من الخلفة من يرث عنه خير الجبنة واسم العيلة.

رأت وداد الشابّة ولم تعرفها، لكنَّ الأمّ عرفتها وقالت:

ـ أهلين وسهلين. شوفي يا وداد مين زارتنا!

مسحت وداد الرغوة عن عينيها وحدَّقت من خلال البخار. فقد جعلها ضباب الحمّام والرغوة والهمّ المستشري في قلبها ذاهلة شاردة ترى الأشياء ولا تراها.

قالت الأمّ بحماسة:

ـ تفضّلي يا عليا يا بنتي، إِنت زيّ وداد.

همهمت وداد كي تعلّق، فلم تصدر من حلقها إلاّ أصوات مبهمة لا معنى لها. كانت تريد أن تسخر. كانت تريد أن تقول لأمّها: ومن هي وداد؟ أهي ابنتك؟ أم هي الطبطوبة المركوبة مثل الدابّة؟ لكنّها لم تصدر سوى همهمات بلا معنى.

اقتربت الشابّة من الأمّ وقبّلتها فرحّبت الأمّ بحرارة وبادلتها القبلات على الخدّين.

فرحت الأمّ لأنّ واحدةً من الحارة بادرت بالزيارة والتحيّة دون أن تذلّ نفسها أو تذلّ ابنتها باسترضاء النساء ورشوتهنّ بملبّس وحلقوم الشام. كما أنَّ وجود هذه الشابّة قد يريح وداد. قد تجد فيها صديقة قريبة تفضفض لها وتخرجها من عزلتها. وقد تجد هي من خلالها معبراً للدخول إلى عالم وداد.

قالت الشابّة ضاحكة:

ـ عروسة أبي في الخلوة هناك.

ابتسمت الأمّ وسألت بفضول:

ـ واحدة جديدة؟

ضحكت عليا:

ـ هذي الثالثة.

علّقت الأمّ ضاحكة:

ـ صحّة وصحّتين.

صاحت عليا:

ـ علّة وعلّتين، عمره ما يشبع.

ارتدّت الضحكة عن وجه الأمّ لأَّن تعليق البنت فيه قلّة أدب وتطاول على الأب، وهذا لا يجوز. الرجل بحاجة لولد يرثه، يحمل اسمه، فماذا لو تزوّج ثانية وثالثة وجرّب حظّه؟ اللّه حلَّل.

قالت عليا وهي تتأمَّل شعر وداد:

ـ قالوا النسوان شعرك أشقر، لكن لا أشقر ولا أحمر. ليش ما تحنّيه؟ الحنّة مليحة وتقوّي الشعر وتخلِّيه أحلى وأنعم. وإنت يا خالتي شعرك شايب، ليش ما تحنّيه؟

مدَّت الأمّ يدها إلى شعرها، وكان مبلولاً مسحوبًا كشلّة خيطان:

ـ أنا أحنّيه؟! لمين يا حسرة. خلص يا بنيتي ودّعنا، لمين أحنّيه؟

ـ لمين تحنّيه؟ حنّيه لنفسك ولعيونك. حنّيه لنفسك بالمراية. الواحدة منّا لازم تعيش وتشوف حالها، تحسّ بحالها وتتدلّل.

ابتسمت الأم ولم تعلِّق، فاسترسلت الشابّة وهي تحدِّق في شكل وداد:

ـ وله يا وداد، ليش هيك شكلك؟

لم تجبها وداد، بل ظلَّت تحدِّق في الاثنتين من خلال البخار ولا ترى إلا شكلين باهتين وحدود ملامح غامضة وجرن الحمام. فعادت إلى الجرن تغرف منه بطاستها وتدلق الماء على رأسها بشكل آلي.

التفتت عليا إلى الأمّ وقالت لها:

ـ شعرها هذا لازم ينقصّ. اليوم الموضة للشاليش.

حدَّقت الأمّ ولم تسأل ففسَّرت البنت:

ـ يعني القصير لحدّ الرقبة. شعرها هذا لازم ينقصّ. لازم تقصّه وتحنّيه. وإنت كمان يا أمّ وحيد، لازم تحنّيه.

ربتت الأمّ على ذراعها ولكزتها لتلفت نظرها إلى وداد:

ـ البركة فيك وفي أختك وداد. الدور دوركن يا بنات اليوم. وداد زيّ أختك. خذي بالك منها وحنّيها وحنّي إيديها.

صاحت عليا:

ـ أحنّي إيديها! لأ يا خاله. حنّة الإيدين موضة قديمة. اليوم المناكير هو الموضة. وكمان الذهب بطلت موضته. الذهب اليوم للفلاّحين. وله يا وداد ولي على قامتك، دستة مباريم وما شاء اللّه وكأنَّك جاية من برقة! شو هذا يا ستّ؟! شكلك يا وداد مش عاجبني. كيف قالوا عليك اللي قالوه؟

انتبهت الأمّ:

ـ شو قالوا عليها، قولي لي؟

صاحت عليا بصوت رنّان متحدٍّ:

ـ يقولوا عليها اللّي يقولوه. ويقولوا عليَّ اللّي يقولوه. مش مهمّ الناس، المهمّ إنت. هذي البلد دايمًا تحكي. وناس البلد بدهم قصّة. خلّيهم يحكوا لينفلقوا.

هتفت الأم:

ـ لأ يا بنتي، عيب يا حبيبتي. الناس الأصل والأصل الناس.

ـ طزّ على الناس.

صاحت عليا بصوت هزّ الخلوة وأسماع وداد، فأحسَّت بالكلمة تدغدغها. أحسَّت بشعرها يقف في فروتها فأخذت تحكّه وتشدّه وتسحب يدها بامتداده وتمنَّت لو تقصّه أو تحلقه أو تصبغه حتى تتحدّى ما قالوه. قالوا شقراء، قالوا حمراء، قالوا مكشوفة بلا منديل. فليقولوا عنها ما يريدون، فلينفلقوا، لأنَّها زهقت من كلام الأمّ وكلام الناس. هي أيضاً تريد أن تقول: طزّ على الناس.

قالت بصوت أجشّ ضاع في معمعة الأصوات والطاسات وصياح الأطفال والأمّهات:

ـ قصّي لي شعري يا عليا.

صاحت عليا:

ـ نعم؟ شو قلت؟

رفعت صوتها وقالت بصوت أشبه بالصراخ:

ـ قصّي لي شعري وحنّيني.

صفَّقت عليا يديها وقالت للأمّ:

ـ شايفه؟ شايفه؟ نطق البلبل. نطق وغرّد!

فرحت الأم وقالت لعليا تشجّعها:

ـ هذا بفضلك، والدور عليك تحنّيها.

ـ وأقصّ شعرها؟

ـ قصّيه وحنّيه، خلّيها تتلحلح وتتبحبح.

قهقهت عليا ودغرت وداد في كتفها:

ـ خلص يا وداد، أمّك قالت. وأنا كمان في عرس أبي لازم أتلحلح وأتبحبح. تعالي معي، قومي، يا اللّه، فيه واحدة هناك من حيفا، تقصّ الشعر وتحنّيه وتصبغ مناكير. يا اللّه يا وداد، يا اللّه قومي.

جلست وداد بين يدي الحلاّقة، فأحالتها إلى شبه عروس. والحممجيَّة سلختها ونتفت الشعر عن ساقيها وذراعيها وأيضًا هناك، في ذاك المكان، حتى تلد على نظافة، فصارت حلساء ملساء بشعر شاليش على الموضة لونه خمري بفعل الحنّاء، وشنيون مرفوع فوق الجبهة محاط بدوائر وحلزونات.

جاءت الأمّ من الخلوة ورأت وداد فانزعجت لأنَّ الشنيون ذكّرها بنساء السينما وأسمهان. صحيح أنَّها كانت تريد لابنتها أن تتلحلح وتصبح كالنساء العيّوقات لتأخذ عقله، لكنَّ الأصول ألاّ تخرج المرأة عن حدود الأصول. لو أنَّ وداد قصّت شعرها وحنّته فقط فهذا مقبول. أمّا أن ترفع شعرها «بالكوكو» والحلزونات فهذا غريب، غير مقبول. فماذا تقول عنها النسوان؟ ألا يكفي ما قلنه وما اخترعنه من إشاعات؟ قلن شقراء، قلن حمراء، قلن مكشوفة بلا منديل. فماذا يقلن الآن وهي وحيدة، يعني بلا زوج وحردانة؟ سيقلن: إذا كانت تتزيَّن في غياب الزوج إذن هناك من تتزيَّن له، فمن هو هذا؟ لازم نعرف.

لكزت عليا وهمست لها:

ـ شعر وداد مش عاجبني.

لم تلتفت عليا إليها وظلّت تتابع الحلاّقة وهي تسرّح شعر امرأة وتعيد تشكيله في حلزونات. وكانت وداد بجانبها تتابع ما يجري وتستمع لما يدور من تعليقات. كان من الواضح أنَّ عليا قد بدأت تثير اهتمامها وتخرجها عن صمتها وتضحكها بتعليقاتها الجريئة وحركاتها الطريفة. وانتبهت الأمّ إلى أنَّ تأثير عليا على ابنتها سيكون سلبيًّا لأنَّ عليا ـ كما يبدو ـ قد تأثَّرت بأجواء الشام. أمّها شاميَّة وربَّتها كالشاميّات. بنت أبو لبن بيّاع اللبنة والجبنة تعمل بأصلها كما يحلو لها. لكنَّ وداد ليست عليا بنت اللبّان.

اقتربت من ابنتها وهمست لها بصوت خفيض حتى لا يصل إلى عليا والحلاّقة:

ـ شعرك يا وداد مش عاجبني.

لم تجبها وداد وظلَّت تتابع ما يجري فوق رأس المرأة من حلزونات وتستمع إلى ما يدور من تعليقات.

فعادت الأم تلحّ على ابنتها:

ـ وداد يا وداد، اسمعيني؟

همهمت وداد:

ـ همهم، همهم.

ـ أنا أقول شعرك يا وداد مش عاجبني.

همرت وداد دون أن تلتفت إلى أمّها:

ـ أنا عاجبني.

همست الأمّ:

ـ بلا قلّة عقل، اسمعي منّي.

لم تعلّق وداد وظلّت تتابع ما يجري والتعليقات. فعادت الأمّ تلحّ عليها:

ـ شعرك مش مناسب يا وداد، اسمعي منّي.

صاحت عليا وقد سمعتها:

ـ هذا يا خالتي على الموضة.

قالت الأمّ بلباقة حتى لا تزعل الحلاّقة وتثير عليا وتحرج وداد:

ـ هذي تسريحة عرايس، لكنّ وداد، إنت عارفة.

صاحت عليا:

ـ قصدك بلا زوج وحردانة؟ مين سائلها ومين محاسب؟ وبعدين يا خالتي يا أمّ وحيد مين قال إنّ العروس أحسن منّا؟ واللّه العظيم إنّي أحلى ووداد أحلى. وداد بالشعر صارت أحلى. ولو تسمن شوي تصير أحلى، أحلى بكثير. شوفي عينيها بعد الكحلة. شوفي الحمرة شو لايقة عليها. تقاطيعها حلوة وبتجنّن. عينيها حلوين وشفايفها قدّ الفستق وبشرتها ناعمة بلا بودرة. بس هي هبلة، مهملة حالها. وله يا وداد ليش هيك أنت؟

ابتسمت وداد:

ـ ليش مالي أنا؟

ـ مالك أنت؟ دايمًا ساكتة، دايمًا صافنة وبوزك شبرين ومهملة حالك وشكلك كأنَّك فلاّحة. شيلي الذهبات والماشا اللّه، وهذي المباريم موضة قديمة، كلّك يا وداد موضة قديمة. شوفي شعرك لمّا رفعتيه كيف صار شكلك. وعينيك لما تكحَّلت صرت أحلى. لمّا العينين يكونوا حلوين بتصير الواحدة زيّ الملكة. لغة العيون يا شاطرة. سمعتِ شو قال عبد الوهّاب؟

قالت وداد برقّة وخجل وقد بدأت تخرج عن صمتها:

ـ حكيم عيون أفهم بالعين.

فأكملت عليا الأغنية بصوت رنّان:

ـ وافهم كمان برموش العين. أعرف هواهم ساكن فين. واعرف دواهم ييجي منين. اللّه اللّه يا عبد الوهّاب. يسلم صوته ويسلم شكله. بتحبّي يا وداد عبد الوهّاب؟

ابتسمت وداد:

ـ ومين ما يحبّه.

صاحت عليا:

ـ وأنا بموت بعبد الوهّاب. أنا لو أشوفه يمكن أموت.

قالت وداد بحسرة وخجل:

ـ غنّى بعرسي.

حدَّقت في وجهها كالمصعوقة، فحلفت وداد:

ـ واللَّه العظيم غنّى بعرسي.

والتفتت إلى أمّها تشهدها:

ـ يمّه قولي.

قالت الأم برصانة:

ـ غنَّى بعرسها.

ضربت عليا صدرها ضربة قويَّة:

ـ غنَّى بعرسك؟ وإنت سمعتيه؟

ـ لأ ما سمعته. غنَّى للرجال، إخوتي سمعوه.

حملقت عليا في وجه وداد ثم في وجه الأمّ:

ـ ولي على قامتك! غنّى للرجال وما سمعتيه. وإنت يا خالتي، غنّى بعرس بنتك وما سمعتيه. أمّا مجانين!

وهزَّت رأسها عدّة هزّات وهي تكرِّر:

ـ مجانين، مجانين! واللَّه مجانين!

استاءت الأمّ لأنَّ عليا قليلة أدب وقليلة ذوق، فكيف تقول في وجهها: «مجانين، مجانين؟» كما قالت عن أبيها «علّة وعلّتين». وها هي تستهزئ بها وبابنتها وتقول عنهما: «مجانين، مجانين». أمّا قلّة أدب! أمّا قلّة ذوق! البنت شاميّة مثل أمّها، تربّت في الشام، جاءت من

الشام وتتباهى بلهجة الشام. تردِّد عبارات شامية لتذكِّرهنّ أنَّها من الشام وشاميّة، لكن مهما قالت ومهما تصنّعت فهي بنت أبيها، أبوها اللبّان؟ أبوها الفلاّح ابن الفلاّح من برقة. يعني مهما ترقَّت بنت اللبّان فهي فلاّحة ابنة فلاح، وبدل أن تتفلسف علينا وتقول الذهب موضة قديمة، لماذا لا تكيل نصائحها لعروسة أبيها الفلاّحة؟

عادت تلحّ على ابنتها:

ـ بهذا الشعر إذا حدا شافك، شو يقولوا الناس؟

هزّت وداد كتفيها بجرأة غريبة وقالت بحقد:

ـ ينفلقوا الناس.

وقبل أن تردّ عليها وتُسكتها فقعت في الفضاء صلية زغاريد كدويّ الرصاص، وتبعتها ضربات الطبلة والنقرزان وجوقة مزاهر تهدر كالرعد فصاحت عليا:

ـ وصلوا الجناكي من حيفا. يا اللّه يا وداد، يا اللّه يا خالة. يا اللّه بسرعة. الزفّة هناك.

انجلت العروس في أعلى نقطة على المصطبة محاطة بأغصان النخيل وباقات الورد تحت أضواء القناديل ومئات الشموع. وعلى وجه البركة تناثرت أوراق الورد وزهر الليمون. وتهادت النساء حول البركة يرفلن بالجرجيت والحرير بفتحات واسعة وبلا أكمام، وقد زيّنّ أعناقهنّ وصدورهنّ بعقود الألماس واللؤلؤ، وفاحت منهنّ رائحة عطور قويَّة مختلطة برائحة البخور.

كان منظراً مبهراً ذكّر وداد بعرسها في مزرعة الخال، لكنَّ الأصوات هنا أضخم ولها رهبة. في فضاء الحمّام وارتجاج الأضواء وارتعاش الماء في البركة بفعل ضربات المزاهر والنقرزان بدت الأشياء أكثر تأثيراً وضراوة. أحسّت بدموعها تنفر فجأة وشعرها يقف في فروتها تحت الكوكو ومسامّها تخز مثل الدبابيس. تذكَّرت ما مرَّ بها. قبل سنة فقط كانت هناك في ذاك المرتفع، في لوج العروس وبجانبها رشاد ورشا وأخوها وحيد. كانت تحسّ أنّ العروس ليست هي، بل واحدة غريبة لا تعرفها. كانت تنظر لتلك العروس وما يدور حواليها بصمت وجمود. لم تكن تحسّ أو تسمع، ترى الأشياء من خلف ضباب. نساء، أضواء، ذهب، وورود وجرسونات يحملون العصير والحلويات في أوانٍ فضيَّة

وذهبيَّة، وأفواه تنفتح وتتحرَّك وألسنة تلوب بين الشفاه تطلق صيحات وزغاريد، لكن بلا صوت، وهي بلا وعي ولا إحساس.

كيف مرّ العام بلمح البصر! كانوا يقولون إنَّ الأيّام التعيسة تزحف زحفًا. لكنَّها الآن تكتشف أنَّ الأيام مرَّت ركضًا كقطار سريع. بالأمس كانت عروسًا، بالأمس كانت في حيفا، بالأمس كانت عند ليزا ودخلت مع النساء عند الحاكم وشاركت في مظاهرة القدس ورأت النساء يخلعن المناديل ويطيّرنها فوق رؤوسهنّ كجوقة غربان. بالأمس كانت لا تعرف من دنياها إلا الخياطة ورقع القنابيز. لكن الآن باتت تعرف. بدأت تحسّ، بدأت تفهم. كبرت جدًّا في هذا العام. عرفت أنَّ في الدنيا ما يسمّى الحبّ وما يسمّى العيب والسياسة، وليزا ونساء يتظاهرن. وهي أيضًا خلعت المنديل واستبدلته بإيشارب صغير. لكن هنا، هنا في نابلس، عادت للغطوة والمنديل ومع ذلك ما رحموها وقالوا أشياء أخافتها وأغضبت الأمّ. وها هي العيون تراقبها.

نابلس، حيفا، أجواء القدس، ثم نابلس. كلّ ذاك في عام، فقط في عام؟ كلّ الأجواء، وكلّ جوّ يختلف عن الآخر. نابلس فيها دار العيلة وحمّام البلد وكلام الناس. والقدس ليزا والحاكم ونساء يتظاهرن بلا منديل. وحيفا والبحر والسينما وأغاني الحبّ. باتت تعرف كلّ الأجواء.

نادتها الأمّ:

ـ تعالي يا وداد، سلّمي على خالتك سميحة.

التفتت وداد ورأت امرأة في عمر أمّها أو أصغر ببضع سنوات. كانت المرأة مزوّقة بشكل صارخ، شكلة على الرأس تحت الكوكو

وكردان ماسي وحلق مثله وحمرة وبودرة وكحلة ثقيلة، وفستان مفتوح عن صدر أبيض بلون الجبن. كانت حلوة، ذكّرتها برشا إلاّ أنَّ هذه أكبر وأسمن.

همست عليا:

ـ هذي مرت أبوي. قومي سلّمي. خذي بخاطرها المسكينة، يمكن تنجنّ.

فهمت وداد أنَّ هذه هي الزوجة الثانية بعد أمّ عليا وقبل العروس. وأنَّها مزوّقة بهذا الشكل كي تبدو غير آبهة ولا حزينة حتى لا تقلّ قيمتها وتشمت النسوان بمصيبتها.

همست عليا بلؤم ساخر:

ـ عاملة حالها زيّ الملكة. لكن على مين؟!

ودغرت وداد في كتفها كي تتجاوب مع سخريَّتها وشماتتها، لكنَّ وداد ظلَّت تنظر إلى وجه المرأة كي ترى آثار الحزن، ولم تر إلا امرأة تنظر إلى النساء بعظمة وجلال وكأنَّها فعلاً ملكة.

همست عليا وهي تنظر إلى الراقصات حول البركة:

ـ خلّيها تذوق اللي ذقناه! اليوم يومها.

اندلعت عاصفة أخرى من الزغاريد ودخلت صبايا بصواني القمح والحنّاء، تتبعهنّ أخريات بأطباق واسعة عرضن عليها جهاز العروس وحليّها. كنّ بملابس قروية بعضها بتطريز فلاَّحي وأخرى بصدور مزهرة من قضاء نابلس تتقدَّمهنّ الراقصات اليهوديَّات شبه

عاريات، بملابس رقص شرقيّة. دارت المجموعة حول البركة يعرضن على النساء جهاز العروس وقطع الحليّ فهمست عليا:

ـ ذهب بذهب، شايفه يا وداد؟ مش قلت لك إنَّ الذهب للفلاّحات؟

خبَّأت وداد معصميها في حضنها، وصمّمت على خلع أساورها في أسرع وقت. لكنَّ الطبلة ودويّ الدفوف وزغاريد النساء عادت لتوقف الشعر في رأسها وتدفع بطبقة رقيقة من الدموع إلى عينيها.

عادت الأمّ تناديها:

ـ تعالي يا وداد، تعالي سلّمي.

دغرتها عليا وهمست لها:

ـ قومي سلّمي، وقولي لها البقيّة بحياتك.

زحفت وداد على المصطبة عدّة أشبار حتى وصلت. سلّمت على المرأة وابتسمت، فشدَّتها المرأة إلى صدرها لتقبِّلها، وحين التصقت بها أحسّت بالعرق البارد يبلِّل صدغيها وخدَّيها فشعرت بالنفور ثم الدهشة. العرق البارد ولفح الأنفاس نبّهاها لما يدور تحت الزواق الكثيف وفي الصدر العاري ونظرات الجلال. عادت تراقبها فالتفتت، والتقت نظراتهما لثوانٍ، ورأت عن قرب بياض العينين معكوراً، لونه أحمر، لكن بلا دمع. ابتسمت المرأة في وجهها بسمة صغيرة، بسمة مصطنعة باردة تخفي المكبوت، فوقف الشعر في رأسها ثانية وقفزت الدموع إلى عينيها، وهذه المرّة سالت وانسابت على خدَّيها فالتفتت بعيداً لتخفيها. لكنَّ المرأة شدَّتها وحدَّقت في وجهها بنظرة غريبة وهمست في أذنها:

ـ شدِّي حيلك، هيك قسمتنا.

اندلعت عاصفة جديدة من الزغاريد، ودخل العريس مع أربعة رجال من أقاربه، فاختبأت النساء خلف شالات خفيفة لم تستر إلاّ ما ندر. غضّ الرجال بأبصارهم وادَّعوا الرَّصانة والعفّة وعيونهم تسترق النظر من تحت لتحت. اجتهدت الراقصات وزاد نشاطهنّ فتوهّج لمعان البرق في الأحزمة حول أردافهنّ وصدورهنّ، وانهمر النقوط فوق رؤوسهنّ. اخترقت عليا جموع النساء وسيقان الراقصات ووقفت تحت اللوج وأطلقت زغرودة مجلجلة فابتسم أبوها وافترّت شفتاه عن أسنان أنهكتها عوامل الزمن والطبيعة ودبغها التنباك فشهق سمير وقال لأمّه: يمّه شوفي العريس شو كبير! نهرته برصانة وقالت له وهي تدغره: طيِّب اسكت. سكت على مضض لكنَّه التفت إلى أخته وقال بأسف: العروس صغيرة وهو كبير! فهزّت رأسها وهي تسترق النظر إلى سميحة وقالت همساً: طيِّب اسكت.

نزلت العروس لتتخدّر فانسحبت الراقصات وتراجعت النسوة حتى يفسحن لها مكاناً تتهادى فيه بفستانها الطويل والذيل الممتدّ. أسرعت البرقاويّات يساعدنها في لملمة الفستان وذيوله وبدأن سحجة

وأهازيج مختلفة عن أغاني الجنكيّات والنابلسيّات. لبضع دقائق اختلطت الأنغام وتنافرت الإيقاعات وعمّت فوضى فارتبك الجوّ. ارتبكت العروس وأخذت تتلفّت حولها وهي لا تعرف على أيّ النغمين تتخدّر. الجنكيّات مصحوبات بكورس النابلسيّات يغنّين «اتخدّري اسم اللّه يا زينة» والبرقاويّات يصفّقن ويغنّين بحماس منقطع النظير:

لمين زفّوك يا صبحة　　　　لأبو البارودة عبد اللّه

حين طال وقوف العروس حائرة مرتبكة بين النغمين، عادت أدراجها باتجاه المصطبة ولم تتخدّر. بدأ اللغط، النابلسيّات مصحوبات بدفوف ونقرزان الجنكيّات يحاولن فرض أنغامهنّ، والبرقاويّات يدافعن عن أحقّيتهنّ بزفّ ابنتهنّ. وحتى يخرج العريس من الإرباك قبل أن ينقلب جوّ الفرح إلى زعل، وقف على المصطبة وأخذ ينثر العشرات فوق رأس العروس ورؤوس الراقصات والجنكيّات. فاندلعت الصيحات والضحكات واستعاد الجوّ فرحه ومرحه. ناولته عليا وعاء مليئًا بالقطع النقديّة والملبّس، فأخذ يغرف منه ويرشق النساء بالشلنات والحلويات. انشغلت المحتفلات بتلقُّف ما يصل إليهنّ وما يصلن إليه، فاغتنم العريس فرصة انشغالهنّ وسحب عروسه من يدها وخرج مهرولاً وخلفه الرجال يتلفّتون حولهم حتى لا يفوتهم مشهد النسوة المنشغلات بلمّ القطع النقديّة والحلويات.

في حبس الدم

جاء وحيد على غير موعد. دخل غرفة أمّه ووجدها على سجّادة الصلاة. انتظر حتى سلّمت على الملائكة من حولها وبادرها بقوله: يمّه أنا ملاحق، خبّيني.

ظلّت صامتة تتأمّله. كان وجهه مخطوفًا تحت لحية كثّة وشعر حليق وعينين غائرتين وصوت مبحوح. كم تغيّر الولد، أصبح رجلاً. ما عاد لها، ولا لزوجته وأشغاله. صار للّه وملائكته، عاد لأهله، من نسل الرسول. وتذكّرته وهو يحلق، وتذكّرته وهو يغنّي، وتذكّرته وهو يحمل أكياس القمح على ظهره. كان رجلها من بعد أبيه. حمل عنها وهو ولد صغير، وها هو الولد يصبح رجلاً.

قال بلهفة:

ـ يمّه الإنجليز في كلّ مكان. أنا ملاحق.

سألته بشرود وهي تفكّر أين تخبّئه:

ـ أنت تظاهرت؟

ابتسم بحزن واستدار برأسه ولم يعلّق، فانتبهت. تذكّرت أنّ التظاهرات اندلعت هناك، في يافا، ولم تصل بعد إلى نابلس. سألته بتوجّس لتستدرجه:

ـ من حيفا لنابلس وما لقطوك؟!

هزّ رأسه. لم يرد أن يُدخلها في تفاصيل حياته. لا داعي الآن لأن تعرف.

قامت ببطء، وطوت السجّادة عدّة طيّات وهي ما زالت باليانس والتنّورة. حملت قنديلاً مليئًا بالكاز فاهتزّ الضوء وترجرج وصار شبحها بطول الحائط. اقتربت منه لتتأمّله، وشمّت رائحة التراب والعرق والخوف وشيئًا غريبًا مثل الكبريت فسقط قلبها وأحسّت بالرّعب. المسألة أكثر من مظاهرة وخروج مع المصلّين من الجامع. كلّ ما فيه يثير الريبة. مجيئه هنا، صوته، رائحته ولحيته وبعده عنها، بعده عنهم، وشكاوى زوجته ثم خاله. اختلف الولد، صار غريبًا. لكنّه مهما ابتعد يظلّ قريبًا. هو أقرب الأولاد إلى قلبها. هو سندها.

قالت بوجوم:

ـ تعال معي، في حبس الدم.

هزّ رأسه بحيرة وقلق لأنّ حبس الدم مظلم وكئيب ومليء بالعفن والرطوبة. قال بقلق:

ـ يمّه حبس الدم بارد وكئيب.

قالت باقتضاب:

ـ أحسن من الدار.

* * *

مرّ المساء وطلع الصبح وما جاؤوا. غلت القهوة ونزلت الدرج فصدمتها عفونة الجوّ والرطوبة. وجدته مستلقيًا على فرشة قديمة عفنة ومغطًّى بلحاف قديم كان لجدّه، جدّ جدّه، ثم لحرّاسه من بعده. كان القبو مليئًا بأغراض متوارثة من الزمن القديم، زمن الوالي الشيخ قحطان: لوازم خيل، صناديق حديد، سرير من مخلّفات الجيش التركي، عفش مهترئ استغنت عنه واستبدلته بجديد حين تزوّجا وخرجا من الدار.

لم تكن قد صلّت صلاة الصبح ولا نامت. لم تغمض لها عين ولم تتوقّف عن بثّ الأدعية والآيات. سورة ياسين وآية الكرسي و«من شّر حاسد إذا حسد» كرَّرتها مئتي مرة. كانت ما زالت مقتنعة أن ما يمرُّون به من أزمات سببها العين وحسد الناس. وكم استخارت ولم تفلح في فكّ العقد ودرء العين. حتى القمر لم يستجب لها مذ هربت وداد. ما عادت تجد من يقرأ لها سورة ياسين. كان وحيد هو من يقرأ وهي تفتح، أو هي تقرأ وهو يفتح. لا يفتح القمر إلا لوجهه.

قالت بهدوء كي تطمئنه:

ـ الليلة نفتح بالقمر، الليلة بدر.

ظلّ جالسًا على الفرشة مستغرقًا في أفكاره. كان يفكّر أنّ الأوان قد آن لأن يصارحها بأسراره، لأنَّ الأمور زادت عن الحدّ ولأنَّ قلبه ما عاد يتّسع لكلّ ذاك الكبت. الناس لا يعون ما هو مقبل.

صبَّت القهوة وناولته فنجانًا وقالت بتفاؤل لتستدرجه:

ـ خوفك يا وحيد من غير أساس. لا الإنجليز ولا حتى عرب. أنت من خوفك تتخيَّل.

لم يجبها. ظلّ صامتًا يفكّر كيف يبدأ الحديث ويصارحها.

قالت بأسف:

ـ عين طرقتنا. أنت بلا أولاد ووداد بالهمّ. ابن خالك رشاد ما سأل عنها. لو تحكي معه. وأنت يا وحيد اسمع منّي خذ رشا لليهود يمكن تحبل.

ابتسم بصفرة ولم ينطق. قالت بسرعة لتوضح له:

ـ عندهم دكاترة زيّ الألمان ويمكن أشطر. فيه واحد اسمه.. نسيت اسمه، قالوا شاطر. اليهود شاطرين.

هزّ رأسه وتمتم بوجوم:

ـ طبعًا شاطرين.

ـ طيّب، إذن، يا الله توكّل.

لم يجبها فعادت تلحّ:

ـ خذها يمكن الله يحنّن.

انفجر الكبت بدون مقدّمات وبدأ ينعف:

ـ لا بدّي يهود ولا بدّي قرود. أنا حالي كرب. البلد تضيع. يمّه اليهود أخذوا الدنيا.

استوقفته:

ـ مالنا ومالهم؟!

قال بغضب:

ـ مالنا ومالهم؟ أرضنا، بلدنا، دورنا، رزقنا. يمّه اليهود أخذوا الدنيا، سماسرة الأرض لازم يموتوا.

توقّف فجأة ليفكّر. تذكّر أنَّها لا تعرف شيئًا ممّا يحدث ولا تفهم لماذا انقلب الحال.

رأته واجمًا يفكّر واليأس بادٍ على قسماته. حزنت جدًّا، لكن ما الحلّ؟ هو غير سعيد في حياته. رشا البلهاء تثير الأعصاب. وهي بالإضافة إلى هبلها تبدو عقيمًا لا تحبل. لو حبلت منه لانشغل بالحبل ومجيء ولد يحمل اسمه ويملأ دنياه. لا شيء يملأ الحياة ويعمرها إلاّ الأولاد. امرأة عاقر بلا أولاد مثل الشجرة من غير ثمر. ورجل بلا ولد يملأ دنياه مثل الجامع بدون مصلّين. لو يسمع منها ويتزوَّج.

قالت بلهجة من تزن الأمور وتحكي بالعقل:

ـ اسمع يا وحيد. كلّ الدكاترة قالوا لك إنَّها عاقر. أنا كنت امبارح بفرح واحد أكبر منّك، أكبر بكثير. تزوَّج على مرته وهي قاعدة زيّ الملكة، ما نزلت من عينها ولا دمعة. ليش تدمع؟ اللّه حلّل. ما دام

بالحلال، خير وبركة. وأنا من رأيي أنَّك يا وحيد تصلِّي على النـ
وتخلِّيني ألاقي لك واحدة مليحة تحبل وتولد. خالك مسكين، أنا
أحكي معه. أنا قلت له: لو أنَّ وحيد على إيده ولد ما كانوا الشيو
لعبوا بعقله وربّى لحية وصار مسطّل زيّ الدرويش.

رفع رأسه وحملق في وجهها وهمس بغيظ: أنا مسطّل زيّ
الدرويش؟! ثم تماسك وتجلّد، وأخذ يفكّر أنَّ وضعه وشكله ولحيته
وصلواته ربّما تكون في عيون الناس مثل الدراويش.

قالت بفضول:

ـ أنت تظاهرت؟

ردّ بوجوم:

ـ لأ ما تظاهرت.

ـ إذن مالك؟

لم يجبها. أحسّ أنَّها لن تستوعب، وأنَّه لو صارحها فستزيد
همومه بمخاوفها، وستظلّ تزنّ كالنحلة طنينًا لحوحًا لا يتوقَّف كما
كانت تزنّ لأفكار أمين وشعارات أمين وفلسفات أمين: أنا ربّيتكم
بدموع العين. أنا اللِّي شقيت حتى كبرتم. إذا واحد منكم عملها وحرق
قلبي أشكوه للربّ وأغضب عليه ليوم القيامة. سامع يا أمين؟ إحنا
ناقصنا؟

جلس الثلاثة إلى مائدة الإفطار وكلٌّ سابح في أفكاره. الأمّ تسعى جاهدة لربط الأحداث حتى تكتشف أسراره. وهو يتساءل عن سبب عدم مجيء الإنجليز لاعتقاله وكيفية الخروج من الدار دون لفت الأنظار إلى وجوده. ووداد تسترق النظر إلى الإثنين وتضرب أخماسًا بأسداس. هل جاء ليأخذها إلى حيفا؟ هل يتآمران ضدّها لإرضاء الخال؟ أم جاء هربًا من زوجته ومشاكلها. ثم ما هذه اللحية وما هذا الشكل؟ هي لم تره باللحية والشعر الحليق شبه الأقرع قبل هذا اليوم. قبل هربها كان ما زال يقلّد عبد الوهّاب. يقلب شعره المضمّخ بالبريل كريم ويحلق شاربه ويتعطّر. ماذا حدث؟ يبدو غريبًا!

قالت بحذر:

ـ كيف حال رشا؟

هزّ رأسه وهو يمضغ وكأنّه يقول: بخير، أو لا بأس، أو ربّما لا يريد الإجابة حتى لا تتشجّع ويستمرّ الكلام. ربمّا لا يريد أن يحدّثها لأنّه ما زال غاضبًا بسبب هربها.

قالت الأمّ:

ـ حال رشا على حاله ما تغيّر. كيف يتغيَّر وهي مسدودة من فوق وتحت؟

قال بأسى:

ـ بسّ يا أمّي، حرام عليك.

نفخت الأم بغضب مكبوت لإحساسها أنَّه يخبِّئ عنها أسراره، وأنَّه يعاملها كغريبة. هي غاضبة ولا تعرف كيف تنفِّس عن غضبها فكانت رشا هي كبش الفداء.

ـ أنا أقول إنَّ العاقر مثل الشجرة من غير ثمر، حلال نقطعها.

رمى اللقمة من يده وقد فاض به الكيل من نقّها وإلحاحها المستمرّ، واستدار بوجهه وهو يتمتم:

ـ أستغفر اللَّه العظيم. لا حول ولا قوة إلاّ باللَّه.

قالت الأمّ مستفزّة:

ـ هي السبب. قل لي المضبوط. هي السبب، صحّ وإلاّ لأ؟

همست وداد بفضول حذر:

ـ السبب بشو؟

لم يجيباها، لكنَّ وحيد نظر إليها مباشرة لأوّل مرّة ورأى الكوكه متربِّعًا فوق رأسها وآثار الزواق ما زالت بادية على وجهها، فحملق مستغربًا وقال بدهشة:

ـ ليش هيك شعرك؟ ليش هيك شكلك؟

قالت الأمّ مدافعة عن نفسها وكأنّها هي السبب بهذا الشكل:

ـ أنا قلت لها عشرين مرّة شعرك يا وداد مش مناسب. لكن شو أعمل ببنات اليوم؟!

وحتى لا يفلت منها زمام الموضوع ويذهب الحديث باتجاه آخر، عادت تلحّ وتستفزّه حتى تعرف سرّ مجيئه وسرّ لجوئه وقوله بالأمس «خبّيني».

ـ أنا لازم أفهم شو السيرة؟ قلت الإنجليز في كلّ مكان وأنت ملاحق. خلّينا نفهم ونتفاهم. أنت تظاهرت أو ما تظاهرت؟ اشتبكت مع اليهود؟ لو اشتبكت لكنت انجرحت أو تخربشت. لكن شكلك كان طبيعي، بس ريحة قميصك غريبة، زيّ الكبريت!

ابتسم بصفرة وحزن غريب:

ـ وشمّيت قميصي يا أمّي؟

قالت بغيظ وألم واضحين:

ـ طبعًا أشمّه. طول عمري أشمّه وأشمّك. مين غير الأم تشمّ أولادها وتدافع عنهم بأسنانها مثل القطّة؟

قال باسمًا ليغيّر الموضوع ويضحكها:

ـ القطّة تأكل أولادها.

هتفت بغيظ:

ـ لو تعرف يا وحيد كيف قلب الأمّ! أنا لمّا وداد غابت عنّا كنت رح أجنّ، ما أنام الليل، ما نشفْ الدمع من عيوني. وأنت ا

وحيد، أنت الغالي، طول عمرك غالي يا نور العين. أنت الكبير، أنت سندنا. ساعات أقول أنا كنت السبب، لكن النصيب...

قال بإيمان:

ـ هذا قدرنا.

أصابتها هبّة مفاجئة من تأنيب الضمير فلطمت صدرها:

ـ أنا كنت السبب. أنا مجنونة. عيلة خالك كلّها مهابيل. لو أخذوا شوية من أمّهم.

قال محتدًّا:

ـ مالك ومالهم؟ هذا نصيبهم.

ـ لو أخذوا من أمّهم الفهم.

قالت وداد بسخرية حاقدة:

ـ أخذوا مالها، مش كافيكم؟!

صاحت الأمّ:

ـ اسكتي أنت. الكلّ يتكلّم ويتفلسف إلاّ أنت.

استدارت وداد بوجهها وتوقّفت عن الأكل تمامًا وقالت بغيظ:

ـ خلص، سكتنا.

عادت الأم تندب وتنوح لتستدرّ عطفه فيلين لها:

ـ أنا كنت السبب، أنا مجنونة. أنا يا وحيد قلبي تعبان. قلبي عليكم. برضاي عليك تصارحني. أنت تظاهرت؟ قل لي شو عملت؟

رفع عينيه ورأى الإثنتين تحدِّقان في وجهه بانتظار اعتراف منه، لكنَّه لن يعترف. ماذا يقول؟ يقول تهريب سلاح وصناعة ألغام وخراطيش؟

قالت بإلحاح:

ـ بدنا نفهم.

بدأ قلبه يخفق وارتفع الدَّم إلى رأسه.

عادت تزنّ كعادتها فأفلت زمامه وصاح فجأة بدون مقدّمات:

ـ مشان النبي حلِّي عنِّي. مالك ومالي؟ خلص أنا زهقت، حلِّي عنِّي.

همست الأم وقد شحب وجهها وابيضّت شفتاها وأصبحت مثل الأموات:

ـ أحلّ عنك؟!

دمدمت وداد بدهشة وعجب:

ـ تحلّ عنك؟!

التفت إليها وقد انهار ووجد أنَّها أسهل نيلاً وأوطأ حيطًا فصاح بحقد وشراسة:

ـ وأنت كمان سدّي بوزك. لك عين تحكي بعد اللّي كان وصار بسببك؟ وين كنت دايرة على حلّ شعرك؟ ما لك رجال يربّوك؟ إذا زوجك داير ومش سائل يعني خلص انقطعوا الرجال؟ إذا كان أمين

أعمى وأطرش أنا مش أعمى. شوفي شكلك! حمرة وبودرة وكحلة ثقيلة زيّ النور والرقّاصات. وشعرك هذا زيّ اللّي طالعة من السينما. استحي وذوقي. ببطنك هذا دايرة وداشرة على حلّ شعرك. قومي انقلعي. مش قادر أشوفك بها المنظر.

هتفت الأمّ وقد صعقت لأنَّها المرّة الأولى التي تراه وتسمعه بهذا الشكل:

ـ مالك يا وحيد؟!

لم يجبها، بل استمرّ ينفث حممه ويوجّهها نحو الأضعف:

ـ أنا أكسر راسك وأطبّشك. أشرب دمك. الناس فضحونا وهتكونا وكلّه بسببك. أختك يا وحيد هربت عند مين؟ أختك يا وحيد راحت مع مين؟ أختك شافوها بلا منديل. أختك دايره بحارات القدس. وين كنتِ دايره يا حيوانة؟

صاحت الأمّ:

ـ مالك يا وحيد؟

ضرب المائدة ودفعها فاندلق الشاي وسال الزيت على الزعتر وتدحرج الزيتون ووصل العتبة. هبّ واقفًا مثل المجنون وهو يصرخ:

ـ مش قادر أشوفكم وأسمعكم. مش قادر أتحمَّل عيشتكم. خافوا اللَّه. إذا اللَّه سخطنا نستاهل. خافوا ربّكم.

وصفق الباب ونزل ليختبئ في حبس الدم.

تدلَّت عليا من الشبّاك المطلّ على حضير آل قحطان ونادت وداد، لكنّ وداد لم تجبها، كانت تبكي. مذ فرّ وحيد وهي تبكي وأمّها تبكي. هي تبكي من الإحساس بالظلم والحقد والمهانة، وأمّها تبكي لأنَّها اكتشفت سرّ انقلاب وحيد. اختار اللِّحاق بشيخ الجليل ينشد نوراً يشبع روحه. اختار الشهادة على المادّة وطريق الجهاد على الدنيا ومتاع الأرض. تفهم دوافعه وأشواقه. هذا الطريق، طريق الأبرار، جزء منها، نواة تكمن في داخلها، بذرة ورثتها من الأجداد والماضي السحيق. جلال لا يعدله أيّ جلال مهما ابتعدت عن وجه القمر وصفاء الروح. لا تعتب عليه ولا تلومه. هو الوحيد من شاركها رحلات الكشف والبحث البعيد. لكنَّ الفراق صعب جداًّ، والخوف عليه من العسكر وجنون القتال. وإن قُتل هناك ماذا تفعل؟ ستبكيه حتى القيامة وحساب الربّ.

رأت ابنتها تحدِّث عليا بنت الجيران. لم يكن الصوت مسموعاً. كانت تجلس في غرفتها خلف النافذة وترى الاثنتين من خلف الزجاج وورق الخشخاش. رأت عليا تحرِّك يديها وتؤشِّر. تفتح فمها ثم تغلقه

ثم تفتحه ثم تغلقه ووجهها يتلوّى ويتلوّن. ماذا تقول؟ ماذا تعرف؟ والانفعال يبدو واضحًا من إشارات اليدين وحركات الوجه. هل أخبرتها وداد عمّا حدث وما قال وحيد؟ هل تحرِّضها عليا وتشحنها؟ بنت الجيران اللّعينة هي السبب في كل ما حدث. لولاها لما تزوَّقت وداد ولما غضب وحيد.

* * *

قالت عليا:

ـ إذا تطلَّقت وماتت أمك مين يلمّك؟ مين يستر عليك يا مجنونة؟ وتعيشي خدّامة للإخوة؟ أو تظلّي قاعدة منسيَّة بدار العيلة! تعالي معي نفتح صالون. بكرة النسوان ييجوا عندنا بدل ما يروحوا عند اليهود. نزوّق نسوان ونقصّ الشعر ونغرق بالذهب لشوشتنا. وبدل الذهب تشتري أساور لولو وألماس.

نظرت وداد إلى أساورها بشكّ وقلق. بنت الجيران تحاول إقناعها ببيع أساورها وفتح صالون للتجميل. وحين قالت لها إنَّها لا تعرف كيف تقصّ الشعر ولا تجيد تزويق النساء قالت لها: ناخذ دورات في الجمعيّة. هذا ما قالته ليزا في القدس وما رفضته واستكبرته في ذاك الوقت. لكن الآن، وبعد أن قال وحيد ما قاله، بدأت الفكرة تروق لها، على الأقلّ لا تستكبرها. لكن، ماذا لو ضحكت عليها بنت الجيران وأخذت أساورها كما ضحكت سارة على رشا في كيبوتس عخشاف؟ ذاك الحادث كان السبب في جنون وحيد وسيكون السبب في جنونها إن حدث لها. لكن إذن ماذا تفعل؟ تقعد مهجورة منسيّة بدار العيلة؟

قالت مفكّرة مختبرة:

ـ ناخذ دورات في الجمعية وبعدين نفكّر بالصالون.

وافقت عليا بدون تردُّد وتحمَّست حماسًا منقطع النظير وقالت لها إنَّها ستلبس غطوتها وتنزل إليها لتذهبا معًا للجمعيّة، حالاً، فورًا، وبلا تأخير.

* * *

تلفَّتت حولها لتتأكَّد من أنّ أمَّها لم تسمعها. اتَّخذت قرارًا لن ترجع عنه. حتى لو رأتها الأم وحاولت منعها من الخروج فلن ترضخ. ستخرج وحدها. ستلتحق بالجمعيَّة. ستأخذ دورات في قصّ الشعر والتجميل. لكن قبل فتح الصالون ستسأل وتمحّص جدوى المشروع ثم تقرِّر. هي تعرف تمامًا ألاّ وجود لأيّ صالون في نابلس. هناك بعض المزيّنات والحممجيَّات ممَّن احترفن تلك المهنة لكن بطريقة بلديَّة. يدرن على الأفراح بشنط صغيرة فيها معدَّات بدائيَّة، مقصّات وأمشاط ومحابس وملاقط حواجب وسكّر معقود يسلخن به جلود النسوة. تدخل المزيّنة من باب المطبخ كالخادمات وتعامل أيضًا كالخادمات. تمدّ لها العروس رجليها لتخلع لها الشعر الزائد وتضع الحنّة والمناكير على قدميها. أهذا ما سيكون حالها في الصالون؟

قالت عليا بشهقة سريعة:

ـ أبدًا، أبدًا، نلبس مراييل بيضا نظيفة وناخذ كشفيَّة زيّ الدكتور. مهنة محترمة ولذيذة وفيها مصاري.

فعلاً، فعلاً، مهنة لذيذة. مهنة محترمة وشريفة. لكنَّ أمها لم توافق. هي تعرفها. مذ انفتحت على أجواء العزّ واستبدلت ستائر الشاش بالأورجنزا ومقاعد الخشب بالإسفنج صارت تحسّ أنَّها أرقى من كلّ الناس. حتى النساء في الحارة ما عدن يزرنها ولا هي تزورهنّ. يقلن عنها منفوشة مثل ديك حبش وهي تقول عنهنّ بترفّع: بلدي وشلق ونوريّات، مع أنّهنَّ لسن شلق ولا نوريّات، بل من عائلات مستورة يلبسن الرخيص ويحكين بلهجة بلدية ويتدلَّين من الشبابيك ينادين على أولادهنّ والبياعين في الشارع. أمّها لم تفعل ما يفعلنه حتى بالفقر. ظلَّت ملابسها أبعد ما تكون عن البهدلة والذوق السقيم وظلَّت تتحدَّث بلهجة تتميَّز بها العائلات العريقة في نابلس بتفخيم القاف ولفظ الكلمات بلا تشويه. يقلن عن الفجل «فزل» والجزر «ززل» والسمسم «شمسم» فتضحك بسخرية وتعلّق. أما هنّ فكنّ يقلن عنها بإعجاب مشوب بالغيرة: أمّ وحيد تحكي وتخيّط بالنحوي. هذا مع العلم أنَّها مثلهنّ أمّيّة. لكنّ حفظها للقرآن وما اكتسبته من دروس الصِّغر عبر أخيها وقصص شهرزاد وعلاء الدين وقصص الأنبياء والمرسلين، كلّ ذاك الموروث جعلها تبدو متعلِّمة مثقّفة ومن كبار القوم، فهل ترضى عن قصّ الشعر والتجميل؟ ألن تقول: شو يقولوا الناس؟

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

حين عادت من الجمعيّة فوجئت بوجود رشا. لم تنظر الأمّ ناحيتها بل ظلّت مطرقة ذاهلة وبلا تعبير.

هجمت رشا عليها واحتضنتها وهي تبكي وتشهق بصوت مرتفع كالأطفال. توقّعت أن يكون سبب الزيارة اختفاء وحيد، إلاّ أنّ رشا قالت باندفاع كما لو كانت تدافع عن ذنب ارتكبته:

ـ أنا الجنّيت وأبوي الجنّ وطرده من الدار ومن الشركة. هذا الزواج لا يمكن يدوم.

فهمت وداد فأصيبت بالذهول. لم تكن تتوقّع أن يتزوّج. كانت تتوقّع أن يدور حتى يشبع ثم يعود إليها نادمًا صاغرًا يطلب الصفح والغفران ـ كما كانت أمّها تقول وتكرّر. حتى أبوه قال ذلك، قال إنّه سيعود إليها نادمًا خاضعًا متوسّلاً من أجل الولد ومن أجلها هي لأنّها ابنة عمّته وهو ابن خالها، ولأنّه اكتشف بعد كلّ اللفّ والدوران أنّها هي الشريفة النظيفة بنت العيلة وأمّ الأولاد. كانت تتوقّع، أو تحلم، أن تتبغدد عليه وأن تلوّعه وأن تذيقه العذاب بضعة أيّام وأسابيع قبل أن تعود إليه وترضى عنه.

كانت تتوقَّع، أو تحلم، أن يجيء إليها بعد الولادة ويركع أمام سرير الطفل ويبكي ندمًا، ثم يحمل الطفل ويناوله لها ويقول لها بذل وخضوع: عشان الولد، وعشاني، فتستدير بوجهها وتقول «لا» عدة مرّات حتى تُدميه وتُحرق قلبه قبل أن تقول «نعم» وتعود إليه.

كانت تتوقَّع، أو تحلم، أن يكون هذا هو الحلّ لأنَّ لا بديل عن الواقع إلا القبول بالواقع والاندماج فيه. وما كان خروجها للجمعية إلاّ الرغبة في تحدِّي الأمّ وتحدِّي وحيد. حتى أثناء وجودها في الجمعيّة كانت تتأمَّل قصّ الشعر وحماس الفتيات ببسمة ساخرة خجولة. كانت خجلة في أن تكون بين بضع فتيات فقيرات يحاولن الحصول على مهنة يدرن بها من دار لدار كالدايات والحممجيّات، يسرّحن النساء في بيوتهنّ ويأخذن أجرًا كالخادمات. طوال الدرس وهي تنظر إلى المعلِّمة والفتيات بعين فاحصة مستاءة وتحسّ أنَّها أرقى بكثير من ذاك الجوّ. حتى أنَّها لكزت عليا وهمست بأنفة: شلق ونور، مستوى واطي!!، فضحكت عليا وقالت همسًا: طبّ الجرّة على فمها ... وضحكت بلا صوت.

قالت رشا وهي تنظر في وجهها محاولة استرضاءها:

ـ بكرة يرجع. أكيد يرجع.

نظرت إلى الأمّ ورأتها كتلة عظمية بلا شخصيَّة وبلا هالات. كانت متكوِّرة على نفسها فبدت صغيرة الحجم وضعيفة. أين الكبرياء والقوّة؟ أين الاعتزاز باسم العيلة وأصل العيلة والعزّ والجاه وشو يقولوا الناس؟ كلّ ذاك ذهب بذهاب الزوج، زوج ابنتها!

ظلَّت الأم جامدة لا تتحرَّك. لم ترفع عينيها ولم تبك. كانت مصدومة ومذهولة وتشعر بالعار. انضمام وحيد لشيخ الجليل وثوار الجبل ملأ روحها بشعاع نظيف، بالكرامة. أمّا هذا، زواج الزوج على ابنتها ففيه إِذلال ومهانة وقلّة قيمة.

سألت ذاهلة مشدوهة:

ـ يتزوّج عليها وهي حبلى؟ لو كانت عاقراً لفهمنا وقلنا السبب قلّة الأولاد!

جمدت الدموع في عيني رشا وسألت بذهول ورعب واضح:

ـ قلّة الأولاد؟!

لم تجبها الأمّ واستدارت بوجهها نحو ابنتها وقالت بشرود:

ـ بكرة يرجع.

وحين رأت ابنتها جامدة ذاهلة بلا حراك ولا تجاوب قالت بغضب:

ـ بكرة يندم. ولمّا يندم أنا أداويه.

لكن وداد لم تجبها. دخلت غرفتها وأغلقت الباب.

ارتمت على الفراش بكامل ملابسها وسحبت اللحاف على رأسها وحاولت النوم، لكنَّ النوم لم يسعفها. كانت تحسّ بألم حارق وإحساس بالضياع والمهانة. ألم في الصدر، ألم في القلب، ألم في الرأس، وارتخاء عامّ في كلّ عضو من أعضائها ابتداء من الركبتين حتى الرقبة. كانت مذهولة ممّا أصابها ومن ذاك الألم. هي لم تحبّه على الإطلاق وحاولت الهرب منه ومن ذلّه. لم تحسّ بالقرب منه والانتماء إليه، فلماذا إذن كلّ هذا الألم؟ لماذا الغيرة والحرقة؟ لماذا الإحساس بالوحدة والضياع والتلاشي؟ أما كانت تتوقّع أن يطلّقها ويحلّ عنها؟! أما كانت تتمنّى الطلاق والبدء بحياة جديدة بعيداً عنه؟ ألم تهرب إلى القدس ولجأت لليزا لتخلّصها من ذاك الزواج ومن ذلّه؟ ألم تذهب مع عليا للجمعية لتتعلّم مهنة تساعدها على نسيانه ونسيان الأهل ودار العيلة وتبدأ حياة جديدة، دون الاعتماد على الإخوة أو مال الزوج؟ ألم تكن تعرف أنَّه خائن؟ ألم تكرهه وتتمنَّ له الموت أو الفالج؟ ألم تفكِّر بالموت بسبب ظلمه؟ فلماذا تحسّ بالغيرة والألم الفظيع؟ ولومضة خاطفة تذكَّرت نومه معها. بضع مرّات نام معها وأذاقها طعم الرعشة. وفي ليلة ما، وكان سكران وبلا وعيه، قبّلها قبلات محمومة فشعرت بالحبّ. أذاب فيها جمود الإحساس ودغدغها في عمق العمق. أحسّت بلهيب

الأنوثة يخرج منها كنهر جارف، كماء جريشة، ومغارة غامضة كالدها. مليئة بالعسل وماء الورد. طارت، هبطت، نزلت لتحت، دخلت في الأرض ثم ارتفعت، وأطلقت الصرخة كزغرودة وانشقّ الصدر فخرجت وردة.

ذاك هو الحبّ، قالت لرشا، أعرف ما الحبّ، أنا ذقت الحب. كانت سعيدة كعصفورة. وظلّت طوال اليوم تنتظره حتى يعود ويقبّلها ويدخلها مغارة العسل وذاك الإحساس. لكنّه غاب ولم يرجع. غاب طويلاً فاشتاقت له. بكت من الشوق ومن الحسرة. نظرت طويلاً في المرآة حتى تعرف سرّ جفائه. ألأنّها شاحبة ونحيلة؟ ألأنّها مهذّبة وخجولة؟ ألأنّها لا تعرف كيف تتغنّج وتلبس ملابس فاضحة كالراقصات وملابس رشا؟ ألأنّها لا تعرف كيف تغريه وتثيره؟

سألت رشا فقالت رشا إنّ الرجل يحبّ المرأة أن تفعل كذا وتقول كذا وتلبس ملابس نوم كالبطّالات. البطّالات؟ طبعًا، طبعًا، البطّالات. هذا هو الرجل، قالت رشا. الرجل يحبّ البطّالات ويحبّ الوقاحة ويحبّ كذا... وسمّت الأشياء بأساميها. قرفت جدًّا من ذاك الكلام، لكنّها رغم ذلك، لبست الشيفون والشرائط وصداري مزوّقة بالدانتيل وضمّخت فراشها بعطر الورد وانتظرت. وحين عاد نظر إليها وابتسم وهو يناولها ورقة العشرة جنيهات ويقول لها: امسحي وجهك وروحي للسينما بيوم النسوان. وخرج من الدار ولم يعد تلك الليلة وثاني ليلة وثالث ليلة حتى كرهته ودعت عليه، وتمنّت له الموت أو الفالج.

لكنّها الآن تبكي من الشوق. تبكي من القهر. تبكي من الغيرة والوحشة. فماذا دهاها؟ لماذا انقلبت؟ وهذا الإحساس، أهو طبيعي؟ أم أنّها مريضة ومخبولة؟ أم أنّ المسألة، باختصار، حظّ سيّئ.

جاء أمين من القدس وفوجئ بخبر اختباء أخيه في حبس الدم. أمّه نقلت الخبر على جرعات خوفًا من أن يتّهمها بالتحيُّز والمحاباة لكلّ ما يقوم به وحيد. هي ما زالت تذكر كم مرّة اتّهمته بالعقوق لمجرّد ذكره المتظاهرين والحزبيِّين كما لو كان يؤيِّدهم. وتذكر كم مرّة أقامت الدنيا ولم تقعدها حين سمعت عن مشاركته في تظاهرة سياسيَّة أو مهرجان خطابي. ولا تستطيع الآن أن تفسِّر لماذا تشعر بالرضا والسكينة لأنَّ أخاه اختار طريقًا أخطر بكثير من المشاركة في تظاهرة أو مهرجان سياسي. هي لا تستطيع أن تفهم سرّ رضاها وكيف حدث، فكيف تفسّره؟ ألأنَّ وحيد أمّها وصلّى معها وذكّرها بأحاديث الرسول والصحابة والطريق القويم؟ أم لأنّه حدّثها بأحاديث شيخ الجبل وجعلها تحسّ أنّها جزء من ذاك الحلم؟ أم لأنّه أعادها لرؤى القمر وذكّرها بطريق الروح؟

مهما كانت الأسباب، تفهمها أو لا تفهمها، فهي تحسّ أنَّ ما اختار وحيد له عذره، بل حتميّته لأنَّه قدره. هذا ما اختار له ربّه. ولولا ما اختار له ربّه هل كانت رأت في وجه القمر صورة وحيد وهو يمشي

في طريق طويل وبيده شعلة عظيمة أضاءت الكون بنور باهر؟ تلك الليلة، ليلة رأت تلك الرؤيا أحسّت بالشعلة تدخلها، تضيء جوانحها وتطربها فتبكي خشوعًا وسكينة.

بمجرّد سماعه الخبر انقلب أمين. أصبح هو المهاجم وهي المدافعة عن سلوك وحيد. كان قد بدأ يتأثّر بأفكار البلشفيكي ابن الجيران، ولهذا صُدم بخبر اختباء وحيد في حبس الدم. فما هذا الاختباء سوى نتيجة لفعل مخيف لا يؤمن به. هل قتل أحدًا؟ فجّر عبوة؟ ألقى قنبلة؟ أم داهم مستوطنة يساريّة؟ بعض القادمين يساريّون، بعضهم اشتراكيّون، بعضهم يؤمنون أنّ السلام حتمية، وأنّ التعايش حتمية، وأنّ العمّال هم القادة بدليل كذا وكذا وكذا. ساقوا إليه أمثلة فاستوعبها: عمّال المحاجر من الطرفين فعلوا كذا في يوم كذا. سائقو الشاحنات من الطرفين أضربوا معًا في يوم كذا. وعمّال الميناء بدون تمييز فعلوا كذا في يوم كذا[1]. فسّروا ذلك أنّ العمّال لا دين لهم ولا قوميّة إلاّ الإنتاج وعدالة الأجر والتوزيع. قالوا له: ما القوميّة؟ ما الدّين، ما اللّون، ما الجنسيّة؟ حواجز صنعوها ليقتسموا خير العالم ويستأثروا بثروات الأرض. من صنع الحرب؟ من صنع السلم؟ ومن كسب الغنائم واحتكرها، سواء في الحرب أو في السلم؟ أهم الفقراء أم السادة؟ في كل دولة وحضارة كان السادة هم المستأثرين بالغنائم، أما الفقراء فلهم القتال في سبيل الغير والتغني بأمجاد الدين والقوميّة. إيمان الناس ليس

---

١ ـ أنظر: "Encountering Nationalism," in **History of Modern Palestine** by Ilan Pappe.

حقيقيًّا، بل هو مصنوع ومعبّأ في شعارات معلّبة ككلّ بضاعة، هو للتسويق. هل تؤمن أنت أنَّ الأديان جاءت لتفرِّق بين الناس؟ هل تؤمن انت أنَّ لونك يمنحك المبرِّر لتقتلني وتستعلي عليّ؟ أو أنَّ لغتي أو ديني يمنحني الحقّ لأن أسرقك وأنهب رزقك؟ هل أنت قابيل وأنا هابيل؟ هل أنت جولياث وأنا داود؟ قصص أساطير ورثناها من الماضي السحيق والخرافة وخيال الناس. نحن في الأرض سواسية نؤمن بالحقّ. دين العمّال هو دين الحقّ والعدالة وحقوق الناس. هذا هو الدين، هذا الإيمان، هذا المبدأ.

في البداية، استمع لكلّ تلك الأقوال بتحفُّظ وفضول شديد ثم ناقش، وهو ما زال يتأرجح بين البينين. قال بشكّ: هذا جميل، هذا رائع، لكنَّ القرار والأرضية ثم التطبيق، أين التطبيق؟ كيف نطبّق؟ في جوّ يقتات على الفرقة والشعارات وإيمان يحلِّل هدر الدم، كيف نعمل في هذا الجوّ؟ كيف تنفذ؟ أنت محدود ومحاصر، أنت أقلّيّة محصورة بين الطرفين. فكيف إذن تصنع سلمًا وأنت في الوسط بين الطرفين بلا رصيد ولا أرضيّة، لا ترضي هذا ولا ترضي ذاك؟ بلا أرضيّة!

قالوا فكِّر، قالوا تأمَّل، قالوا ناقش. وأعطوه نشرات ومقالات ونماذج حتى يقرأ، حتى يفكِّر. وما زال يناقش ويتأرجح بين البينين.

دخل القبو وهو مستغرق في أفكاره فكاد يتعثَّر بالعتبة وأدراج القبو. أدراج مقلقلة مهترئة، بعضها مشروخ ومكسَّر وبعضها مخلوع. أقدام كثيرة مرَّت هنا ومرور الزمن. لم يدخل القبو مذ كان طفلاً صغيراً. كان يلعب مع وداد ويختبئان فيه من عقاب الأمّ حين تغضب. تلك الأيّام كانت صعبة. كانت أمّه سريعة الغضب حادَّة الطبع كثيرة البكاء والتذمُّر. كانت ما زالت ناقمة على الدنيا لفقدان الزوج وضياع المجيديّات وما اقترفه كبير العيلة. ووحيد الكبير كان يعمل. هو ووداد أكثر قرباً، لتقاربهما في السنّ والحساسيّة والبكاء السريع. أمّا أخوه فكان بعيداً لأنَّه أكبر، ولأنَّه مسؤول عن العيلة وبديل الأب. وظلَّ يحتفظ بهيبته ويخاف منه. فكيف يناقشه بما فعل؟ كيف يحاسبه؟

وجده على سجّادة صلاة وكان يسبّح، وكانت لحيته طويلة وشعره منبوشاً في حلقات. سلّم بارتباك وتهيّب، وجلس أمامه على صندوق حديدي من مخلَّفات الجيش العثماني والشيخ قحطان. ظلَّ صامتاً يبحث عمّا يبدأ به الكلام بحيث لا يصطدم أو يُجرح، لكنَّ الكبير دخل الموضوع مباشرة بدون تلكّؤ. قال بهدوء:

ـ أنا في ورطة ولا أعـرف كـيف أتـصـرّف. أنا هـنا منذ أيّام ولا أعرف إن كنت اتّخذت القرار السليم بمجيئي. وجودي هنا فيه مخاطر مـخاطر لكـم، مـخاطر للدار وللحـارة. لـكنّي كنت في وضع غـريب كنت مرتبكًا مهمومًا ولا أعرف كيف أتصرّف. كنت كمن يسير وهو نائم. حين أفقت، وجدتني في هذا القبو.

ظلّ أمين صامتًا بدون حركة. حدجه وحيد بنظرة سريعة وقال بحيرة:

ـ لا أعرف كيف أتصرّف. أنا في ورطة. لا أستطيع أن أبقى هنا في هذا القبو، ولا أستطيع أن أخرج منه. أنا محبوس في هذا القبر. انظر حولك، شمّ الرائحة وتأمّل.

رفع أمين عينيه لأعلى ورأى الحجارة المرصوصة على شكل قوس فيه فجوات وطحالب وكلاّبات تنزل من السقف، وحلقات معدنيّة وسلاسل كان يتعلّق بها وهو صغير ولا تثير انتباهه أو شكوكه. كانت هناك أشياء موجودة منذ القدم، تصلح للعب. لكنّه الآن ينظر ويتأمّل ويفكّر. قال معلّقًا كي يُشعِر أخاه أنّه يسمع:

ـ في هذا القبو كنّا نلعب، أنا ووداد كنّا نلعب.

ابتسم وحيد:

ـ في هذا القبو كنت تلعب! انظر أعلى، أترى الحلقات والسلاسل؟ قال لي الناس إنّ جدّك كان يعلّق ضحاياه في هذا السقف. لو كان يعرف أنّ النزلاء في يوم ما سيكونون أحفاده، سأكون أنا وتكون أنت.

قاطعه أمين:

ـ أنا لن أكون في هذا القبو.

ابتسم بسخرية ومرارة:

ـ لكنَّك معي في هذا القبو؟

لم يجبه وظلّ يفكِّر بما سيقول، كيف يفاتحه، وأبعاد الكلام. سأل بفضول:

ـ هل لي أن أعرف ماذا فعلت؟

هزّ وحيد رأسه عدّة هزّات:

ـ ما فعلت انتهى أمره. ما قصدته هو كيفية الخروج من هذا القبو. أعوان الإنجليز في كلّ مكان. في الليل دوريّات وفي النهار عملاء وجواسيس. كيف أخرج؟

لم يجبه أمين وظلّ يفكِّر. عاد يلحّ بصوت أعلى وقد بدأ يُستثار، ربّما بفعل ما يراه من جمود أخيه، وربّما بفعل السؤال عمّا فعل، وربّما بسبب ضيقه من هذا القبو.

ـ أمّي تقول أن أخرج في وضح النهار مختبئًا في لباس امرأة، يعني غطوة.

قال أمين متأمِّلاً:

ـ فكرة جيِّدة، معقولة.

احتدّ وحيد:

ـ كيف معقولة؟ أنا أتغطّى بغطوة نسوان؟

ـ وماذا فيها؟

ـ أنا أتغطّى مثل النسوان؟!

لم يجبه أمين. نظر إلى يديه وكانتا ترتجفان بغضب وانفعال. بداية انهيار؟ لقد نخرت الوحدة والخوف والترقُّب قلبه.

ـ أنا أتغطَّى مثل النسوان؟ بلحيتي هذه وطولي هذا وعرضي هذا وهذا الشارب. طوال الليل وأنا أحلم. طوال الليل وأنا أفكِّر بما فعلت وماذا أفعل.

سأل بإلحاح أقرب للرجاء:

ـ وماذا فعلت؟

رفع يده مستوقفًا:

ـ لا تسألني.

ـ تخبِّئ عنِّي؟ أنا أخوك، لن أغدر بك. أنت تعرف.

ـ لكنَّك لا تريد أن تعرف.

ـ بلى أريد أن أعرف لأنِّي أعرف.

ـ تعرف ماذا؟

ـ أعرف عن السلاح وتهريبه. أعرف عن الشيخ وتعاليمه. أعرف عن الزيبق وألاعيبه. أعرف، أعرف، ماذا اختلف؟ وجودك هنا يخفي شيئًا أكثر من ذاك، أكثر وأكبر، ماذا فعلت، قل لي ماذا؟

لم يجبه وظلَّ ينظر بعيداً في عمق القبو. فعاد يلحّ:

ـ قتلت؟ سرقت؟ نسفت؟ شاركت بجرم وجريمة؟

ـ أتسمّي القتل في سبيل اللّه ارتكاب جرم وجريمة؟

هتف أمين:

ـ في سبيل اللّه؟ أيّ إله يأمر بالقتل؟ إذن قتلت!

ـ طبعًا قتلت وسأقتل. هذا قتال في سبيل اللّه وليس جريمة. هذا ثورة. هم بدأوا بالنهب. هم قتلونا. فماذا نفعل؟ نسكت، ننخّ، نكتب عرائض واسترحامات؟ هم بدأوا بالقتل، ماذا نفعل؟

تمتم أمين بمرارة:

ـ كلمات الشيخ!

احتد وحيد:

ـ وماذا عن الشيخ؟ ألا يعجبك؟ هي كلماته. أهناك عيب في ذلك؟ أهناك خطأ في ما يقول وما يفعل؟ هو يقول العين بالعين لأنَّ هؤلاء لا يفهمون إلاّ لغة واحدة، لغة القوّة. أهناك لغة تنفعنا إلاّ هذه؟

ـ إذن ندور في دوّامة، هم يقتلون ونحن نقتل، متى نتوقَّف؟

ـ حتى يمنّ اللّه ونغلبهم.

ـ وماذا لو كانوا هم الأقوى؟

ـ نظلّ نحاول.

ـ حتى متى؟

ـ حتى نموت وهم معنا.

ـ ومن يبقى هنا؟

ـ يبقى الغالب.

ـ ومن الغالب؟

ـ صاحب الحقّ هو الغالب لأنَّ اللّه هو الغالب.

وصل إلى طريق مسدود؟ طرفا نقيض. هو في الوسط، لكنّ الوسط بلا أرضيَّة.

التروتسكية

بدأ بنشر مقالات صغيرة في جريدة الحزب. ابن الجيران أقنعه أنَّ ما يفكِّر فيه وما يعبّر عنه له وزنه، فبدأ ينشر. كان ما زال يتأرجح، لكنَّ اجتماعه برئيس تحرير الجريدة، وهو يهودي شيوعي من روسيا، جعله يظنّ أنَّ التعايش بين الشعبين ممكن، بل أكيد.

قال له بلثغة في الرّاء وإيمان مهيب:

ـ نحن الكتّاب والصحفيين مبدأنا الحقّ والعدالة وتحقيق الإخاء، وعلى الكتّاب أن يتَّحدوا مثل العمّال من أجل الخروج من هذا الهراء.

سأله عمّا يعنيه بذاك الهراء، فأعطاه كتبا ومنشورات وقال له: اقرأ، فكِّر ثم أجبني. ولم يعرف ما المقصود بكلمة «أجبني»، لكنَّه قدّر أن تكون تلك بداية محاولة استقطابه لعضوية الحزب، فتلعثم. وهذا ما كان، إذ بعد أيّام طالبه برصد مشروع جديد له صبغة موازية لمقولات الحزب. قال له إنّ الإخوان داخل الحاكميَّة العسكريَّة أبلغوهم أنَّ يهوديَّة تروتسكيَّة من كاليفورنيا واسمها روزا ماير، وريثة السينمائي الثري آرون ماير، مؤسّس شركة مترو جولدن ماير، تبرّعت بملايين الدولارات لإقامة كلّيّة تمريض تحمل اسمها واسم أبيها كتعويض

وتكفير عما اقترفاه بتقديم الدّعم غير المشروط للوكالة اليهو... والهستدروت. وأنّ ما دفع روزا لفعل ذلك هو ما سمعته عن ... اليهودي العراقي الراحل خضوري الذي كان قد نذر مبلغا ضخما لإ... كلّيَّة زراعيَّة للطرفين، يقيم فيها الطلاّب العرب واليهود بدون فصل أ... تمييز، يتعلَّمون فيها أحدث أساليب الزراعة وأنجعها لتصبح فلسط... مثل الجنّة، فيكون المشروع قدوة للجميع. لكنَّ المشروع فشل فورا لأ... الوكالة اليهوديَّة أصرَّت على الفصل، فوُزّع المبلغ على كلّيَّتين، واحـ... في طولكرم للعرب، والأخرى لليهود في مستعمرة كفار طابور، وبذل... تمّ تكريس الفصل بدل التعايش، وتعميق الجفاء بدل الإخاء، وفشل المشروع[1]. وأضاف رئيس التحرير بحماسة:

ـ لكنّ روزا ماير تصرّ على إقامة مشروع يحقِّق ما عجز عن تحقيقه مشروع خضوري الزراعي بإنشاء كلّيَّة تمريض مختلطة تضمّ بنات العرب وبنات اليهود، وأنت تعلم أنَّ البنات أقرب للسلم لأنَّهنّ ألطف وأرقّ.

ابتسم أمين وهو يتذكَّر ما حدث بجريشة فقال بسخرية واضحة:

ـ حقًّا؟!

وأضاف مستبقًا الأحداث:

ـ وماذا لو فشل المشروع؟

قال الآخر بأمل واندفاع:

١ ـ أنظر: Kisch diary, 2 January, 1924.

ـ تّعاد الملايين إلى روزا لتنتج به فيلما ضخما يدور حول كاتبين، عربي ويهودي، مرّا بتجربة رائعة تصلح نموذجًا للتعاون والتسامح بين الشعبين.

سأله أمين مستبعداً:

ـ تقصد خليل السكاكيني[1]؟!

صاح الآخر:

ـ هو بعينه.

وحين رأى نظرات الشكّ قال مشجِّعًا:

ـ اذهب هناك لترى بعينك ثم أجبني. اذهب لترى.

ذهب أمين إلى الاجتماع ليرى بعينه، وفوجئ بما زاد حيرته وربما قلقه، فبالإضافة إلى روزا ماير التي بدت شبه مجنونة بشعرها الهائج وصوتها المدوّي كالمدفع، وجد ليزا أندراوس وسط مجموعة من الصحفيِّين والمصوِّرين، ووجد الحاكم.

١ ـ إشارة إلى تجربة خليل السكاكيني في يومياته: **كذا أنا يا دنيا**.

دخل الحاكم ورأى ليزا فشعّ وجهه بابتسامة عريضة وقال « هالو » بنغمة فسيحة وهو يشدّ على يدها بحميميَّة كما لو كان يعرفها منذ عشر سنين. كانت قد تركت في نفسه أثرًا بليغًا مذ رآها في مظاهرة النساء وأثارت قريحته وخياله. امرأة مثقَّفة جميلة، ذكيَّة، لطيفة بدون تشنُّج، تجيد الإنجليزيَّة بطلاقة، وتلبس ملابس أوروبيَّة بما في ذلك برنيطة. أثارت اهتمامه فأعاد قراءة ملفّها عدَّة مرات وسأل عنها وجمع فيضًا من المعلومات: من أين أتت؟ ماذا فعلت؟ أين درست؟ ماذا تعمل؟ أين تذهب؟ هل لها صديق؟ هل لها علاقات عاطفيَّة أو جنسيَّة؟ هل هي سهلة؟

قال له مرافقه واصف محذّرا:

ـ هذي يا سيِّدي أرثوذكسيّة.

ابتسم الحاكم وقال بثقة:

ـ أعرف، أعرف.

وسرَح خياله في اتّجاه بعيد وأخذ يحلم. كان وحيدًا، في الستّينات ويعاني بوادر بروستاتا وسنّ المينوبوز أي سنّ اليأس، أي

اختلال الهرمونات والتوازن. كما أنَّ العمل في هذا البلد المعقَّد ونغر اليهود يجعل الإنسان بلا توازن حتى لو كان في ريعانه. وضغوط التاج والحكومة وزوجة كاللوح مقدَّدة صارت بلا روح، بلا حياة ولا دمويَّة لأنَّها هي أيضًا سبقته إلى المينوبوز بخطوات سريعة منتظمة، كلّ ذلك جعل من الرجل حالة ضعيفة، لأنَّ الجنرال هو أيضًا رجل، وهو إنسان، وهو وإن كان في الرمق الأخير، ففيه شبوبيَّة تتلكَّأ، ودم ما زال شبه أحمر، وشهيَّة مفتوحة للدنيا بحاجة لما هو أكثر من مدام ريتا وبار خريستو. هو ابن آدم، وهو قرفان ممّا يجري، وهو يائس مما حقَّق. إذ بعد العمر، والتجارب، وأهوال الحرب، والإخفاقات، والتفجُّع على مرور العمر كلمحة سريعة، كشهاب سريع، بلا أمل في المستقبل لأنَّ المستقبل لا يحمل إلاّ الأمراض والتقاعد، أصبح يحسّ أنَّ الحاضر هو أرجوحة، أكلة سريعة، سكرة سريعة، نومة سريعة في القيلولة قبل أن ينام نومة أخيرة بعد تقاعد في حضن يشيخ.

قال «هالو» ثانية وربّت ظهرها بحميميَّة. كانت قد جاءت بمصوّر ومراسل، بالإضافة لعدد كبير من الصحفيِّين من كلّ اتجاه وخلفيَّة. ولم يجد الحاكم في ذلك ضيرًا ما دام الشباب قد أخذوا الإذن من الشرطة، وما دامت ملفّاتهم بلا شائبة وبلا نشاط سياسي يُذكر. كما أنَّ وجود الصحافة في هذا الوضع أمر نافع لأنَّ المشروع بحاجة لتصوير ودعاية حتى ينجح فيما فشل مشروع خضوري بتحقيقه. كما أنَّ زيارة امرأة شهيرة كروزا ماير يجب ألاّ تمرّ مرور الكرام ولا بدّ أن تُذاع وأن تُنشر في كلّ الصحف والإذاعة وتتصدّر أخبار النشرة الأسبوعيَّة التي تصدر عن مكتبه فتدعو الأطراف، كلّ الأطراف، إلى التوافق.

نظر إليها يتأمّلها، وتغاضى عن روزا والصحفيِّين واقترب كثيراً وهو يقدِّم سيجارة مذهَّبة الطرف أخذتها بدون تردُّد ومال عليها ليشعلها. شمّ رائحة رقيقة، عطر بنفسج، واحتكّ خدّه بخصلة سارحة تتأرجح أثارت خيالاته وهزّت بدنه. كان شعرها يغطّي الرقبة، فيه موجات طبيعيَّة، لونه فاتح إلى حدّ ما، بين البنّيّ والأشقر، وعيناها واسعتان بلون عسلي على أخضر، وحواجب وأهداب كثيفة. كانت مكشوفة الرأس، بلا برنيطة، وملابس متقشّفة بسيطة، أبسط بكثير ممّا كانت عليه حين جاءت مع الستّ رفيعة ـ أمّ أحمد في مظاهرة النساء. وقدر أن يكون ذلك تكتيكًا من جانبها لتنال رضا التروتسكيَّة وتأييدها.

ابتسم بإعجاب لمظهرها وللذهن الحصيف المتمرّس، والدبلوماسيَّة، ورأى أنَّ هذه الفتاة تصلح كمديرة للمشروع.

لم يدم انشراح الحاكم واستمتاعه بعبير البنفسج والأنثى لأنَّ من جاء من الوكالة اليهوديَّة كان العسكري المسرّح من الجيش البريطاني الكولونيل كيش. الكولونيل كيش رجل ساخط لأنَّ ماضيه كان بغيضاً فأصبح أبغض. خدم في المستعمرات البريطانيَّة بشكل مرضٍ، وأُصيب في إحدى مهمّاته فنُحّي جانبًا ومُنح منصبًا سياسيًّا كترضية له، لكنَّه ظلّ مكانه، لم يترقَّع، ولم ينل علاوة ترضي غروره، فأصيب بإحباط مضاعف، الأول جسدي والثاني معنوي، فأصبح مجروحًا موتوراً وبحاجة لمن يعرف قدره. في تلك الأثناء التقطه وايزمان وقال عنه: «حالة ممتازة تنفعنا». وسلّمه منصبًا خطيراً في الوكالة اليهوديَّة أعادت

إليه اعتباره إذ أحسّ هنا بين الأضعف، أي بين العرب، أنَّه قويّ متميِّز لأنَّه أبيض وُلد في المستعمرات البريطانيَّة وخدم فيها وعاش هناك بين الملوّنين مثل السيّد، ثم جاء هنا ليكمِّل دوره فاشتغل بالعرب، يرشي هذا ويفسد ذاك بأموال روتشيلد وأمثاله، ونجح جدًّا مع الفقراء ومع الوجهاء وبات يظنّ، بل يؤمن، أنَّ العرب، كلّ العرب، هم شعب حمير بلا أخلاق ولا رادع، وأنَّ فلسطين لا تستحقّ إلاّ الأقوى.

يعرف الحاكم كلّ هذا وذاك عن كولونيل كيش، ليس فقط من ملفّه القديم وتاريخه، بل لأنَّه عمل تحت إمرته في الهند وفيجي وسيراليون، وكان الرجل mediocre أي بلا مزايا تدعمه وترفع قدره فظلّ في الظلّ بلا أضواء، وفي قلبه كثير من الظلمة، فأخذ يقتصّ من الأضعف حين استقوى بأموال روتشيلد والحاخامات، وكان المسؤول عن فشل مشروع خضوري الزراعي، إذ أصرّ على الفصل واستقتل عليه، وبعث برسائل ملغومة لبلفور ولويد وهربرت صموئيل وصلت للحاكم في حينه يقول فيها إنَّ الحاكم يصرّ على أن يعامل اليهود كما كانوا يعاملون الملوَّنين في الهند وفيجي وسيراليون، مع أنَّ اليهود ليسوا ملوّنين ولا محلّيِّين، لأنَّ معظمهم أشدّ بياضًا من الأوروبيِّين وبدم بارد مثل الإنجليز وربّما أبرد، ولأنَّ التعامل مع العرب واليهود كما لو كانوا متساوين في القدر والبياض والأهمية هو أمر مرفوض، بل شائن، إذ كيف يستوي الأبيض مع غير الأبيض والأوروبي بالـnative(١) والمتعلِّم بالجاهل؟ وهل يستوي كولونيل بريطاني بفلاّح هجين يركب دابّة، وخلفه امرأة كالدابّة

١ ـ الساكن الأصلي للبلاد.

على رأسها قنطار حطب، تمشي مشيًا، وهو راكب فوق الدابّة يجلس بوقار وتميُّز لأنَّ الطبيعة غلطت فيه حين جعلته في هيئة رجل! هذا الرجل، رجل الدابّة فوق الدابّة أمام الدابّة، هل يستوي مع كولونيل أبيض جاء من الهند وفيجي وسيراليون، والآن هو الدينامو المحرِّك في الوكالة اليهوديَّة وينعم بدعم روتشيلد والحاخامات ومجلس اللوردات والحكومة؟!

الحاكم يعرف كلّ هذا وذاك من ملفّ الرجل، ويعرف أيضًا أنَّ هذا الرجل هو المسؤول عن فشل مشروع خضوري الزراعي، لأنَّه قسَّم المشروع إلى قسمين، وقسَّم الأموال إلى جزأين، وقسَّم الكلّيّة إلى كلّيّتين، وحتى خضوري بعد مماته صار خضورين. فهل ترضى روزا أن تنفصم مثل خضوري وتصبح روزتين؟ هذا بالطبع غير وارد لأنَّ روزا صرّحت بوضوح أنَّها لن تقبل بتجزئة المشروع، وإذا حصل، فستأخذ مبلغها وتعود به إلى كاليفورنيا وتنتج فيلمًا عن السكاكيني والشاعر اليهودي آلتر ليفين وما حدث أيّام الأتراك في فلسطين. وهذا بالطبع غير مقبول، بل فضيحة. ماذا ستقول في ذاك الفيلم؟ إنَّ الإنجليز بعكس الأتراك شجَّعوا الطائفيَّة والفتنة وإنَّ اليهود سبب الفتنة؟ حينذاك ماذا سيقول بلفور وروتشيلد عن الموضوع؟ ماذا سيقول مجلس اللوردات وجلالة الملك؟ ماذا ستقول الصحافة؟ أمر كهذا لن يحدث، خطّ أحمر، حتى لو أدَّى إلى معركة طاحنة مع الكولونيل لأنَّ سمعة التاج والحكومة وسمعته هو، فوق الكولونيل والوكالة، فوق الانتداب وأرض فلسطين. هذا المشروع هو مشروعه، آخر مشروع قبل تقاعده فهل يفشل؟ لا لن يفشل وسيترك في البلد سمعة طيبة ومشروعًا يمسح به فشل خضوري بمشروع تمريض.

جلست روزا، وهي امرأة مربوعة بشعر هائج تركته كما هو بدون تسريح على كيفه، وبحاجبين بدون تشذيب، ووبر كثيف تحت الأنف مثل الشارب. لكنَّ عينيها مثل نجوم ترسل شذرات فضّيَّة ولسان سليط كالمطرق، وفكاهة سريعة لمّاحة، وضحكة من القلب تضيء الأحشاء وتسعدها وتسعد من يسمع فيتجاوب ويضحك معها بصوت عالٍ لسيل القفشات. وهذا ما أثلج صدر الحاكم وأسعده لأنَّها ستكون حليفة قويَّة ضدّ سيِّئ الذكر الكولونيل كيش.

لكنَّ فرحة الحاكم لم تدم طويلاً لأنَّ المرأة نوَّهت ببعض القفشات ذات المعنى ضدّ الانتداب والحكومة، بما في ذلك الوكالة اليهوديّة. وهذا يعني أنَّ المرأة لا تعبأ ولا تحترم من في السلطة، أيَّة سلطة، بل ربّما هي معقَّدة من أبيها السلطوي الذي قمع طفولتها لأنَّه، ككلّ يهودي كبير في السنّ ومحافظ، كان يتمنَّى ولداً فجاءته بنت. وكان يتمنَّى لو كانت البنت جميلة كأمّها ونساء بيفرلي هيلز فجاءت على العكس، فلا هي بنت ولا هي ولد ولا هي جميلة مثل أمّها ونساء بيفرلي هيلز. كما أنَّها ـ من يوم يومها ـ صعبة وسليطة وفيها قابل

للتحدِّي وعدم الانضباط والشَّراسة. وألعن من ذلك كلّه أنَّها انضمّت وهي بعدُ مراهقة غضّة إلى عصبة مجانين يسمّون أنفسهم بالثوريين التروتسكيّين، وأين؟ في بيفرلي هيلز!

هذه هي روزا ماير، فكَّر الحاكم بتهكُّم. هذا ما كان ينقصه من جانبهم، أي جانب وايزمان وبن غوريون والكولونيل كيش! لكنَّ المرأة إنسانة، وذات نوايا طيّبة وقلب واسع. ومهما كانت صفاتها غريبة وعجيبة، إلا أنَّها أفضل بكثير من المذكورين، هي إنسانة.

افتتح الحاكم الجلسة بكلمة تليق بمقامه كرجل مسؤول متنفّذ والممثل الرسمي للانتداب وجلالة الملك وبريطانيا، فكان موفَّقًا في اختيار ديباجته وكلماته. بدأ بالترحيب بالمرأة العظيمة الإنسانة، ذات التاريخ، لأنَّ أباها هو ماير العظيم الذي أثرى العالم بأفلام الحبّ والعواطف وقصص الشعوب المختلفة، من الرومان إلى الإسبان إلى الألمان إلى الأفغان، بغضّ النظر عن الدّين واللّون والجنسيّة، وبذلك ثار على التقليد والتحيُّز وقدَّم ثورة في الفكر الإنساني المنزّه عن التمييز والتعصُّب. وهذه روزا الإنسانة النبيلة تسير على درب أبيها وتقدِّم لنا، في هذا المكان الذي ينزّ كراهية وعصبيَّة، مشروعًا نبيلاً يصلح لأن يكون نموذجًا للحبّ والتسامح إذ لا شيء في الدنيا أرقى وأسمى من مهنة التمريض الجليلة التي تجسّد روح المرأة وحنان الأمّ، وتذكّرنا بملائكة الرحمة من فلورنس نايتنجيل إلى هداسا إلى القدّيسة تريزا إلى أمّ الأمّهات سيّدة الناصرة أمّ يسوع المسيح.

فجأة، بدون مقدِّمات، بدون توقُّع، قاطعته روزا بصوت عريض مدوٍّ وهي تدور بعينيها وتحدِّق بالصحفيّين:

ـ من هذا الشابّ؟

وحدَّقت في وجه أمين الذي بدا لها غريباً عن الجوّ فطأطأ وانحنى وخبّأ وجهه في أوراقه، وتمنّى لو كانت الطاولة أوسع وكرسّيه أبعد حتى لا يراه أحد، وتحسّ به تلك المرأة التي لم يكن يتوقَّع أن يكون مثلها موجوداً على سطح الأرض، لكنَّ المرأة رأته وابتسمت فابتسم بخجل وخبّأ وجهه.

الكولونيل كيش وجدها فرصة مناسبة للخروج عن السياق لأنَّ التفاصيل سوف تؤذيه. فماذا سيقول؟ أيقول إنَّ الوكالة اليهوديَّة لن ترضى بمشروع مختلط مع العرب، وإنَّ الفصل هو ما يبغون؟ هذا ما فعله بمشروع خضوري ووُفّق كثيراً في حينه، ففصل المشروع وجزَّأه وكانت النتيجة كلّيّتين زراعيّتين، واحدة للعرب في طولكرم وأخرى لليهود في كفار طابور(١). لكنَّ الوضع خطير الآن، فإن قال لا نريد مشروعًا مشتركًا مع العرب ستأخذ روزا مشروعها وتذهب به إلى كاليفورنيا لتنفِّذ به مشروع الفيلم. وذاك المبلغ ليس لعبة، ليس مزحة، عشرة ملايين، عشرين مليونًا، ثلاثين، أربعين وربّما أكثر! تلك الملايين تهرب منهم؟ تُحجب عنهم؟ والمرأة مصرّة ومجنونة. شكلها مجنون، شعرها مجنون، عقلها مجنون، لكنَّ الأجنّ منها جابوتنسكي(٢). جابوتنسكي قال: إذا أصرّت المجنونة أن تعملها وأنتجت الفيلم عن السكاكيني والتر ليفين سنقتلها. واشتدّ الخلاف في الوكالة.

---

١ ـ أنظر: "Negotiations with Friends," in **One Palestine, complete**.

٢ ـ قائد الجناح الأكثر تطرُّفا ودموية في الحركة الصهيونيَّة.

جابوتنسكي يقول سنقتلها، وبن غوريون يقول لا نقتلها. جابوتنسكي يقول هي مجنونة، وبن غوريون يقول أنت المجنون. جابوتنسكي يقول ستفضحنا، وبن غوريون يقول فضيحة أكبر أن نقتلها. وأخيراً أفتاها حاييم وايزمان وقال لكيش: أنت تصرّف. اخرج من المأزق بلباقة. هات الملايين.

وها هو الآن بعمق المأزق، يحاول أن يتصرَّف بلباقة حتى يقضي على فكرة فيلم السكاكيني وآلتر ليفين، وحتى يجيء للوكالة بكلّ الملايين.

قالت ليزا بصوت ناعم:

ـ هذا أمين، هذا معنا. مراسل للاتّحاد لأنَّ المشروع بحاجة لإعلام.

التفتت روزا إلى الكولونيل كيش وخاطبته بلا لقبه:

ـ وأنت يا كيش أين مراسلك وإعلامك؟

تفاجأ بالسؤال لأنَّه ما جاء كي يوافق على المشروع ويروِّج له، بل المهمّ، كما قال وايزمان، أن يظلّ يراوغ ويناور وأن يبعد الإعلام والصحافة حتى يتجنَّب الوضوح والتفاصيل. وفيما بعد، حين ينفرط المشروع، يقولون للغرب وللعالم إنَّ العرب هم من رفضوا. هذا المطلوب. هذا دوره.

قال الكولونيل ببطء وشرود كأنَّه نائم:

ـ نحن أعددنا للمشروع مؤتمراً صحفيًّا في الجامعة العبريَّة. سيكون في استقبالك بروفيسور وايزمان والسيّد بن غوريون وأعضاء الوكالة

اليهوديَّة والهستدروت والصحافة. وسيكون أيضًا ممثِّلون عن الشيوعيين وجريدة الاتّحاد وكلّ الآخرين. جريدة الاتّحاد شيوعيّة، هل تعرفين؟

قالت روزا:

ـ أعرف، أعرف.

أضاف بلؤم:

ـ وليزا مسيحيَّة أورثوذكسيَّة.

نهرته روزا بنفاد صبر:

ـ لا يعنيني إن كانت مسيحيَّة أو بوذيَّة. ولا يعنيني حتى لو كانت تروتسكيَّة. ما يعنيني هو موقفكم. ما موقفكم من مشروعي، مشروع تمريض للعرب واليهود، أم ستفعلون ما فعلتموه بمشروع خضوري الزراعي؟ ماذا لديك؟ هيّا قل لي.

قال مداوراً:

ـ لم نقرِّر بعد. نريد أن نعرف موقف العرب حتى نقرِّر. هم في العادة لا يرغبون الاختلاط بنا وخصوصًا اختلاط البنات.

صاحت بدويّ:

ـ يعني ماذا؟

خفض صوته وابتسم بحرج:

ـ ماذا أقول؟ يعني والله إنِّي أخجل من هذا القول، لكنَّ نساءهم محجّبات محافظات، وبناتنا كما تعرفين منفتحات. هم يتّهمون بناتنا

بالفحش والخلاعة ويصفونهنّ بكلّ الأوصاف الغريبة. هل يقبلون أن تختلط بناتهم ببناتنا فيصيب بناتهم ما أصاب بناتنا من جرأة وانفتاح وتطوُّر؟ أنا أشكّ. أنا أؤكّد أنَّ العرب لن يوافقوا على مشروعك لأنَّ بناتنا وبناتهم مختلفات، كلّ في واد.

هدرت روزا:

ـ يعني ماذا؟

ـ يعني نفهم ما موقفهم ثم نقرِّر.

قالت ليزا فجأة بوضوح:

ـ نحن نوافق.

قاطعها كيش:

ـ أنت مسيحيَّة ولا تعرفين.

تدخّل الحاكم لأوّل مرّة مدافعًا عن ليزا ليكسبها:

ـ أنا رأيت المسلمات يخلعن المناديل ويقذفنها في الهواء بشكل رائع. أنا رأيت هذا بعيني هذه. المسيحيَّات قذفن البرانيط، والمسلمات قذفن المناديل. شيء رائع. المهمّ الآن ما موقفكم؟

أحسّ الكولونيل بكلّ العيون مصوَّبة نحوه، فالتفت إلى الشابّ المنزوي في أبعد مكان على الطاولة:

ـ وأنت يا شابّ، أنت مسلم؟

هزّ أمين رأسه وأجاب بصوت خفيض:

ـ نعم مسلم.

ـ وتقبل أن تكون أختك بين مجموعة يهوديّة؟

ارتبك أمين وهو يتخيَّل أخته المقموعة، ذات العُقد والإشكالات، بين البنات اليهوديّات الأوروبيّات والأميركيّات والكيبوتسيّات. أخته وداد بين هؤلاء حتماً ستضيع. فظلّ صامتًا يفكّر بتوتّر.

رأته ليزا مرتبكًا ففهمت بوضوح معنى صمته، وسارعت لتسند موقفه:

ـ هذه فرصة للتعلُّم. نحن نعرف أنَّ بنات الشرق مختلفات عن بنات الغرب. هذا طبيعي، هذا واضح، ولا مجال للأخذ والردّ حول الموضوع. لكنَّ السؤال هو هذا: هل تظلّ بنات العرب الشرقيّات على حالهنّ، وبنات اليهود الغربيّات على حالهنّ؟ إذا كنّا نرغب بإقامة دولة ديمقراطيَّة تضمّ الطرفين، إذن لا بدّ أن نتقارب. نأخذ من بعض ونتعلّم. بنات العرب يتعلّمن من اليهوديّات أساليب الغرب المفيدة، وبنات اليهود الغربيّات يتعلَّمن من بنات العرب كيف ينصهرن في جوّ الشرق.

انفعل الكولونيل:

ـ نحن ننصهر في جوّ الشرق؟ نحن من الغرب وسنبقى من الغرب. جئنا من الغرب، نحكي ونتخاطب بلغة الغرب، عشنا في الغرب طوال قرون، أسّسنا فيه، خدمنا فيه، أعطينا الغرب ألوف العلماء والفنّانين والحرفيّين. نحن أسّسنا المدنيّة في دول الغرب.

احمرّ الحاكم وارتفع الضغط في رأسه لأنَّه يعود ليستمع لنفس النغمة ولا يجرؤ على القول: طيِّب، اسكت، سئمنا الغرور وسئمناكم.

صاحت روزا:

ـ طيِّب، خلص، فهمنا الموضوع. هذا الموضوع أنا لا أهضمه. يا كولونيل كيش، كنت في الهند وكنت تعرف أنَّ الهنود كانوا حضارة غنيَّة، أغنى بكثير ممّا كنّا. فلماذا التبجُّح والتذكير؟ وإذا كان لا بدّ من التذكير فلتتذكَّر أنَّك كنت هناك كمستعمر. لكن هنا ماذا ستفعل؟ تريد الهند كنموذج؟ ماذا تريد؟ اختر، حدِّد.

والتفتت إلى ليزا وحشرتها:

ـ هل يرضى رئيس تحرير الاتّحاد عن مشروعي؟

قالت ليزا بسرعة وثقة:

ـ الكلّ راض ومتحمِّس.

قال أمين بصوت خفيض شبيه بالهمس:

ـ هو أرسلني.

ـ وأختك أنت ما موقفها؟

حدَّقت في وجه أمين وهي تطقطق على الطاولة بقلم رصاص بعصبيَّة فلم يجبها. عادت تلحّ بصوت عال:

ـ هل تقبل أختك أن تتعلّم فنون التمريض في مشروعي؟

ارتبك أمين:

ـ أختي لم تنه الابتدائيَّة. أختي حامل!

صاحت ثانية بعصبيَّة:

ـ ولو لم تكن أختك حاملاً، ولو كانت بشهادة ابتدائيَّة أو ثانويَّة، هل تقبل أن تتعلَّم فنّ التمريض في مشروعي؟

لم يجبها وظلّ يحدِّق في وجه ليزا لتسعفه كما أسعفته أوّل مرّة. فقالت ليزا:

ـ تقبل، تقبل. اسأليني أنا. أنا على استعداد لأن أملأ كلّيّة التمريض بعشرات المسلمات والمسيحيّات. أنا أتكفَّل بالموضوع، أنا أضمن لك.

قال الحاكم باسمًا:

ـ ليزا تتكفَّل بالموضوع وهي أهل له. ليزا مثقَّفة ونشيطة، معها شهادات، ولديها معارف من كل الأوساط. أبوها كان أشهر تاجر، وأمّها كانت ابنة راهبات تعرف إنجليزي وفرنسي وكانت تعزف الأرغون في الكنيسة. وربما ليزا تعزف أيضًا .

والتفت إليها مداعبًا:

ـ هل تعزفين مثل أمّك؟

التقطت روزا نظرته ولهجته فصاحت بسخرية مرحة:

ـ Oh my goodness!

احمرّ الحاكم وتراجع وقال بلهجة جدِّيَّة:

ـ يقولون دولة ديمقراطيَّة، يعني كالغرب، ماذا نريد أفضل من ذاك؟

تجهَّمت ليزا وقالت بسخرية وعصبيَّة:

ـ لا يا سيِّدي. نموذج الغرب لا ينفعنا. يعني استعمار؟ يعني استغلال؟ يعني انتداب مثل هذا؟ هذا الانتداب أبشع غلطة. ماذا تفعلون هنا في القدس؟ تناكفون هذا وتناكفون ذاك؟ لا تُرضون هذا ولا تُرضون ذاك، فتتَّخذون هيئة الضحية والمظلومين، فمن الظالم؟ قل يا جنرال من الظالم؟ وبالنسبة لليهود، إن ذهب الإنجليز من يحميهم؟

واجهها الكولونيل محتدًّا:

ـ لسنا بحاجة لمن يحمينا.

صاحت بجنون:

ـ اسكت أنت. من وكّلك؟ من وكَّلكم؟ أنتم لا تمثِّلون يهود العالم. من وكَّلكم[1]؟

استفزَّته وأحرجته وأخرجته عن طوره ونسي كلّ ما قيل حول المداورة والمناورة وعدم الوضوح فصاح بها:

ـ وأنت لا تمثِّلين يهود العالم.

ـ ولا أنت.

ـ ولا أنت.

---

١ ـ ٤٪ فقط من يهود العالم كانوا مقتنعين بمشاريع الحركة الصهيونيَّة.

وانتهى الاجتماع وهما يتبادلان الاتّهامات، وكلّ واحد يصيح «لا أنت ولا أنت». فتمّ الاتفاق على أن يؤجِّلا الاجتماع ليوم الغد حتى تهدأ النفوس ويسود العقل. وحتى الغد، يستطيع الكولونيل أن يستشير القادة على أن يعود لهم بالجواب الأكيد: هل تقبل الوكالة اليهوديَّة بمشروع روزا للتمريض؟

قال الحاكم:

ـ خذهم يا واصف إلى المعرض في البلديّة. ضيفتنا هذه لا تعرف القدس. خذها وفرّجها وسلّيها، يعني سلّيها وسلّيهم.

سأله واصف همساً:

ـ يعني هاكوب وإلاّ خريستو؟

همس الحاكم:

ـ أقول البلديّة يا واصف، البلديّة. وبعد المعرض خذها للمبكى والأقصى خلّيها تشوف. فاهم يا واصف ما أقصد؟

هزّ واصف رأسه:

ـ فاهم، فاهم.

وأخذ الثلاثة وأركبهم عربة بحصان مزركش فصاحت روزا كما يصيح كلّ السيّاح: This is amazing, wonderful! وركبت بجوار الحوذيّ لترى الأشياء المدهشة بشكل أفضل. بينما ركب واصف مع ليزا وأمين في الخلفية.

كانت زيارة كالنزهة. روزا قالت عنها Picnic وليزا قالت عنها «فولكلور» وواصف قال عنها «شطحة». أمّا أمين، فكتب في كرّاسته كمراسل ما أعلنت عنه البلديّة: معرض المنتوجات الوطنيَّة.

وهذا ما كان، إذ إنَّ المنتوجات الوطنيَّة كانت كما وصفتها ليزا بدقَّة، يعني فولكلور، يعني تراث، يعني قرية، إذ إنَّ كلّ المعروضات، أو معظمها، كان مصدرها القرية. زيت الزيتون من القرية، والجبن البلدي من القرية، والسمن والعسل والمخلَّل، وصواني القشّ وجرار الفخّار، وكلّ التطريز الفلاّحي بكافّة أشكاله وألوانه، كان مشغولاً في القرية. حتى الصابون النابلسي، وهو فخر الصناعة الوطنيَّة وأكثرها أناقة وحداثة، كان مصدره من القرية. وهذا ما أكَّد لروزا ماير أنَّ هذا الشعب، أو معظمه، جاء هو الآخر من القرية.

لكنَّ رئيس البلدية، وهو رجل في الخمسينات، جميل الهيئة، حليق الذقن، وبشارب شبيه بكلارك جيبل وبلكنة إنجليزيَّة أكسفورديَّة حيث درس وتهذَّب وتفرنج، وأحضر معه أوّل رولز رويس في المدينة، فسَّر لروزا بأنفة وثقة أنَّ ملاحظتها ليست دقيقة ومطَّلعة لأنَّ الشعب الفلسطيني هو شعب مدينة ومتعلِّم. فقالت ليزا مصحِّحة:

ـ الشعب الفلسطيني شعب فلاّح ٧٠٪ من القرية ٧٠٪ يعانون الفقر و٧٠٪ أميّون. نحن نعمل لاختصار الفقر والأمّيَّة، لكنّ الانتداب لا يتعاون. ضرائب وسجون ونقص مدارس ودعم المخاتير لإبقاء الوضع على حاله.

التفت رئيس البلدية لفتة صغيرة، صغيرة جدًّا، ثم أهملها كلّيًّا لأنَّه يعرف من هي ليزا، يعرف ماضيها وحاضرها ويعرف ما تفعل مع الاتّحاد، ومع النساء المبردعات بالبونيه والغطوة والمنديل. هو يقرف من الغطوة والمنديل ويسخر من البونيه والسفور وركن المرأة، ويخجل بالمرأة العربيَّة. لهذا أهمل زوجته أمّ الأولاد، وصاحب يهوديَّة فرنسيَّة تزوَّجها بعد سنتين أو ثلاث وأجلسها بجواره في الرولز رويس وأسكنها في بيت جميل في القطمون. وكان يحبّ، قبل المنصب في البلديّة، أن يقضي أوقات الفراغ ـ وهي كثيرة ـ في بار هاكوب أو خريستو حيث التقى واصف والحاكم وأتباعه وأيضًا بالحلوة الفرنسيَّة، فالتزم بمواعيد دقيقة لحضور الأنس عند خريستو حتى شُيِّع أنَّه نال الحظوة عند اليهوديّة والحاكم، فأسَّس حزبًا يعترض فيه على القوميِّين لأنَّه لا يؤمن بالقوميَّة ولا بالفلاّحين ولا بالأميِّين، لأنَّه متعلِّم ومثقَّف وابن عائلة معروفة دخلت صراعات ومعارك زمن الأتراك وزمن الانتداب على حدّ سواء حتى تظلّ في قمّة الهرم فوق جرف عميق شبيه بالقبو وحبس الدم. وحتى يثبِّت للقوميِّين أنَّه منهم، اقترح إقامة أنشطة ترضي المخاتير والفلاّحين وترضي الحاكم لأنَّ المعرض يعرض ما أنتج من إنجازات تُشيد بمزايا الانتداب وكفاءة الأتباع والحاكم.

ليزا تعرف كلّ هذا وذاك، لذا أهملته وأهملها، وركَّزت اهتمامها على روزا ماير وكلّيّة التمريض الموعودة ـ إذا نجحت، أو فيلم السكاكيني وآلتر ليفين ـ إذا فشلت. المهمّ في الأمر ألاّ تخفق فتعود روزا إلى كاليفورنيا بخفّيْ حنين وكلّ الملايين.

أمّا رئيس البلدية، فقد اعتذر عن مرافقة المجموعة في جولتها ... الخيام والمظلاّت، لأنّه موعود بوفود وزيارات هامّة جدًّا. لكنّه أصرّ عا... دعوتهم لعشاء المساء في البلدية بعد الجولة وشراء ما يبغون م... منتوجات وطنيّة.

قادة الأحزاب جاؤوا إلى المعرض ليعترضوا على أنشطة يقيمها رئيس البلديّة المقرّب من الانتداب والحاكم، ولكي يُشعروا المشاركين في المعرض أنَّهم غير بعيدين عن القرية لأنَّ القرية والفلاّحين هم العزوة وعظم الرقبة، ولكي يُقنعوا الناس أنَّ الأوضاع الحاليَّة تحتِّم على الجميع أن يتَّحدوا وأن ينسجموا لتزول الفوارق والامتيازات، وتقترب القرية من المدينة، وأنَّ على القادة والوجهاء أن يجتذبوا القاعدة الشعبيَّة بما فيها من فقراء وفلاّحين وأمّيِّين حتى يتمكَّنوا من توحيد الصفّ لمواجهة اليهود المنسجمين لأنَّ اليهود ـ كما يبدو ـ بلا فقراء ولا وجهاء ولا حمولات ولا عشائر ولا فلاّحين ولا أمّيِّين. إذن فالعمل على الوحدة تحتِّمها الضرورة الوطنيَّة. وهذا المعرض هو معرضهم وليس معرض رئيس البلديّة والانتداب والحاكم.

وهكذا، انتقى كلّ زعيم من الستّة خيمة كبيرة أو صغيرة، حسب امتداد العشيرة، وبدأ يخطب في القرويّين وبعض الزوّار أنّ الانتداب هو أصل البلاء، وأنَّ على الجميع أن يتَّحدوا وينسوا الفوارق.

والامتيازات وينسوا التحزُّب للعائلات والحمولات والعشائر وينضمّوا بدلاً من ذاك إلى حزبه(١).

رئيس البلديّة المتأجلز، حتى يستقطب زوّار المعرض ويجيّرهم، قام بتخصيص سرادقين ملوّنين جيء بهما خصّيصاً من مصر لهذا الغرض أوكل أحدهما لشيخ جليل من الأزهر، وآخر لفرقة فنون شعبيَّة فيها مواويل ورقص وغناء ومدائح وتوزيع كنافة وتمريّة. فالتمّ الفقراء والمؤمنون في السرادقين حول المقرئ والمدّاحين، فخلت خيام المعروضات من الزوّار والمستمعين. غضب الزعماء وأصحاب البسطات لأنَّ المعروض من الجانبين باظ وكسد ولم يتسوَّق، وهذا ما جعل القرويّين يتساءلون بغيظ وإحباط: جئنا المعرض حتى نسمع شيخ الأزهر ونأكل كنافة وتمريّة؟! ورغم ذلك انضمّوا إلى حشد الكنافة والتمريّة لأنَّ ما يُؤكل أفضل بكثير مما يُسمع، والأفضل من ذلك كلّه رقص وغناء ومدائح.

١ - إبراهيم طوقان عبّر بقوله:

أنتُم العاملون من غير قولٍ ... بارك اللّه في الزنود القويّه
و«بيانٌ» منكم يعادل جيشًا ... بمعدّات زحفه الحربيّه
و«اجتماعٌ» منكم يردّ علينا ... غابرَ المجد من فتوح أميّه
في يدينا بقيّةٌ من بلادٍ ... فاستريحوا كي لا تطيرَ البقيّه

استمتعت روزا في ذاك الجوّ أيما استمتاع، واندمجت فيه فأكلت كنافة وتمريّة، ودارت على الخيام ورأت الزعماء يخطبون كلّ في اتّجاه، والناس يصفّقون بعدم انفعال فقالت بحماس: هذه للحقّ ديمقراطية. وحين حاولت ليزا أن تُفهمها أنّ هذا الوضع لن يخدمنا، نفضت يدها وقالت بسخرية واستهزاء: أنتم البلشفيك مثل الخشبة. أنتم متزمّتون بلا خفّة دم ولا حيويّة. أنتم تعبدون القوالب. لماذا تريدين أن ينضبطوا؟ يحبّون الرقص، يحبّون الغناء، يحبّون الأكل المجّاني، ولا يأبهون بخطب الزعماء، وهذا جيّد، جيّد جدًّا. كما أنّ الزعماء بلا قيود ولا ضوابط، وهذا جيّد، جيّد جدًّا. أم تريدين نظامًا خشبيًّا يمنع الناس من الرقص والصلاة والتجلّي؟ هذه يا ليزا حيويّة، خلق، إبداع، فوضى خلاّقة وحريّة. فليصلّوا. من يُرد الصلاة فليصلّ، ومن يُرِد الرقص فليرقص، ومن يُرِد السياسة فليخطب، من يمنعهم؟ أم أنّ على الجميع أن ينخرطوا في حزب واحد مقدّس يعبدون أصنامًا بشريَّة ويلبسون الكاكي والأحمر؟ على كلّ حال، أنا أرى بين الألوان لونًا أحمر وآخر أسود وآخر أخضر. فما الداعي لكلّ هذا النكد؟ تعالي نرقص، تعالي. وحين رفضت ليزا أن ترقص، التفتت إلى أمين ومدَّت يدها: وأنت يا

شابّ، تعال نرقص؟ فاحمرّ واصفرّ وأشاح بوجهه وتمتم كلمات لم تفهمها، لأنَّها كلمات عربيَّة ولأنَّ الأصوات وضرب الطبلة والفقّاشات واندماج الجمهور وتصفيقه حرمها من سماع شيء آخر غير ما قالته لليزا وأمين ثم لواصف: وأنت يا شابّ، تعال نرقص. فاندفع واصف كالصاروخ وسحب يدها وانطلق بها نحو المغنّين وأخذ يدبك وهي تقلّده والناس يصفّقون ويضحكون ويصفّرون. وحتى الزعماء جاؤوا سرًّا ليكتشفوا ما يدور في سراديق البلديّة فرأوا ما أذهل منطقهم لأنَّ الأمور تمشي بلا حساب ولا منطق، فهل هذا الشعب هو من يرزح تحت الانتداب ويواجه اليهود ويعاني من الفقر والسجون والضرائب؟ أم أنَّ الحرمان ما يجمعهم، رقص وأكل مجّاني ومقرئ وكنافة وتمريّة؟!

على المفترق

فرحت وداد بخروج وحيد. جاءه شيخ من الجامع بجبّة وقفطان ولفّة ضخمة حجبت رأسه والقسم الأعلى من وجهه، وخرج الاثنان في جنازة في وضح النهار. قبروا الميّت ورشّوا التراب على كفنه وقرأوا الفاتحة عن روحه، وبعد ذلك انسلاّ من المقبرة الغربيّة إلى جبل الطور ثم قرية روبين أعلى جرزيم حيث تلقّته المجموعة وذهبوا به إلى شيخ الجليل.

في الصباح، جاء شيخ الجامع وطرق الباب. من خلف الباب حيّا وقال إنّ الأمانة وصلت بسلام، اطمئنّوا. فبكت الأمّ وارتاحت وداد وعادت إلى غرفتها تفكّر بالصالون وبيع الصيغة.

تردّدت قبل بيع الصيغة طويلاً. كانت خائفة من اتّخاذ أيّ قرار. لكنّ زواج رشاد وذهاب وحيد منحاها الشجاعة والجرأة وباعت الصيغة كما لو كانت تقذف بآخر قيد يربطها. ثم اكتشفت أنّ العائق ليس الصيغة ولا قلّة المال ولا وجود وحيد. العائق كان نقص الجرأة وعدم القدرة على تحديد هدف ما. ماذا تريد؟ تريد الصالون؟ أحيانًا تريد وأحيانًا لا تريد. أمّها سألتها بعد أيام عمّا تريد أن تفعل. سألتها بحرج شبه ذليل إن كانت تريد البقاء على ذمّته رغم زواجه، أم تريد الطلاق والبدء بحياة جديدة؟ وحين سمعت ابنتها تهمس بمرارة: حياة جديدة!

قالت مشجّعة بدون اقتناع: بعدك صغيرة وحلوة. بكرة تاخدي أحسن منه. فدخلت غرفتها وأغلقت الباب وجلست على سريرها تعدّ الجنيهات، عشرة، عشرين، خمسين، خمسمائة. خمسمائة جنيه ليست قليلة. مبلغ ضخم يفتح بيتًا، يفتح مخْيَطة محترمة، يفتح صالونًا بأجهزته، يشتري سيّارة تشغِّلها على خطّ القدس بواسطة سائق مثل وحيد قبل زواجه، تشغِّله كموظَّف لديها وتصبح ملاّكة لسيّارة، ثم لسيّارتين ثم ثلاث فكراج ضخم للسفريات. ضحكت باستخفاف من فكرة الكراج فعادت تفكِّر بالصالون والمخيطة والسيّارة من غير كراج.

أمّها قالت إنَّ البقاء على ذمّة رشاد يكفل لها عيشة مريحة من حيث المال وحضانة الطفل، أمّا الزواج فيفقرها. قالت بحقد: أو يفقركم. بلعت الأمّ الإهانة وهزّت رأسها بذلّ وحسرة. لكنَّها، كمحاربة قديمة انتصرت على الرملة والفقر فيما مضى، عادت تشجِّع ابنتها وقالت بعناد: أنت صغيرة وأنا لسّه قويَّة وعندي نفس. نرجع أنا وأنت للخياطة؟ لم تجبها وعادت تفكِّر بالموضوع: مخيطة، صالون أو سيَّارة؟ ثم جاء أمين وحكى عن مشروع روزا ماير للتمريض فأضافت إلى قائمتها مهنة جديدة: تمريض أم مخيطة أم صالون أم سيّارة؟

استشارت أمين حول التمريض فأجاب معتذرًا أنَّ التمريض بحاجة لشهادة. سألت باهتمام: ابتدائيَّة؟ قال بأسف وهو يعرف ما ترمي إليه: على الأقلّ ابتدائيّة! فقالت بنزق: أرجع للمدرسة وأتعلَّم. حدَّق في بطنها وسأل بإشفاق: مدرسة يا وداد؟ قالت بعناد: الجمعيّة.

لم يناقشها. أخذ يحكي عن كتاباته وعن ليزا حتى يطمئنها على عمله، لأنَّ وظيفته تغنيها عن التفكير بالعمل والكدّ والخروج من البيت

وكأنَّه بات مقتنعًا أنَّها لا تصلح إلا للبيت. فأحسّت بالغيرة من عمله وكتاباته واهتماماته واهتمام أمّها بوظيفته وسؤالها المتجدِّد عن ليزا.

عادت تتذكَّر ليزا وما كانت تقول عن العمل والجمعية ودورات التأهيل والسكرتاريا. وتفاجأت كيف باتت تفكِّر بتلك الاقتراحات بدون امتعاض ودون استهجان. الآن وقد باتت مهجورة، بدون دخل، بدون رجل، بدون مهنة تعيِّشها، وبطفل يعيق حركتها، وعدم القدرة على تحديد هدف تسعى من أجله لتحسّ بأنَّها ذات قيمة، ما عادت تحسّ بكرامتها. أيّة كرامة لامرأة مطلّقة مهجورة؟ أيّة كرامة لامرأة بدون علم، بدون شهادة؟ أيَّة كرامة لامرأة بدون عمل، بدون دخل، بدون وظيفة، بدون القدرة على اتّخاذ قرار؟ وفوق ذلك كلّه، بطن يعيق حركتها ويلبِّدها ويبلّدها، ويجعلها تحسّ أنَّ الزمن توقّف عند حدود الولادة والرضاعة ورعاية الطفل والأمومة. هي لا أكثر من ولادة، هي لا أكثر من مرضعة، هي لا أكثر من خدّامة للطفل، وطبيعتها المحدودة بالولادة وحدود البطن. البطن حبس، الطفل حبس، الأنوثة حبس. لو لم تكن أنثى ضعيفة هل كانوا يفعلون ما فعلوا بها؟

ما زالت تحسّ أنَّها غُدرت، أمّها ووحيد والعيلة، كلّ العيلة، بمن فيهم أمين، غدروا بها. هي تكرههم، تغلي بالحقد والغيرة. تغار من أمين، تغار من عليا بنت الجيران، تغار من كلّ فتاة في المدرسة ومن لم تمرّ بتجربة الزواج والحمل والطلاق وما زالت تحلم بالمستقبل. لكن ما نفع كلّ هذا الحقد والتخبُّط؟ هذا لن يخفِّف أزمتها أو يجد الحلّ.

عادت تفكِّر بالصالون والخياطة والسيّارة ثم التمريض. وفي كلّ مرّة تعتقد أنَّها وصلت لقرار تعود لتصطدم بولادتها. متى ستلد؟ ولد

أم بنت؟ كيف تربّيه؟ من يصرف عليه؟ هل ترميه لأبيه وتتحرَّر منه كما نصحتها عليا، أم تبقيه وتتقيَّد به؟ أحيانًا تحنّ وتتحمَّس لمجيء الطفل، وأحيانًا تكرهه وتحقد عليه وتتمنَّى موته والخلاص منه. أحيانًا تحلم بالطفلة ذات العينين الخضراوين وفم الياقوت وشعر الذهب، وأحيانًا تغضب وتتمنَّى لو أنَّها ماتت وارتاحت من الحياة وما فيها.

أمّها ما عادت تسألها ماذا ستفعل. يئست منها، خافت منها، خافت عليها وعذرتها. إحساسها بالذنب أسكتها، كسر شوكتها وأضعفها. اختفاء وحيد هزّ ثقتها. مع كلّ اعتقال أو عملية شنق تسمع عنها تحسّ بالدنيا تدور بها. فقدان وحيد كان الضربة القاصمة فهدّتها. ما عاد شيء يعزّيها. حتى زيارات أخيها المنتظمة ما عادت تهدّئها وتطمئنها. أخوها ما زال مقتنعًا أنَّ ابنه وابنها يمرّان بنزوات شبابيّة وأنَّهما سيعودان بعد انقضاء لفح النزوة، فتنظر إليه كما لو كان طفلاً صغيرًا لا يفهم أمور الدنيا وأسرار الناس. ما زال غبيًّا سطحيًّا محدود الذكاء والفراسة، أمّا هي فتفهم وتعرف وتتوقّع. حدسها يقول إنَّ ما كان انتهى وقته وإنَّ الزمان لن يرجع بهم وإنَّ ما انكسر ما عاد ينفع أو ينصلح، وإنَّ الدنيا ستعود بها إلى دنيا الفقر والخياطة. لكنَّ أمين يذكّرها أنَّه بات شابًّا، لديه وظيفة، وظيفة صغيرة، وغدًا يتخرَّج ويترقّى ويصبح بوظيفة كاملة ودخل معقول. يقول لها إنَّ الدنيا ما زالت بخير، ووحيد بخير، وسمير بخير، ووداد بخير وإنَّ الوقت سيساعدها لتجد حلولاً عمليّة، فتسكت وتقول: يسمع منك، اسمع منّي، احك مع أختك واهدها. فيهزّ رأسه ويعدها ثم ينسلّ من باب الدار ويعود ليكتب عن الأحزاب والبلدية ومعرض المنتوجات الوطنيَّة، وكلّيّة روزا للتمريض.

جاءت عليا وزفّت الخبر. قالت ستخطب وتتزوَّج في أسرع وقت. ابن خالتها جاء من الشام وخطبها وهي سعيدة لأنَّها تعرفه وتعرف أمّه وتعرف بيته وتحبّ الشام. الشام هناك خضرة ومياه وبردوني وحياة مفتوحة وشمّة هوا. الشام هناك أرقى وأحسن. الشام هناك مثل الجنّة. أسواق الشام، نزهات الشام، سينمات الشام، مشاوير الشام. والتفتت إلى وداد وسألتها: تيجي للشام تحضري عرسي؟

لم تجبها وداد. كانت مذهولة من الصدمة. أحسّت أنَّ عليا تغدر بها كما فعل الجميع. غدر جديد، خيانة جديدة، رفيقة كانت تُضحكها وتُؤانسها وتحلم معها وتشجِّعها. وها هي الآن تغدر بها وتغادرها. عليا كانت من شجَّعها على أن تحلم. عليا كانت من شجَّعها على أن تسخر من إخوتها، من تشنُّج وحيد، من وعود أمين المبتورة، من قيم الأمّ وقيمتها. فما معنى العيب؟ ما معنى الطلاق؟ ما معنى الموضة ولبس الذهب وفتح الصالون. معنى الصالون هو أن تعمل بمهنة مفيدة وتجني من المال ما يكفيها بدل أن تقعد بدار العيلة بانتظار القرش من جيب الأخ. وهذا الأخ إذا مات أو تزوَّج أو نسيها فمن أين تعيش؟

وها هي الآن تفعل ما فعلوا وتنساها. بعد كلّ ما قالته ووعدت... ستغادرها. إذا ذهبت عليا وذهب الصالون فمن يبقى معها يشجّعها ويحلم معها ويسلّيها؟ لولا عليا هل كانت تحلم بالصالون؟ هل كان... تحلم بالمخيطة والسيّارة؟ لولا عليا وتشجيع عليا لما أخذت القرار ببيع الصيغة لفتح الصالون أو المخيطة والسيّارة. والآن، وعليا تزفّ الخبر، أحسّت فجأة بأهمّيّة الصالون وبات كما لو كان حلم الأحلام والخلاص الوحيد من واقعها فصاحت بغضب:

ـ طب والصالون؟

حملقت الأمّ وسألت بفضول:

ـ أيّ صالون؟

في تلك اللحظة وقد باتت تحسّ أنّها فقدت آخر نافذة تنظر منها خارج عالمها الضيّق وأسوار المكان، ما عادت تأبه بكتم السرّ وصاحت بصوت متهدّج:

ـ أنا بعت الصيغة يا عليا، بعت الصيغة عشان الصالون. صار الصالون حلم حياتي.

سألتها الأمّ ثانية وهي تتلفّت بين الشابّتين بدهشة ووجوم:

ـ أيّ صالون؟ أيّ صيغة؟!

وتأمّلت معصمي ابنتها وسألت بذهول:

ـ بعت الصيغة؟

قالت عليا وكأنّها تدفع عن نفسها تهمة خطيرة:

ـ كنّا نفكِّر. كانت فكرة. وداد ما كانت متحمِّسة. كل يوم أقول يا اللّه نبدأ تقول لي بعدين، تقول لي بطني، تقول لي ظهري، تقول لي الصالون والحلاقة قلّة قيمة. فجأة الصالون صار له قيمة؟! أمّا غريبة!

بدأت وداد تبكي وتنشج كما لو كان الصالون هو الأمل الوحيد الذي اعتمدت عليه ليخلِّصها مما هي فيه، ونسيت تمامًا أنَّ الصالون كان واحداً من عدّة مشاريع أو أحلام أو أوهام تراودها. كما أنَّ سعادة عليا نخزتها وفجّرت الجرح. فها هي عليا ستخرج من هنا وتذهب هناك حيث الأفراح والحبّ والحنان والزواج السعيد وجمال الشام واتّساع الشام ونزهات الشام، وهي هنا بدار العيلة وأسوار نابلس.

قالت عليا بحرج وارتباك:

ـ واللّه يا خاله ما كنت أقصد.

هزَّت الأمّ رأسها وقالت بوجوم:

ـ أعرف، أعرف.

وأضافت كلمات لطيفة لتهدئة الجوّ وإشعار الفتاة أنَّ الموضوع ليس مهمًّا، وأنَّ المهمّ هو أن تجد ما يسعدها، وأنَّ الصالون فكرة سخيفة لأنَّ الصالون هنا في نابلس يعني حلاقة، يعني تزويق، يعني موضة. والتفتت إلى وداد وحدجتها:

ـ نسيت يا وداد شو قلّك وحيد؟

فارتفع صوت وداد بالنشيج، ودخلت غرفتها وأغلقت الباب ورفضت أن تخرج لتودّع صاحبتها، أو أن تقول كلمة «مبروك» لأنَّ

الإِحساس بالوحدة وانسداد الطريق جعلها تحسّ أنَّ الخيبة لن تتركها وأنَّ سوء الحظّ سيلاحقها، وأنَّ الحياة باتت لا تُطاق ولا خلاص إلاّ بالموت.

في ذاك المساء، والناس نيام، والدنيا سكون، تسلَّلت نحو المطبخ وشربت علبة أسبرين بكاملها وعادت لتستلقي على السرير بانتظار الموت.

لم تمت. قال الطبيب إنّ الأسبرين ميّع دمها لكنّ النزيف سيتوقّف لأنّ الأسبرين لم يستفحل.

حدّقت في السقف، في الستائر، لون الجدران، رأس الطبيب وقبّعة الممرّضة من خلفه. كلُّه أبيض. همست بضعف:

ـ أنا لازم أموت.

اقترب الطبيب من وجهها وهمس برقّة:

ـ صغيرة على الموت. واحدة صغيرة وحلوة مثلك صغيرة على الموت.

رنّت كلمة «حلوة» في أذنها وأخذت تدور كدوّامة. حلوة، حلوة، وكرّرت الممرّضة من خلفه: صغيرة وحلوة! سألها الطبيب باسماً:

ـ عمرك ١٦؟

لم تجبه واستدارت بوجهها نحو الشبّاك. علّق مازحاً:

ـ عمرك ١٦ يا نيّالك! خذي عشر سنين من عمري وخذي كل شهاداتي.

ضحكت الممرّضة للنكتة لكنَّها لم تتجاوب، ظلَّت تنظر عبر الشبّاك وترى السماء من خلف الزجاج وورق الكينا وعصفور يقفز وحمامة، ثم سرب حمام.

قال الطبيب:

ـ واحدة صغيرة وحلوة مثلك لازم تكون زيّ العصفور. شايفة العصفُور؟ شايفة الحمام؟ لو أنا عصفور!

لم تجبه، وظلَّت تنظر عبر الشبّاك وتراقب العصفور مع سرب الحمام فوق الكينا. سماء زرقاء، ورق الكينا، لون العصفور، ذنب العصفور، ذيله يهتزّ وسرب الحمام.

قال الطبيب:

ـ لو أنا عصفور!

التفتت إليه ورأت رأسه، أبيض كالثلج، ورأت الممرّضة من خلفه. وقفت الممرّضة في النافذة فبدت قبّعتها كحمامة، حمامة ضخمة، حمامة بيضاء وتتضاعف. امتلأ العالم بالأبيض. خرج الطبيب وهو يردِّد:

ـ لو أنا عصفور!

* * *

جاءت الممرّضة وقالت بمرح:

ـ النزيف انقطع، بكرة تقومي زيّ الحصان.

رأتها في الضوء كغلالة، رأسها أبيض، شعرها أبيض، جسمها أبيض، وفوق رأسها قبّعة بيضاء كحمامة. سألتها بضعف: أنت سعيدة؟ حقنتها بالإبرة وابتسمت. همست بأمل: يا نيّالك!

ولدتني وداد، لكنَّ أمّي الفعليَّة كانت ستّي. أمّي كانت شبه طفلة، وكانت تحسّ أنّي امتداد لماضيها وقيود الزواج فنبذتني. لم يكن النبذ كلّيًّا لأنَّ الأمومة ترغمها أن ترضعني، وبعد الرضاعة تلقي بي في حجر الأمّ وتهرع لتعود للمستشفى ودرس التمريض. كان المستشفى هو الملجأ من واقعها وجوّ العيلة. ظروف البلد وظروفها هي وظروف الطبيب هي التي خلقت الفرصة فاقتنصتها. كانت الفكرة تراودها مذ سمعت عن التمريض من أخيها أمين. أمين لم يشجّعها لأنَّ التمريض، كما قال لها، بحاجة للعلم والتفرّغ، وهي لا تملك أيًّا من ذاك. لكنَّ الطبيب همس لها أنَّ المشروع، مشروعه هو، لا يتطلَّب سوى الالتزام بالسرِّيَّة وعدم البوح بأهدافه. مشروعه كان إقامة مستشفى للتوليد، وتحت التوليد تتمّ معالجة المصابين والمطلوبين، لأنَّ المستشفى الحكومي حيث وُلدت، وهو الوحيد في المدينة، عرضة للاقتحامات والاعتقالات وسحب المصابين من الأسرّة وحتى من غرف العمليات ونقلهم للسجون والمعتقلات. لكنَّ مشروعه كي ينفّذ بحاجة للدَّعم، فمن أين يأتون بذاك الدَّعم؟ قال الطبيب حالمًا: لو أنَّ كلّ واحد في المدينة [illegible] بقرش واحد لجمعنا قروشًا كثيرة ونجح المشروع. قالت بحماس [illegible]

عشرة قروش. وحين رأت الطبيب صامتًا لا يوافق قالت بخجل: طيِّب شلن. ظلَّ صامتًا فأردفت: عن كلّ شهر. فأسموا المشروع مشروع الشلن.

انتشر الخبر في المدينة، وفهم الناس، دون تفسير، أنَّ المستشفى لهم هم، للمدينة، وأنَّ الممرّضات والأطبّاء لن يتلقّوا أجورهم وأوامرهم من الانتداب والحكومة، وأنَّ خدمات المستشفى تبدأ بالتوليد وأمور أخرى معروفة سكتوا عنها. هذا إذن مشروع الشلن، مشروع وداد.

بدأت تعدّ نفسها لمشروع الشلن. بدأت من الصفر. عادت تدرس، تعمل وتدرس. قال الطبيب إنَّ العمل سيعلِّمها، وكذلك دروس الإنجليزيَّة والعربيَّة وكيمياء وأحياء وتضميد الجروح وحقن الإبر. كانت تخرج مع شقّ الفجر، بدون فطور، ولا تعود إلاّ في الليل. وحين تعود تلقي عليّ نظرة سريعة وتقبِّلني وتسأل عنِّي ماذا فعلت وماذا أكلت، ومن غيّر لي، وتتفقَّد رأسي وأسناني ولون عينيّ كما لو كنت أحد المصابين. تفتح فمي ثم أذني وتقول بجدِّيَّة ورصانة: صحّتها عال، وتهرع لتعود للمستشفى.

بدأوا التحضير لمشروع الشلن فاستأجروا داراً قديمة تظلِّلها شجرة كينا. بضع غرف مع بهو كبير وساحة مبلّطة أمام الدار تطلّ على المدينة والشارع المؤدِّي لقمّة عيبال وعصيرة. عصيرة الشماليَّة هي القرية المطلَّة على نابلس ومنها تجيء القرويّات محمَّلات باللبن والتين والعنب والصبر وأخبار الشباب، وأحيانًا يكون تحت العنب والتين رسائل مشفّرة ومنشورات، وأصابع ديناميت.

أصبح المشروع مشروع وداد. باتت الدار القديمة هي الملتقى حيث يجتمع المثقّفون ليناقشوا أمور الدنيا والانتداب وتقييم الوضع، ويجيء السياسيُّون والقادة لإثبات الوجود، وتجيء القرويّات بأخبار الشباب. في الصباح تذهب لتدرس وتعمل في المستشفى، وبعد الظهر تذهب للدار القديمة لإعداد المكان لمشروع الشلن. في المستشفى تحضِّر أحيانًا عمليّة لأحد المصابين، أو تغيِّر عن جرح لأحد الثوّار قبل أن تعود إلى البيت لترضعني. وأثناء الرضاعة تصف لستّي ما شاهدته وما سمعته وما قامت به وما سيكون عليه مشروع الشلن.

في البداية، كانت ستِّي تعتب عليها وتلومها بصوت خافت. لم تكن تريد المستشفى ولا مشروع الشلن ولا أيّ شيء له علاقة بالتمريض. مهنة التمريض مهنة حقيرة، كانت تقول: للخدّامات، لأنَّ التمريض يعني خدمة وقلّة قيمة، وفيه انكشاف على المرضى وعلى العمّال. ماذا تلبسين في المستشفى؟ تقول لوداد. ماذا تعملين في المستشفى؟ مع من تتعاملين في المستشفى؟ ماذا يقولون في المستشفى؟ كانت تسأل ووداد تجيب بصبر وهدوء دون أن ترفع صوتها أو تتأفَّف. كانت تعرف أنَّها بحاجة لدعم الأمّ، على الأقلّ لتربيتي. وكانت تعرف ممّا سمعته من النقاشات أنَّ الجيل القديم سيتغيَّر إذا غيَّرناه، وأنَّ التقليد سيتغيَّر إذا كسرناه، وأنَّ الثورة تعني التغيير، وأنَّ التغيير يبدأ بالنفس، فواظبت على تغيير تلك النفس، نفسها هي، ولم تشملني. كانت مشغولة بما تحلم وبما تعمل وتكسير القيود. وكنت أنا ضمن القيود فكسرتني.

بدأت وداد تحكي نحوي، يعني ثقافة، يعني سياسة، يعني أفكار من تسمعهم. بدأت تلتقط تلك الكلمات ذات الأبعاد وتردِّدها. صارت تتعمَّد أن تجلس خلف الطبيب أثناء النقاش. تسمعه يقول، الأمّيّة. تسمعه يقول، الرجعية. تسمعه يقول، تغيير النظام. سأل أحدهم، عن أيّ نظام نتكلَّم، هل لدينا نظام أو دولة؟ قال الطبيب: نظام العيلة، نظام التعليم، نظام الأخلاق والسياسة. تبدأ الأخلاق من العيلة، العيلة أساس. والسياسة؟ سألوه بشكّ. السياسة نظام يبدأ من تحت. ماذا تقصد؟ أقصد الأمّ، أقصد التربية في العيلة. الأمّ أساس. أصل الإنسان في مدرسته، وقبل المدرسة في أمّه. نبدأ من تحت.

قالوا أشياء حفظتها. بعضها فهمته، وبعضها ردَّدته كالببغاء، ثم مع الوقت صارت تفهم.

كبرت وداد، وكبرت أنا، وكبرت ستّي. كبرت وداد بعيداً عنّا، وأنا كبرت بعيداً عنها. صارت وداد أختي الكبرى، أو بالأحرى صارت وداد أمّ ستّي، وستّي أمّي، وأنا نشأت على الفوضى بين جيلين، جيل يتغنّى بالتغيير، وجيل يتشبَّث بالماضي وفتح القمر وعلاء الدين. لهذا أصبحت مثل خالي أمين، بين البينين، يعني الوسط، بلا أرضيَّة.

قبل المؤتمر الصحفي أخذوها إلى مستعمرات ومختبرات ومزارع، وزوّدوها بكافّة المعلومات واقترحوا عليها، بل أصرّوا، أنَّ مكانها هنا في قلب القدس لأنَّ اليهود، كلّ اليهود، أبناء الأرض وورثتها، وعليهم، بل واجبهم، أن يعودوا إليها ليكونوا قاعدة النور والحضارة في هذا الشرق. لم يتركوها لحظة واحدة تنعم بالسلام لأنَّ الحفلات والاحتفالات وكلّ الولائم والتوجيهات كانت تحاصرها من كلّ جانب، وتجعلها تحسّ كما لو كانت طفلة قاصرة في طور النموّ وبحاجة لوصاية العارفين والأولياء. وهذا ما ذكّرها بوالدها الذي أرادها أن تكون حلوة ومهذّبة وأنيقة مثل أمّها وبقيّة النساء في بفرلي هيلز. هناك أخطأ والدها، كما أخطأ هنا أرباب الحفل.

تلفّتت حواليها فرأت القاعة تغصّ بالمدعوّين. كلّ القادة وكلّ الزعماء ورجال الحكومة الإنجليز وقناصل الدول الغربيّة مع زوجاتهم الأنيقات بأحدث البرانيط والتسريحات، وعدد لا يستهان به من الصحفيّين. كان الهدوء والصمت يسيطران على الحضور ولا شيء يُسمع في القاعة إلاّ صوت وايزمان الأنثوي وهو يفسّر بطريقة

الدبلوماسيَّة أسباب رفض أيّ مشروع مشترك مع العرب لأنَّ اليهود جاؤوا من بيئة مختلفة وفكر مختلف، وحضارة أبعد ما تكون عن جو العرب وقدرتهم على الاستيعاب.

قال بتأنٍّ وتأمُّل:

ـ نحن هنا كأوروبيِّين. على الرغم من أنَّ جذورنا شرقيَّة، إلا أنَّنا نعود محمَّلين بحضارة الغرب. فلسطين ستكون الدرع الواقي لأوروبا. سنفعل هنا ما فعلته بريطانيا في الهند. سنضيء الشرق.

التفتت روزا للحاكم، وكان ملاصقًا لها، وقالت همسًا:

ـ أهذا ما جئت من أجله؟

لم يعلِّق، بل ابتسم ابتسامة محايدة حاول من خلالها أن يبدو ودودًا لروزا، وودودًا لأرباب الحفل وكاميرات الصحفيّين. لكنَّه كان مثل روزا يشعر بالامتعاض، وربّما باليأس، لأنَّ مشروع روزا للتمريض لن يتحقَّق في هذا الجوّ. كما أنَّ روزا العصابيَّة، على كلّ ما فيها من طيبة ومثالية، غير مؤهّلة للعب دور دبلوماسي قادر على ردم الفجوات ومدّ الجسور. وربّما كان السبب أصلاً مثاليَّتها. في هذا الجوّ، هل بالإمكان أفضل ممّا كان في كلّيّة خضوري والهستدروت؟ والمشكلة كما يراها ويستوعبها أنّ روزا ليست الوحيدة في التحليق، بلا أرضيَّة. ليزا أيضًا، وبعض الكتّاب والصحفيّين، مثاليّون حالمون، بلا أرضيَّة. وهو أيضًا، ألم يصبه ما أصاب إبراهيم حين فكَّر، مجرّد تفكير، أنَّه قادر على إحداث تغيير في هذا الجوّ؟ حين يقارن بين الجانبين ينتابه إحساس مدرّب خيول يحاول ركوب حصانين في نفس الوقت، حصان أبطأ ممّا يجب،

وحصان أسرع ممّا يجب، وهو المشدود بين حصانين. حين يقارن بين بطء العرب وجموح اليهود، قلبه ينحاز لإيقاع البطء. لماذا؟ ألأنَّه ما عاد شابًّا مندفعًا قويّ المزاج؟ أم لأنَّ المرأة الجميلة خطفت قلبه وجعلته يهيم؟ صحيح أنَّه في البداية كان يحسّ أنَّ العرب شعب قاصر، جاهل، قبيح، متخلِّف، لكن الآن، وبعد أن انغمس وعاشرهم، دخل فيهم، عاش بينهم، أكل وشرب ودرس الأوضاع، بات ميّالاً إلى جانبهم. هذا الإحساس المتصدّع أليس غريباً؟ بل طبيعي، طبيعي جدًّا. قال له رئيس إحدى اللِّجان الملكيَّة: أنا أعذرك. نحن غلطنا. ظلم فادح. حتى المحكمة في لندن أدانت بلفور. ظلم رهيب، ضرائب وتهجير وإفقار الناس. خيانة حلفاء وقفوا معنا. من أجل من؟ ذاك المستعصي على الإرضاء؟ ذاك النمرود المتمرِّد؟ وتذكَّر قولاً للجنرال: «احذر من عبد يتسيّد».

قال وايزمان وهو يفرد كفَّيه بدعة واستسلام:

ـ وها نحن نمدّ أيدينا ونقول نعم لهذا المشروع. كلّيّة روزا للتمريض. هذا جميل، هذا رائع. اسمك سيكون يا سيِّدتي كاسم هدّاسا. سيكون لنا صرحًا آخر مثل هدّاسا، مؤسّسة تعنى بالأجساد وبالأرواح على حدّ سواء. أيد بيضاء تداوينا وتلملم جراح اليهود في هذا الشرق.

وصفَّق بيديه فعَلا التصفيق. فاحمرّ وجه روزا وتكهرب وتوقّفت عن النشّ وبدأت تلهث. كان هذا آخر ما توقَّعته. كانت تتوقّع أن يقول «لا» وينتهي الأمر عند هذا الحدّ فتتصرّف. كانت تتوقَّع أن يكون واضحًا كما كانت واضحة في شروطها ونواياها. منذ البداية قالت لهم إنَّ المشروع هو للطرفين، وإذا تخلّى أحد الطرفين فإنَّ المشروع لن ينفَّذ. لكنَّه هنا، في هذا الحفل، أمام الناس، أمام الشهود، والقناصل، والصحفيِّين، ورجال الحكم والحكومة، يضعها في موقف لا تستطيع التراجع عنه. يقول اليهود ثم اليهود ثم اليهود ولا يجيء بذكر العرب. وهذا ما كانت قد حذّرت منه، لكنَّه تغاضى كليًّا عمَّا

اشترطته. أمام القناصل والصحفيّين وهذا الحفل هل بالإمكان أن تقف وتقول: أنت مخطئ؟

نظرت حولها فالتقت عيناها بعيني زوجة قنصل. امرأة شقراء ببرنيطة وسترة أنيقة كانت تبتسم بلباقة. هزّت المرأة رأسها وهي تصفّق وتشدّ شفتيها المسحوبتين باستحسان، كما لو كانت تقول: برافو، برافو. فاستدارت ليزا وخبّأت وجهها في مروحتها وغمغمت كلمات غير مفهومة، فسألها الحاكم متجهّمًا وهو يصفّق: ماذا قلت؟ هزّت رأسها وقالت: لا شيء.

انتهى التصفيق فواصل وايزمان مخطّطه وأكمل شرحه:

ـ هيّأنا للمشروع كلّ التدابير. وفّرنا الأرض ووفّرنا الإدارة والكادر ولم يبق إلاّ أن نضع حجر الأساس ونباشر. الأرض طبعًا هي ما نحتاج، والأرض هنا والخرائط مع السيّد كالفاريسكي. السيّد كالفاريسكي رجل معروف في هذا المجال. السيِّد كالفاريسكي، من خلال عمله في رابطة المستعمرات اليهوديّة، تمكّن من شراء ألوف الدونمات وكان له الفضل في تأسيس العديد من المستعمرات. السيِّد كالفاريسكي سيشرح لنا أين سيقام المشروع، على أيّة أرض، ومزايا الأرض، وماذا نحتاج. سيّد كالفاريسكي تفضّل هنا، الساحة لك.

نزل وايزمان من المنصّة وجلس بين القناصل في الصفّ الأوّل، فاعتلى المنصّة رجل [illegible] في الستّينات.

السيّد كالفاريسكي خبير زراعي من بولندا. هاجر قبل أكثر من أربعين سنة، ومنذ قدومه إلى فلسطين وهو يعمل في شراء الأراضي

وإخلائها من الفلاّحين، وعن طريق الأرض كانت له علاقات واسعة مع الملاّكين والفلاّحين على حدّ سواء. أكل معهم، شرب معهم، واطّلع على دخائلهم وعرف نقاط ضعفهم. وبفضل ذاك الاحتكاك تولّد لديه إحساسان متناقضان تجاه العرب. الأول أنَّ الملاّك العربي على استعداد لبيع بني جلدته فوق أرضه مقابل الكسب والمال الوفير. والثاني أنَّ الفلاّح العربي مضطهد من قبل الملاّك كما هو مضطهد من قبل الإنجليز ومن خلفهم اليهود. فكان يحاول، كما قال مراراً وتكراراً، أن ينصف الفلاّحين بأن يتأكّد من أنَّهم أخذوا تعويضاتهم من الملاّكين. ورغم احتقاره لمواقف الملاّكين واشمئزازه من وسخ الفلاّحين وجهلهم، إلاّ أنَّه كان مقتنعاً أنَّ العرب ليسوا سيِّئين ولا شرّيرين، وأنَّ بالإمكان التوصّل معهم لاتّفاق معقول يُرضي الطرفين. وهذا ما جعل جماعة جابوتنسكي وغيرهم من المتشدِّدين يتَّهمون الرجل بالعمالة والخيانة لأنَّه يقول إنَّ العرب ليسوا حميراً ولا شياطين، بل آدميّون، أو شبه آدميِّين(١).

بمجرّد اقتراب كالفاريسكي ووقوفه خلف الميكروفون ارتفع صوت من القاعة وصاح بحدّة: دودة حقيرة. وصاح آخر: خائن وعميل.

ارتدّ كالفاريسكي خطوة للوراء ثم عاد وتقدَّم وبدأ يدافع عن نفسه، ويقول لمن يشتمونه ويتَّهمونه بأقبح الأوصاف إنَّهم لا يقدِّرون إنجازاته، ولا يعرفون كم يتحمَّل من أعباء تقصم ظهره. الأرض التي

---

١ ـ أنظر: "Between Mohammed and Mr. Cohen," in **One Palestine, Complete.**

اشتراها للمشروع كلَّفته الكثير من المتاعب لأنَّها مثل أراض كثيرة غامر واشتراها من ماله الخاصّ على أمل أن تقوم الوكالة اليهوديَّة بتعويضه، لكنَّ الوكالة لم تعوِّضه ولم تسدّ الدين. هذا بالإضافة إلى ما يؤلمه ويُثقل ضميره، ففي كلّ مرّة يضطرّ لإخلاء الأراضي من الفلاّحين يشعر بالذنب لأنَّ هؤلاء الفقراء بشر، مساكين، لديهم أرواح ومشاعر. كلّ هذا يتحمَّله في سبيل إسكان الإخوة من المهجر، فلولاه هو لما توسَّعت المستعمرات ولما أُقيمت الكيبوتسات.

صاح متشدِّد: اخرس، اسكت. فأصيب كالفاريسكي بالإحباط، فوضع الخريطة جانبًا وأخذ يلوِّح بيده ويقول بصوت متهدِّج:

ـ لا تعرفون كم هو صعب على رجل في مثل سنِّي عاش في هذه الأرض بين هؤلاء الناس طوال عقود أن يقوم بما قمت به. أعترف أنِّي في كثير من الأحيان أتمزَّق ألمًا على هؤلاء الفقراء لأنَّهم أمام اللَّه وأمامي هم آدميّون. سأحكي لكم هذا الموقف: في قرية شمسين، وبينما كنت أجلس في خيمة صاحب الأرض أوقّع العقد، تحلّق الفلاّحون حول الخيمة وأخذوا يغنّون أغاني جنائزيَّة حزينة اخترقت قلبي مثل السكّين. كان المساكين يعدُّون لنا القهوة وهم ينوحون ويندبون. تلك الأغاني ظلَّت ترنّ في أذني وتؤرّقني طوال سنين. ورغم ذلك، لم أتوقَّف عن القيام بواجبي. لكنِّي، في كلّ مرّة أمرّ بموقف مشابه أتساءل: لماذا نستمرّ في إنكار وجودهم؟ لماذا لا نعاملهم كآدميّين؟ ليسوا جميعًا قذرين ونصّابين، صدّقوني.

صاح صوت كالهدير زلزل أركان القاعة:

ـ وأنت مثلهم وأوسخ منهم. أنت عميل للعرب. أنت خائن حقير.

لكنّ كالفاريسكي، وقد فاض به الكيل من كلّ ما كيل له من اتّهامات وإهانات في السابق واللاحق، صاح بصوت متهدّج:

ـ لماذا لا نجرِّب؟ روزا تقول إنَّها تريد مشروعًا مشتركًا، كلّيّة تمريض، فقط تمريض. قبل الانتداب كنّا نعيش مثل الإخوة. دعونا نجرّب؟ أنا جرّبت مشروعًا في طبريّا، افتتحت مدرسة لأطفال العرب واليهود، وصدّقوني، نجح المشروع.

تعالت الأصوات من كلّ جانب: خائن، ملعون، عميل. وبدا وكأنَّ الحفل سينقلب إلى مأتم. إلاّ أنَّ وايزمان وقف مكانه، في الصفّ الأوّل، واستدار بجذعه لمواجهة الجمهور ورفع يديه وصوته مهدّئًا:

ـ يا جماعة، يا جماعة، دعوه يقول ما يريد. ألسنا ديمقراطيّين؟ ألا تؤمنون بحرّيّة القول والكلمة؟ أم أنّكم تريدون أن تكونوا مثل العرب؟ دعوه يقول. دعوه يكمل.

وقف رجل وسط القاعة محاط بقبضايات مسلّحين بالعصيّ والهراوات وقال بحدَّة:

ـ قال ما فيه الكفاية وأنت المسؤول عمّا قاله. أسكته وإلاّ أسكتناه بالقوّة.

همست روزا في أذن الحاكم وهي ترتجف من الانفعال:

ـ من هذا؟

همس الحاكم وهو ينظر أمامه ولا يلتفت إليها:

ـ فلاديمير جابوتنسكي.

قالت برجاء:

ـ لم لا توقفه عند حدّه؟

التفت إليها وهمس بإحباط:

ـ أنا أوقفه؟! أنا؟ من أنا؟

التفتت إليه لترى وجهه، لكنّه التفت بعيداً وغرق بيأسه. كا
أفكاره تتقاذفه، أخذ يقارن: أرض سبخة، والكلّ يعوم.

لكزت كتفه وسألته بغيظ:

ـ ستورز أوقفه، لم لا توقفه؟

التفت إليها وابتسم بصفراويّة:

ـ ستورز أنزله في زنزانة خمس نجوم، أكل ونبيذ وموسيقى و...
الخيّام.

تساءلت بدهشة:

ـ عمر الخيّام، ماذا تعني!!

سمعها وايزمان فحدجها كما لو كان يؤنّبها وقال ملاطفاً:

ـ العزيزة روزا جاءت بأفكار مختلفة مثل تروتسكي، م
شومبسكي وآينشتين وآحاد هاعام، كلّ هؤلاء لهم أفكار واجتهادات
هل نمنعهم؟ وكالفاريسكي هو الآخر له آراء واجتهادات، هل نمنعه

نحن هنا ديمقراطيّة. المهمّ في الأمر هو ما نفعل. وما يفعله هذا الرجل هام جداً، وما عدا ذلك مجرّد أقوال وفقاقيع. مجرّد فقاقيع.

هتفت روزا بصوت مبحوح:

ـ يعني أنا مجرّد فقاعة من الفقاقيع؟

لم يسمعها وايزمان، أو ربّما سمعها وتجاهلها، لأنَّ همّه الأساسي كان أن يوقف جابوتنسكي منافسه ذا المزاج العنيف عند حدّه، فقال بليونة وصبر بالغ:

ـ أنت يا عزيزي زئيف تبالغ جدًّا وهذا لا يفيد، ضارّ جدًّا. تذكَّر أنّك أمام الضيوف والأجانب.

صاح جابوتنسكي:

ـ ولهذا عليه أن يسكت. أنزله الآن وإلاّ أنزلته بالقوّة. اليوم يقول مدرسة أطفال وغداً يقول فيدراليَّة. هذا ما يقول، ألم تسمع؟ سمعنا هذا الكلام أيّام ناقشنا مشروع خضوري المبجّل، وقلنا وقتذاك ما نقوله الآن بلا تغيير. لا مدارس ولا كلّيّات ولا شركات. جدار حديدي يفصلنا. الفصل والعزل بشكل قاطع. أنزله الآن. دعه يسكت.

قفزت روزا من مقعدها وهرعت إلى المنصّة ووقفت بجوار كالفاريسكي وخطفت الميكروفون:

ـ هو لن يسكت، وأنا لن أسكت.

وما كادت تنهي عبارتها حتى طارت حبّة خضار فوق رأسها واخترقت شعرها الهائج كالقذيفة، فسحبها كالفاريسكي وأنزلها خلف

المنصّة ونزل معها. لكنَّ القذائف لم تتوقَّف، خضار وحجارة وبيض فاسد. ثم اندفعت مجموعة شبّان وبأيديهم عصيّ وهراوات تشق طريقها نحو المسرح. أُصيب وايزمان بالذعر فخبّأ وجهه في كتف الحاكم وهمس بضعف:

ـ نادِ الحرّاس!

نهاية وبداية في يعبد

كان الفجر ما زال نيليًّا والنور يتسلَّل عبر الظلمة وأحراش الكرمل والميناء. أنوار البواخر وثكنات الجيش تلقي بظلال تتلألأ فوق المياه وسواد البحر. وقف يتأمَّل ويراجع ما حلّ بإيمانه وحياته. ها هو على أبواب نقلة جديدة تدنيه من اللّه ورسوله ورتل الشهداء. تذكَّر أمّه بكثير من الحنّيّة والرأفة، وتذكَّر رشا ووداد بكثير من الحزن والإشفاق. ما ذنب الأمّ ليفجعها؟ ما ذنب رشا؟ ما ذنب وداد؟ لكنَّ الظلم أكبر منهنّ، وأكبر من كلّ نساء الأرض. هذا الإيمان بالرسالة هو نور الحقّ، وكل ما عداه وهم باطل. هو نور اللّه، والحرية، والجهاد في سبيل اللّه اقتداء بكلّ من سبقوه إلى الجنّة من على أعواد المشانق.

مرّت شهور وهو يراوح. أحيانًا يندفع كعاصفة، وأحيانًا يرتدّ ويتراجع في حالة جزر. مدّ وجزر مثل الأمواج ومزاج البحر. مزاج عاصف، مزاج رائق، ثم الأحلام الليليَّة ونداء الروح. وهمٌّ زائل فرحُ الدنيا ومتاع الأرض. لا شيء يبقى على حاله إلاّ وجهه وحساب الربّ. وحين يلقاه سيقول له: إنِّي آمنت بنور الحقّ. إنِّي جاهدت ولم أجبن. إنِّي ضحَّيت كما ضحّوا وركبت الموج لكي نعلو وخرجت من الدنيا بلا زينة، لا مال لا ولد ولا مطامع إلاّ أن أدفع وأدافع وأزيل الظلم وأتحرَّر وأموت في أرض كُتبت

لي منذ الأزل في سفر الغيب. أرض البراق والصحابة ورحيل الفرس المحفوفة بهالات النور تحمل روحي فوق الصخرة عبر الصحراء فتتلألأ ويصير الرمل مرجًا أخضر وتعود الأرض لصاحبها ويزول الظلم.

ونظر إلى الباخرة تتلألأ في غباش الفجر. سفينة أخرى من بلجيكا تحمل إسمنتًا في حاويات وبراميل، وتحت الإسمنت بنادق ورصاص وقنابل. وقبل هذه أخرى وأخرى، لكنّ هذه فجّرت الوضع. الصحافة كتبت، والأحزاب اجتمعت، والمفتي نادى المشايخ وعلماء الدين. وانتظر الناس النتيجة. ذهب الزعماء إلى الحاكم يطالبون بوقف التهريب وسحب السلاح وتشكيل فرق عربيّة لحراسة الموانئ والساحل، فرفض الحاكم. طالبوا المشاركة بالتحقيق، رفض الحاكم. طالبوا بإعلان الإضراب، رفض الحاكم. وصل الأمر إلى الصحافة فكتبت وسخرت فهاج الشارع واحتقن الناس. عادوا يستمعون لقصص الزيبق وأبو جلدة للتشفّي والسخرية من الأحزاب والقادة وخطب المفتي. تفشّت السرقات والتشليح وأعمال النهب، وعمّت الفوضى وما عاد الزعماء قادرين على ضبط الوضع، فخطب الشيخ في الجامع: هذا هو الوقت للثورة، هلمّوا للجهاد، اتبعوني.

نداء الشيخ ضاع في غمرة الانقسام والتفكّك واختلاف الآراء والمصالح. ابتعاد الناس عن الزعماء، ابتعاد القرية عن المدينة، ابتعاد الوجهاء عن الشارع، وتعدّد الولاءات والمصالح جعل من المستحيل توحيد الصفّ. هذا ملاّك وذاك مزارع. هذا أمّي وذاك مثقّف. هذا مجلسي وذاك دفاعي وثالث استقلالي ورابع شيوعي وهلّم جرًّا. كان الولاء للعائلة وواجهة الحزب أهمّ بكثير من البلد وتراب الأرض. تباين الزعماء والقادة وارتخاء العضل في سواعدهم جعلهم غير قادرين على

خوض التحدّي واعتلاء الصراع. أرسل الشيخ من يهمس لهم: أمدّونا بالمال والسلاح ونحن نقاتل. فأُحرج البعض، واستهان آخرون، والمفتي استرسل بالخطب وأخذ يناور(١) .

لجأ الشيخ إلى صحبه يستشير هذا ويقنع ذاك لأنّ الوقت يسرقهم والبلد تضيع. اجتمع بهم مع طلوع الفجر. سأل كبيرهم، وكان قد خرج من السجن قبل أيّام:

ـ نريد الخروج إلى الثورة، ما رأيك أنت؟

تململ الرجل وقال بخجل:

ـ نحن يا شيخ تلاميذك.

أصرّ الشيخ:

ـ أريد رأيك؟

تمتم الرجل بوجوم شديد:

ـ لا رأي لديّ.

التفت لوحيد:

ـ وأنت يا وحيد، ما رأيك أنت؟

---

١ ـ إبراهيم طوقان عبَّر بقوله:

ما لكم بعضُكم يُمزّق بعضًا ... أفرغتم من العدو اللدودِ؟
كلُّ هذا استفادة بين فوضى ... وشقاقٍ، وذلّة، وهُجود
واشتغال بالترهّات، وحبٍّ ... الذات.. عن نافعٍ عميم مجيد
شهد اللّهُ أنَّ تلك حياةٌ ... فُضِّلَت فوقها حياةُ العبيد

قال وحيد بانصياع تامّ:

ـ هو ما تراه يا سيِّدنا الشيخ.

قال بجدِّيَّة وتذمُّر:

ـ أريد المشورة لا الإذعان. شورى ومشورة قبل القرار، أشيروا عليّ، أنيروني؟

ارتفع صوت خرّيج السجن وقال بحرارة وتهدُّج:

ـ بماذا نخرج يا سيِّدنا الشيخ؟ نخرج للثورة بأيدينا؟ لا مال، لا سلاح ولا تكاتف، وما من ظهر يحمينا. ها قد سمعت رأي الزعماء والقادة، وحتى العلماء والمشايخ نفروا منّا. عملاء الإنجليز يتربَّصون بنا، وجواسيس اليهود في كلّ قرية ومدينة. فإذا جهرنا بما ننوي سننكشف ويُقضى علينا قبل أن نقوم بأيّ هجوم أو عملية.

ـ إذن نسكت على الظلم وتضيع البلد؟

حشرج الرجل وكاد يبكي:

ـ يا سيِّدنا الشيخ، الثورة بحاجة للأموال، مال للسلاح، مال للأكل، ومال للأهل. كلُّنا فقراء كما تعلم. هذا حجّار، وهذا نجّار، وهذا بيّاع على البسطة، وبيّاع كاز، وأنا مثلهم بيّاع كاز. يعني رزقنا على اللّه يومًا بيوم، ونطعم أهلنا يومًا بيوم. أنا حين سُجنت، من قام بأهلي وعيالي؟ صحيح أنّكم أطعمتم أولادي، لكن من لقمة مقسومة فأنتم فقراء مثلي وأكثر. رأيي أن نستمرّ كما كنّا، نعمل في السرّ لأنَّ الجهر بالثورة صعب وخطير.

التفت الشيخ إلى وحيد:

ـ وأنت يا حبيب، ما رأيك أنت؟ قل يا مختار؟

اهتزّ فؤاده للكلمات، ففي كلّ مرة يواجه مشكلة أو محنة يناديه «بحبيب» أو «مختار» أسوة بحبيب اللّه ومختاره. أيّ أنّه يصطفيه ويختاره. ألم يقل له عدّة مرّات «إنِّي وكّلتك فتوكّل؟» «أنت الخليفة من بعدي؟» «أنت المختار؟» وها هو يصطفيه ويستنجد به، فماذا يقول؟ أيقول الوظيفة في الشركة؟ أيقول الزوجة والأولاد؟ أيقول الأمّ؟ أيقول الأخت؟ لا شركة ولا زوجة ولا أولاد ولا أمّ ولا أهل ولا صاحب فالكلّ متاع، وهم زائل. هذا اليوم هو يوم الدين، يوم يفرّ المرء من أبيه وصاحبته وبنيه، فماذا ينتظر لكي يخرج؟

استعجله الشيخ:

ـ قل يا مختار!

قال بإيمان:

ـ روحي للّه، أنا مسلم.

هزّ الشيخ رأسه باستحسان:

ـ الحمد للّه. أنت يميني. وماذا عن صحبك ورجالك؟

تدخَّل آخر:

ـ هذا يا شيخ ابن عيلة وبلا عيلة، يعني ميسور وبلا أولاد.

أسكته الشيخ:

ـ بل هو مسكون بالإيمان.

وصمت لحظات يتأمل ويتفحّص المجموعة ويراجع. بعد لحظات التفت لوحيد وقال باسماً:

ـ حتى لا تندم أو أندم، اذهب وتأكّد بنفسك.

وها هو يقف على صخرة أعلى الكرمل ليتأكّد من جاهزيّة الحجّارة ورجاله. يجتمعون صباحاً في الكبابير ليتدرّبوا على بندقية اشتراها الشيخ من مدّخراته. قبل أيّام باع الشيخ عفشه واحتفظ براتبه الشهري وأرسل زوجته إلى أهلها مع أطفاله. وهذا يعني أنّه اتّخذ القرار مسبقاً قبل الاجتماع والشورى. وما كانت أسئلته واستشاراته إلاّ لجسّ النبض والتأكُّد. وسواء قالوا نعم أو قالوا لا ما كان الشيخ ليتراجع. وحتى لا يخرج أيّ منهم بدون قناعة، اجتمع بهم وناقشهم واستشارهم وترك لكلّ واحد أن يتصرَّف حسب ظروفه وقناعاته. وحين اندفع وحيد ليعلن بحماس أنّه جاهز، أهاب به أن يتروّى وقال بوضوح: اذهب وتأكّد بنفسك.

ها هو الآن يتأكّد ولا يتأكّد. يتأكّد أنَّ كلّ واحد من رجاله على استعداد للتضحية بكلّ ما لديه وبحياته، لكنّه غير متأكّد أنَّ هذا كاف للثورة. خرّيج السجن فتح عينيه، قال الثورة بحاجة للمال والسلاح ودعم الشارع. الثورة بحاجة للوجهاء وللشارع. وهو يرى بوضوح تامّ، لا هذا جاهز ولا ذاك جاهز. لكنَّ الشيخ قال لهم إنَّ الثورة بحاجة لفتيل يشعلها، وهم سيكونون ـ بإذن اللّه ـ ذاك الفتيل وتلك الشعلة. قال لهم مؤكّداً، بعد انطلاق الشرارة فالاشتعال حتماً حاصل. هذا مقنع. هم خير فتيل للشرارة. إن لم يكونوا هم الشعلة من يشعلها؟ نقص التنظيم في الشارع؟ خطب القادة؟ وجهاء القدس؟ أم ستّة أحزاب ومشايخ؟

تمّ الاتّفاق على الخطّة. تبدأ الخطّة باحتلال حيفا والميناء وثكنات الجيش. كان الهدف تحقيق مكسب مبهر يجرّ الزعماء والأحزاب إلى المواجهة وإقناع الشعب أنَّ استنزاف بريطانيا غير مستحيل، بل ممكن. الاستيلاء على حيفا، وهي الأهمّ والأغنى، سيحفّزهم. أمّا التنفيذ فيكون موزّعًا على ثلاث مراحل. المرحلة الأولى تبدأ بالخروج إلى القرى لاستقطاب الفلاّحين وتهيئة الجوّ لحرب عصابات. المرحلة الثانية تبدأ بالاستيلاء على باخرة للحصول على أسلحة تكفي لمهاجمة ثكنات الجيش. في المرحلة الثالثة، وحين يبدأ الهجوم المضادّ بمجيء الدبّابات والطيّارات مدعومة بفرق اليهود، ينسحبون إلى الجبال ويندسّون بين الفلاّحين ويعلنون الثورة وحرب العصابات. وربّما، بل الأكيد، أنَّ العرب حين يسمعون بما أبلى المجاهدون في فلسطين، سيرسلون الإمدادات فتمتدّ الثورة من حيفا حتى السودان حتى المغرب.

ابتسم الشيخ وهو يستمع لأحلام الشباب وقال مهدّئًا:

ـ لا تبدأ الثورة بالأحلام بل بالممكن. خطوة، خطوة، فالدرب طويل. ربّما سنوات، ربّما أجيال، ربّما قرون قبل الوصول إلى السودان والمغرب. لكنَّ المهم أن نبدأ. غدا صباحًا نتحرَّك.

مشوا ومشوا فوق الصخور، بين الأشواك، تحت الأشجار، في حمأة الشمس والظهيرة، واختبأوا بين الرّجم كلّما مرُّوا بمستعمرة أو دوريَّة. نفد الماء من مطراتهم وثقلت أحمالهم وأخذ التعب منهم كلّ مأخذ. كانت نورس هي وجهتهم، فهناك رجال، وماء وغذاء. لكنَّ الطريق إلى نورس بين الصخور والأشواك بدت أطول. الواحد يحمل ما لا يقل عن ٤٠ كيلوغرامًا من الأكل والأغطية وقطع السلاح، بالإضافة إلى حراب مسنَّنة كان الشيخ قد أوصى بها تيمُّنًا بما كان يحمله الصحابة في الزمن القديم. كانوا يتوقَّعون أن يستمرّ القتال بضعة أشهر، وربّما سنوات، كما يتوقَّعون انضمام الفقراء والفلاّحين. كان تقدُّمهم بطيئًا فالتفت الزيبق إلى وحيد وقال متودِّدًا:

ـ اطلب من شيخك أن نرتاح.

امتعض وحيد وسأل بدهشة:

ـ شيخي أنا؟

همس الزيبق:

ـ هو يسمع منك. قل له نرتاح. ننام الليلة في مغارة ونبحث عن ماء. لم تبق معنا إلاّ قطرات. فلنتوقّف نبحث عن ماء. قل له نرتاح.

ـ ولماذا لا تقول له أنت بنفسك؟

ابتسم ابتسامة ذات مغزى:

ـ لا يسمع منّي ويسمع منك. يسمّيني النمرود قليل الصبر.

ـ وهل أنت نمرود؟

أطلق ضحكة صبيانيَّة:

ـ طبعًا نمرود.

ـ وتتنمرد عليه؟

ـ أحيانًا.

ـ إذن قل له.

وقف الزيبق مكانه ودقّ قدميه في الأرض كبغل حرن وصاح فجأة:

ـ تعبنا يا شيخ، ارحمنا. دعنا نرتاح.

اقترب الشيخ وحدج الزيبق ثم التفت إلى وحيد وقال باسمًا:

ـ هذا نزق، لا تسمع منه.

اقترب آخر وكان محمرّ الوجه وقال مستنجداً:

ـ تعبنا يا شيخ، دعنا نرتاح، العطش والتعب هدّا قوانا. نبحث عن ماء، نشرب، نرتاح ثم نواصل.

وافق الشيخ على مضض. كان يتوقَّع أن يصلوا نورس قبل الظهر، لكنَّ الطريق طالت ووعرت واشتدّ الحرّ.

اختاروا مغارة فسيحة تطلّ على سهل عين جالود حيث دارت موقعة رسخ ذكرُها في قلوب العرب. وقف الشيخ على طرف الوادي ونظر من الأعلى إلى أسفل فبدا لهم، والريح تلوّح أردانه، كشبح أبيض سقط من الغيم. صاح بهم:

ـ نبدأ من حيث انتهى الظاهر بيبرس. قفوا للصلاة. اللّه أكبر.

ذهب وحيد وشخص وآخر مع الزيبق بحثًا عن ماء. أخذوا مطرات المجموعة وذهبوا في الشمس بحثًا عن ماء. أخذ الزيبق وقد خفَّ حمله يتطاير فوق الصخور مثل العصفور. وقف على صخرة أمام رفيقيه ومدَّ نظره عبر المسافات وصاح لهما: لا ماء هنا. ثم ركض وامتطى صخرة أخرى وصاح من البعد: لا ماء هنا.

قال لهما إنَّه يعرف المنطقة شبرًا شبرًا. قال إنَّه أغار على مستعمرة عين حارود عدّة مرات. قال ساخرًا لو أنَّ الشيخ يسمع منه لاحتلّوا المستعمرة خلال دقائق، لكنَّ الشيخ لا يسمع منه. واصل القفز هنا وهناك وهو يضحك ويقهقه كالمجنون.

فكّر وحيد أنَّ لقب الزيبق ينطبق عليه لأنَّه نزق وقليل الصبر. لو تركوا الأمر لأحكامه لما التزم بأيّ اتّفاق أو خطّة، ولخرج بهم عن الهدف المطلوب وأدخلهم في متاهات تضيِّعهم. أراد أن يقول له شيئًا بهذا الخصوص حين سمعه يصرخ فجأة: الماء، الماء، وجدت الماء.

ركض الزيبق نحو صخرة محفورة كجرن ضخم كانت تُستعمل لعصر الزيتون وكانت مملوءة بماء الشتاء. وقف لحظات يتأمَّلها قبل أن

يستلقي على بطنه ويعبّ الماء مثل حيوان بريّ. حين وصلاه كان قد ارتوى وغسل وجهه وملأ ما معه من المطرات وجلس على الصخر، يؤرجح رجليه ويقول باعتزاز وتشفٍّ: وجدت الماء، أنا وجدته.

* * *

عاد وحيد بما يحمله من مطرات وبقي الزيبق والآخر يبحثان بين الصخور عن بيض الحمام وأعشاب جافّة لإيقاد النار. لم تمض أكثر من ساعة حتى سمعوا أزيز الطلقات ولهاث الزيبق وصياحه:

ـ قتلت روزنفيلد. قتلته، قتلته.

ضرب الشيخ جبهته وهبَّ واقفًا وقال للرجال:

ـ قوموا يا رجال. لا حول ولا قوة إلاّ باللّه. أعمال الزيبق لا تنتهي. قوموا، قوموا.

كان الزيبق قد نزل مع الآخر إلى بستان المستعمرة خلافًا لمخطّط الشيخ والمجموعة. قطفا كريب فروت ونثراه على الطريق باتجاه المغارة على أمل أن يخرج المستوطنون في أثرهم فيحلّ الاشتباك وينتهي باحتلال المستعمرة والبقاء فيها عدّة أيام. صدف مرور الضابط اليهودي روزنفيلد الذي كان يتعقّبه منذ سنوات. قتل روزنفيلد واستولى على مؤونته وسلاحه.

منذ تلك اللحظة، بدأ التعقُّب ونشط الجيش، واحتدمت مطاردة شرسة بين الصخور في قمم الجبال.

جلس بجانب الشيخ في المغارة والتصق به. أحسّ أنَّه عاد صغيراً وأنَّ الشيخ أبوه. تذكَّر أباه بشاربه الكثيف وقفطانه. تلك الأيّام كانت حلوة. أيّام الصيف في نابلس وسوس وخرّوب. تعطيه أمّه تعريفة فيملأ الإبريق بالسوس البارد مثل الثلج. ليالي رمضان والقطائف وكنافة وكلاّج وليموناده. يوم الوقفة تنشغل الأمّ بالمعمول فتمتلئ الدار بالروائح ونكهات المحلب والقرفة وعبير الهال للقهوة من أجل العيد. وليلة العيد ينام وطربوشه وحذاؤه قرب فراشه. يصحو في الليل ويتحسَّس جلد الحذاء وطربوشه وقلبه يخفق، وينتظر الصبح حتى يسمع صوت التكبير من الجامع. يقولون معًا بصوت واحد «اللّه أكبر» مئات المرّات. اللّه أكبر، اللّه أكبر، اللّه أكبر، ربّنا لك الحمد. فيمتلئ حنانًا وخشوعًا ويظلّ مكوّرًا في فراشه بانتظار رجوع أبيه من الجامع فيركض نحوه يقبّل يده فيقول له: اللّه يرضى عليك، ويمنحه العيديّة المنتظرة، عشرة قروش بالكامل، قطعة واحدة فضّيّة تلمع في الشمس وفي عينيه فيحسّ الدنيا تتلألأ ويكاد يطير. كان صغيراً والكلّ صغير. وداد صغيرة، وأمين صغير وسمير صغير. ثم مات الأب وأصبح كبيراً والكلّ صغير. كم كبر وكبر في زمن قصير!

قال له الشيخ بصوت هادئ:

ـ تذكَّر يا بنيّ ما أوصيتك. إذا استُشهدت تقوم مقامي فتعيد تجميع الإخوة وتحاول تحييد الزيبق حتى يصبح أقلّ جنونًا. هذا اللعين أوقعنا في هذا الفخّ. لولاه لكنَّا في مأمن حتى ننضج. خوفي يا بنيّ أن تكون آخرتي في هذا الحرش.

تمتم بخوف:

ـ لا سمح اللّه.

ـ بل قد يسمح، لهذا علينا أن نحذر. اذهب راقبه فهو كالطفل.

لم يستطع الصبر على شكوكه فقال معاتبًا:

ـ يا سيِّدنا الشيخ أنا لا أفهم! لماذا أدخلته في التنظيم؟ كنت تعرف أنَّه نزق وقليل الصبر. كنت تعرف أنَّه نمرود وقَطّاع طرق. كنت تعرف أنَّه لا يلتزم بأيّة خطّة. لماذا أدخلته في التنظيم؟ لماذا ألحقته بالوحدات؟ كنت تعرف أنَّ ضبطه ليس سهلاً، وها أنت ترى ما فعل بنا!

تأمَّله الشيخ بعينين مليئتين بالحزن فالتقط وحيد تلك النظرة وأحس بالخجل فقال متراجعًا:

ـ يا سيّدنا الشيخ اعذرني، أنا متأسِّف. لكن ما أوقعنا فيه هذا الأهوج ليس سهلاً، [illegible] بين جالود وهم يقتفون أثرنا مع كلاب الصيد والجواسيس. [illegible] أنسى أنَّه هو من أوقعنا؟ كيف أنسى أنَّه أهوج؟ كيف أنسى أنّه نمرود؟

ابتسم الشيخ بمرارة:

- بل ستنسى. الثورة يا بنيّ ليست للأنقياء فقط، فللأشقياء فيها نصيب. ستعرف هذا وتكتشفه. الظرف سيفرض ما تكره. الثورة تلمّ مثل الجامع. الجامع يجمع ويوحِّد ويساوي كالإخوة بين الناس. احرص عليه فهو طيّب. اجبر خاطره فهو نادم. هذا الرجل لديه مواهب قد تنفعنا، وقد نفعتنا عدّة مرّات. دوّخ الإنجليز، جنّن اليهود، قام بحركات لا نعرفها لا أنا ولا أنت. مثل المجنون. مثل الزيبق. يسحل كالجنّ، يطير كالرمح، ويسرق الكحل من جفن العين. حتى لو أردنا أن نفعل ما يفعله لا نستطيع، لا نعرف. أمّا هو فقد تدرَّب على النشل والتسلّل والاختفاء مثل الشبح في غمضة عين. وهذا مطلوب. هو ما نحتاج.

هتف بدهشة:

- نحتاج النشل والسرقة؟!

ابتسم الشيخ:

- وما نحن فيه ماذا يُسمّى؟ اسمع يا حبيب. في هذا الزمن، في هذا الوضع، نحن بحاجة....

قاطعه بسرعة وتأفُّف:

- بحاجة لماذا؟ أنا لا أفهم!

- بل ستفهم. حرب العصابات هي هذا، اضرب واهرب. أم أنَّك ستقف وجهًا لوجه لتبارزهم؟ في هذا الوضع نتعلَّم منه.

ـ نتعلّم منه؟

ـ ولم لا؟

ـ لماذا إذن لا تدعه يقود؟

ضحك الشيخ برقّة وتسامح:

ـ إلاّ هذا. إلاّ هذا. أنت الكبير. أنت الأوسع. ستكون الوعاء الكبير وتحتوي من هم أصغر، وهو أصغر. أنت الكبير المتسامح. أنت الجامع.

أحسّ أنَّ الشيخ يهيّئه للقيادة بدلاً منه ففاض بالأسى والعواطف:

ـ أنا لست الكبير ولن أكبر. أنت أبونا. أنت القائد. بفضلك أنت تعلَّمت أن أقوى على ذاتي. منك تعلَّمت الرجولة منك تعلَّمت أن أزهد بمال الدنيا ومتاع الأرض. قبل تعاليمك لم أعرف ما معنى الأرض، ما معنى الوطن، ما معنى الحبّ الحقيقي للأهل والناس وإخواني، ما معنى الرأفة والرحمة. أنت معلّمي، أنت المرشد. أنت الأكبر. لن أكبر عليك. سأظلّ الطفل في كنفك لأنَّك أبي وأخي ومعلِّمي ونور الإيمان، أنت شفيعي.

هتف الشيخ وقد فاجأته كلمات الشابّ:

ـ أستغفر الله. شفيعي وشفيعك محمّد. حذار يا بنيّ. احذر هذا. احذر من عبادة الأصنام. أنا فرد فقط، أنا عبد فقير. لي دور أؤدّيه ورسالة. وحين ينتهي دوري ويجيء الأجل، يستلم آخر هذا الدور. أتذكر ما قال أبو بكر بعد موت الرسول؟

ـ طبعًا أذكر.

ـ هات، أسمعني.

ـ من كان يعبد محمّداً فإنَّ محمّداً قد مات، ومن كان يعبد اللّه فإنَّ اللّه حيّ لا يموت.

ـ تذكَّر هذا وإلا ضعنا وضاعت حيفا.

ـ أهناك حيفا من دونك؟

ـ سبحان اللَّه، ماذا أسمع؟! أهذا ما تقول يا أغلى الناس. أنا وضعت كلّ ثقتي فيك لأنَّك مؤمن ولأنَّك تقوى على ذاتك. من يقوَ على ذاته لا يضعف أمام العثرات ونازلات الزمن. أنا سأموت، وأنت ستموت، وكلُّنا سنموت. لا أحد يخلد في الدنيا. ولكن افرض، افرض أنِّي سأموت غداً، ماذا تفعل؟

هتف والدمع يملأ عينيه:

ـ لا لن تموت.

ـ بلى سأموت.

مسح دموعه وأجهش في البكاء:

ـ وتيتِّمني؟

وانتحى في ركن المغارة وهرب إلى النوم.

خرج من المغارة يتفقّد جنبات الحرش. أشجار البطم واللزّاب والصنوبر تملأ الأجواء برائحة المسك. جذوع الأشجار تتلاصق وأغصان البطم والعوسج تشكّل دهاليز معتمة وأخرى خضراء. في هذا الحرش لن يكتشفوهم. رجم وسلاسل تفصلهم عن قعر الوادي وقرية يعبُد. لم يجنّ الليل وعليهم الاختباء حتى مجيئه. عليهم الحذر من كلاب الصيد وجيش العملاء. الفقر والجهل جيشهم. ببضعة جنيهات يبيع الجاسوس رأس أخيه. إذا نجحت الخطّة وبدأت الحرب سيعمل على اجتثاث كلّ العملاء. لكن الآن أين الزيبق؟

وجده على صخرة يؤرجح رجليه. كان يدخّن. اقترب منه فالتفت إليه ثم عاد وحوّل نظره عنه. جلس بجانبه ولم ينطق وأجال عينه بامتداد المدى حيث يعبد. لن يطول الوقت حتى يأتي الرجال من القرية. مع مجيء الليل يصلونهم بالإمدادات. بعد ذلك يواصلون السير إلى نورس ثم جنين ثم طوباس ثم نابلس. قرى الشمال تناصرهم، لهم فيها عدّة خلايا نائمة وعليها الآن أن تستيقظ.

قال الزيبق وهو ما زال يحوّل نظره عنه:

ـ الشيخ زعلان؟

لم يشأ الكذب فقال بفتور:

ـ ليس كثيراً فهو كما تعلم متسامح.

نفخ دخانه:

ـ أعرف، أعرف. أنا أخطأت. لكنّي رأيته أمامي، كان يلاحقني منذ سنين. نشّف ريقي. قلت أقتله وأرتاح منه.

ـ وتعرّض المجموعة بكاملها من أجل فرد واحد؟ لا يستحقّ كلّ هذا العناء. وها نحن ندور في دوّامة وكلاب الصيد تلاحقنا وثلل الفرسان. إذا حاصرونا في هذا الحرش ماذا نفعل؟

ـ نهرب ونتسلّل كالأشباح.

صمت على مضض ولم يعلّق فالتفت إليه وقال بصوت كالفحيح:

ـ أنت لا تحبّني.

لم يشأ الكذب فظلّ صامتاً.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

ـ أنت لا تحبّني ولا تحترمني. والشيخ يحبّك ويحترمك.

ظلّ صامتاً.

ـ الشيخ يتسامح، أما أنت فلا تحنّ ولا تتسامح. تعرف لماذا؟ لأنّك قحطان، ولأنّك تظنّ أنّ قحطان أحسن وأشرف من كلّ الناس. وها أنا أقولها في وجهك. إنّك أنت وكل عائلتك على حذائي. جدّك

قحطان كان مثلي، يعني حرامي. العزّ والجاه من أين لكم؟ وداركم أنا أعرفها. مررت أمامها مئات المرات. كنت أتمنّى لو أدخلها. سيجيء اليوم. سيجيء اليوم. الشيخ يحابيك لأنَّك منهم، لأنَّك قحطان ومتعلِّم.

ـ أنا متعلِّم؟!

ـ وتحكي بالقاف وبالنحوي وتتفلسف علينا مثل أخيك. أخوك المفلسف يكتب مقالات في الجريدة. لا أحد يصدِّق ما يكتب ولا حتى أنت.

ـ أنا لا أقرأه.

ـ ولا أنا أقرأ، أسمع من الناس. الناس يقولون وأنا أسمع. لديَّ آذان وأسمع ما يقولون عن خالك وابن خالك. ابن خالك تزوَّج يهوديَّة وطلَّق أختك. ماذا فعلت لتنتقم من ذاك النذل؟ لم تفعل شيئًا لأنَّك جبان ومخنّث مثل النسوان. مع ذلك يحابيك الشيخ ويناديك يا مختار. لماذا يختارك ولا يختار أحداً غيرك؟ قل لي لماذا؟

قال همساً وهو يبلع ريقه ويحسّ بقلبه يكاد يقف:

ـ أنا لا أعرف.

ـ كذّاب، كذّاب، بل تعرف.

ـ أنا لا أعرف.

ـ أنا أعرّفك. يختارك لأنّك تتلوّن مثل الحرباء. هو لا يرى إلاّ وجهك. هو لا يرى ما في قلبك. يراك تصلّي، يراك تصوم، يراك تحكي

بالنحوي وتلفظ القاف كالمشايخ. هو لا يرى إلاّ شكلك. حتى شكلك أحلى منّا. حتى ربّك يتحيَّز لك.

ـ أستغفر اللّه العظيم.

ـ نعم، استغفر. هذا ما يسمعه الشيخ ويصدِّقه، أمّا أنا، مهما استغفرت لن يصدّق.

ـ سامحك اللّه.

ـ ومن أنت حتى تدعو اللّه ليسامحني؟ قل لي من أنت؟ ابن قحطان؟ على قفاي عيلة قحطان والشيخ قحطان وما خلّف. خلفة كالزوان وفشك فاضي، هذا ما أنت. أتعرف لماذا؟ لأنَّك جبان مثل النسوان. جبان وصغير قدّ النملة.

ـ بل أنا كبير وأَسَعُك.

ـ تسعني أنا؟

ـ أنا أسعك.

ـ ما هذا النحوي فسّر لي؟

ـ . . . .

ـ لا تتهرّب.

قام عن الصخرة وتراجع. قلبه يخفق. فاجأه الحقد، فاجأه الحسد والتشفّي. كان يظنّ أنّ الثورة كما قال الشيخ. الشيخ قال إنَّ الثورة تجمع وتلمّ مثل الجامع. الجامع يجمع ويوحّد ويساوي كالإخوة بين الناس. أيصدِّق ما قيل أم ما يسمع؟

في الثانية والنصف صباحًا ابتدأ الهجوم. فرسان الإنجليز في الخلفيَّة والشرطة العرب في المقدّمة يجلون الطريق.

كانت المجموعة قد استعدّت مع بدء الحصار. تمترسوا خلف الرجم والصخور وتوقَّعوا مجيء الإمدادات من يعبد. لكنَّ الحصار كان شديداً وبدأت أرتال الدبابات تحتلّ السفح والطيّارة تحوم فوق الموقع تحدِّد الأهداف وتبعث إشارات باللاسلكي.

عشرات الشرطة والفرسان، ثم عشرات إثر عشرات إثر عشرات، حتى أصبح الموقع كالثكنة أو ساحة حرب. مئات الجنود والخيَّالة والقنّاصة بالبندقتين مسبوقين بالشرطة العرب. قالوا للعرب إنَّ الحصار حول اللصوص وقطّاع الطرق، فانطلقوا مدعومين بالدبّابات وكلاب الصيد تسبقهم. زحفوا على البطون فوق الصخور والحجارة والسلاسل. ضربوا بالعمق وبالمليان. سقط واحد من المجموعة. سقط أفراد من الشرطة. سقط اثنان ثم ثلاثة فصاح الشيخ بالمجموعة:

ـ الشرطة عرب.

لكنَّ الزيبق لم يسمع ولم يعبأ وظلّ يضرب بالمليان ويقتل ويصو بلا تحديد، عرب، إنجليز، عملاء، يهود، يضرب ويصوّب بالمليان.

اقترب أفراد القنّاصة بالبندقتين. إشارة البندقتين تعني قنّاص لا يخطئ فأخذت المجموعة تتناقص. هذا يموت فوق صخرة، وذاك يموت خلف الرجم، وثالث يموت وهو واقف والشيخ يصيح:

ـ الشرطة عرب. لا تقتلهم.

لكنَّ الزيبق لم يسمع. سمع وأغفله ولم يعبأ.

ناداه الشيخ:

ـ اذهب يا وحيد، قل له، أفهمه، الشرطة عرب.

زحف وحيد واقترب منه:

ـ الشرطة عرب.

التفت إليه والعرق يسيل عن وجهه، عيناه جاحظتان وشعره واقف:

ـ حلّ عن ديني.

ـ الشرطة عرب.

ـ ابعد عنِّي.

ـ الشرطة عرب.

ـ زيح يا أهبل، إذا لم أقتلهم قتلوني.

ـ لا تقتلهم. الشرطة عرب.

أخذ يشتم ويصيح بجنون:

ـ عرب يا جرب، إذا لم أقتلهم قتلوني.

اقترب الشيخ على بطنه:

ـ احموا ظهري.

صاح الزيبق:

ـ ارجع يا شيخ. ماذا تريد؟ أن تستشهد؟

التفت إلى وحيد:

ـ هذا يريد أن يستشهد.

ـ احموا ظهري.

ـ ارجع يا شيخ. هذا انتحار! ارجع يا شيخ. الشرطة مثل القنّاصة. ارجع. ارجع.

اقترب وحيد، شدَّ قميصه:

ـ الشرطة عرب.

رفسه بقدمه وهو يصوّب على شرطي يقف خلف شجرة، كان يصوّب مثل قنّاص بالبندقتين. أرداه قتيلاً فتهاوى خلف الشجرة ثم سحل ككيس فارغ.

شدّ قميصه:

ـ هذا عربي.

ـ ابعد قحطان وإلاّ نسفتك.

ـ احموا ظهري.

ـ هذا انتحار، أنا أنسحب. وأنت قحطان ابعد عنّي.

ـ ونترك الشيخ؟

ـ الشيخ انتهى، الشيخ مات. تعال معي.

ـ أنت مجنون.

ـ وأنت أهبل. تعال معي. لا تسحبني. أنا أنسحب. تعال معي.

ـ أنا أصبت. كتفي، أذني.

ـ ازحف معي.

ـ الشيخ هناك. احم ظهره.

ـ الشيخ مات. خلص. استشهد. تعال معي.

ـ أنا مصاب.

ـ لن تُستشهد. ازحف معي. ازحف، ازحف. هناك حصان.

ـ لا أرى شيئًا. أنا لا أرى.

ـ لأنَّك أعمى.

ـ أنت مجنون.

ـ وأنت أهبل. تعال معي. شدّ بحزامي. وحين أقول اركض تركض. هناك حصان.

ـ أنا لا أرى.

ـ هناك حصان. شدّ بحزامي.

ـ أنا أموت.

ـ شدّ بحزامي.

غاب عن الوعي، وانطلق الحصان.

فتح عينيه ورأى السلاسل والكلاّبات. أغمض عينيه ودخل ثانية في غيبوبة. سمع الأذان. أين هو الآن؟ حيفا أم نابلس أم يعبد؟ المؤذّن يقول اللّه أكبر اللّه أكبر اللّه أكبر. ربّنا لك الحمد. هو يوم العيد. من أين العيد. ضاعت يعبد.

سمع أمّه. افتح فمك. اشرب شوربة. قالت الزيبق ابن حلال. لماذا الزيبق؟ ما دخل الزيبق في الموضوع؟ أين ذهب الشيخ؟ قال الفرسان، وكلاب الصيد، والشرطة عرب، لا تقتلهم. صاح الزيبق: إذا لم أقتلهم قتلوني. ركب الحصان وطار مع الريح.

قالت أمّه: افتح عينيك. اشرب شوربة. الجرح ينزّ. نادوا الدكتور. اشرب شوربة. شوربة وقينر، سوس وخرّوب. اليوم العيد أو الوقفة؟ صاح الأذان: اللّه أكبر.

* * *

فتح عينيه ورأى الزيبق، ورأى الحلقات والسلاسل. سأل بلا وعي:

ـ أين أنا؟

ضحك الزيبق، ورنّت ضحكته وصداها في سقف القبو.

ـ أين أنا؟

ـ أنت معي.

ـ أين أنا؟

ـ في دار قحطان. كم تمنَّيت أن أدخلها!

ـ أين أنا؟

ـ اسكت، اهدأ، لا تتحرَّك، الجرح ينزّ.

ـ قل لي هل متّ؟

ـ أنا وأنت مثل القطط بسبع أرواح.

ـ الشيخ يقول الشرطة عرب.

ـ حلّ عن ديني أنت مع الشيخ. واحد أهبل.

ـ أنت مجنون.

ـ وأنت أهبل.

ـ احم ظهره.

ـ الشيخ مات.

ـ يعني استّشهد؟

ـ يعني انتحر.

ـ أنت مجنون.

ـ وأنت أهبل. اسكت. اهدأ. الجرح ينزّ.

ـ قلبي ينزّ. آه يا قلبي. هو كان أبي. كان شفيعي.

ـ شفيعي وشفيعك عزرائيل.

ـ أنت شيطان.

ـ وأنت أهبل. فتّح عينيك. أترى هذه؟ هذه يدي. أترى هذه؟

ـ أنا لا أرى إلاّ حلقات.

ـ لأنَّك مغمض. فتّح عينيك. أترى يدي؟ كم أصبعًا لديَّ؟

ـ لا أرى شيئًا.

ـ لأنَّك مغمَّض. فتِّح عينيك.

ـ إذن مات الشيخ؟ مات الوالد؟

ـ أبوك مات زمن الأتراك. فتّح عينيك. كم أصبعًا لديّ؟

أجهش بالبكاء.

ـ لا تبك الآن. كم أصبعًا لديّ؟

ـ .....

صاح ينبِّهه حتى يصحو:

ـ أبوك مات، والشيخ مات، وأنا وأنت في حبس الدم. فتّح عينيك. كم أصبعًا لديّ؟

ـ . . . . .

ـ لا تبك الآن. فتِّح. فتِّح. كم أصبعًا لديّ؟

فتح عينيه، أغمض عينيه، همهم بقنوط:

ـ ولا أصبع.

الإضراب الكبير

وصل أمين مع عدد كبير من المراسلين والصحفيِّين فوجدوا شوارع حيفا خالية، والحوانيت مغلقة والمؤسّسات ملتزمة بإضراب تامّ. قيل لهم إنَّ الجماهير حملت جثامين الشيخ ورفاقه إلى المسجد رغم حظر السلطات، فتوجَّهوا إلى المكان وشقُّوا طريقهم بين الألوف الهائجة وفرق الكشّافة والشرطة. شاركوا بصلاة الجنازة واستمعوا لأحد الخطباء وهو يؤبّن الشهداء بكلمة جعلت الناس يطلقون الهتافات وصرخات الانتقام. صوَّروا الخطباء وهم يلفّون النعوش بأعلام عربيَّة من السعودية والعراق وسوريا، دلالة على عروبة فلسطين وأبعاد القضية، وبصعوبة خرجوا مع الموكب ونعوش الشهداء إلى الساحة الكبرى أمام المسجد. تلقّف المشيّعون الجثامين على الأكفّ المرفوعة وهم يصرخون: اللَّه أكبر اللَّه أكبر، والنساء يزغردن من على الأسطح والشرفات والنوافذ، والكشّافة ينشدون أناشيد تثير الحماسة والمشاعر.

ارتفع صوت يصرخ وما زالت النعوش مرفوعة على الأيدي: الانتقام! الانتقام! فردّدت الألوف بصوت هادر: الانتقام! الانتقام! وسار الموكب وئيداً وبجهد شاقّ وخلفه الوفود من مختلف المدن والقرى، والجماهير تكبّر بأصوات تدوِّي كالرعد: اللَّه أكبر، اللَّه أكبر.

اقتربت الجنازة من دائرة البوليس وقد بلغ بالناس التأثُّر والهياج كل مبلغ فأخذوا يرجمون الدائرة بالطوب والحجارة وقناني الزجاج. بعض موظفي الدائرة الذين كانوا ما زالوا في مكاتبهم فوجئوا بوابل الحجارة تنهال عليهم من النوافذ فبادروا إلى الهرب. باب الدائرة تحطّم وزجاج النوافذ تكسّر وهجم الجمهور على ثلاث سيّارات للبوليس تقف أمام الدائرة فحطّمها، وما زالت النعوش مرفوعة على الأكفّ والناس يواصلون الهتاف وصرخات الانتقام والله أكبر.

استأنف الموكب سيره حتى وصلوا آخر شارع الملوك حيث النصب التذكاري للملك فيصل، فوقفوا يقرأون الفاتحة عن روحه قبل أن يلمحوا جنديًّا بريطانيًّا يحاول تنظيم السير. هجموا على الجندي بالحجارة فولّى راكضًا وهو يضع كفّيه وراء أذنيه والجمهور يركض وراءه حتى اختفى والدم يسيل من جراحه وجراح عدد آخر من الجنود الذين جاؤوا لنجدته فلاقوا مصيره، كما جُرح عدد من السائرين في الموكب.

استأنفوا السير حتى وصلوا محطّة السكّة الحديديّة فهاجموها بالحجارة، وما زالت النعوش مرفوعة على الأكفّ. أقبلت كتيبة من الجنود البريطانيِّين المدجَّجين بالسلاح ويعتمرون الخوذ لقمع الموكب، فوضع الجمهور النعوش على الأرض تأهّبًا للمعركة، ونزل الجنود من الشاحنات، واصطدم الفريقان في معركة ضارية جنونيَّة، فوقع ضابط الكتيبة أرضًا، وجندي آخر جُرح، وآخر، وآخر، والحجارة تنهال على الجنود والشاحنات ونوافذ المحطّة حتى تحطَّمت كلّيًّا ولم يبق فيها لوح زجاج. بعد أقلّ من ساعة أدركت الكتيبة ألاّ قبل لها بمقارعة الألوف

فانسحبت، ورفع الجمهور الجثامين على الأكفّ ثانية وهم يهتفون: اللّه أكبر! الانتقام! الانتقام! واستأنفوا السير وموسيقى الكشّافة تعزف.

كان مقرّرًا أن تتوقّف الجنازة عند دار الشيخ، على أن ترسل النعوش في سيّارات إلى مقبرة تبعد خمسة كيلومترات عن الموقع، فتقدم البعض لوضع النعوش في السيّارات، لكن الجمهور الثائر حال دون ذلك، وأبى إلاّ أن يستأنف السير والنعوش على الأكتاف إلى المقبرة مشيًا على الأقدام رغم بعد المسافة. حين وصلوا المقبرة واروا الجثامين في التراب بكامل ملابسها المخضّبة بالدماء والجماهير تهتف وتكبّر. استغرق سير الجنازة من الجامع حتى المقبرة ثلاث ساعات ونصف الساعة. وحين عاد أمين إلى القدس كتب في الصحيفة ما أفاد به جريح من رفاق الشيخ قبل اعتقاله:

«عصابتنا تأسّست منذ سنتين. خرجنا من حيفا قبل أقلّ من شهر. في عين جالود قتلنا الجاويش اليهودي. كان معه شرطيّان عربيّان لم نقتلهما ولم نتعرَّض لأحد من الوطنيّين. كنّا نشتري غذاءنا وبنادقنا ورصاصنا من نقودنا ولا نُلزم أحدًا بتقديم الغذاء أو العون لنا. غايتنا كانت قتل الإنجليز واليهود لأنّهم محتلّون. هدفنا كان نصرة الدين وإنقاذ فلسطين»(١).

١ ـ المشهد مقتبس من **يوميات أكرم زعيتر**.

رأى المدينة تعجّ بالاحتفالات والمؤتمرات والمنابر. حتى تأبين الشهداء أصبح مناسبات وطنيَّة تعجّ بالخطباء والشعراء وأفواج الوفود من كل قطر ومدينة، ابتداءً من القدس حتى عمان حتى بيروت وربوع الشام. كان الناس ما زالوا يؤمنون أنَّ الوطن هو سوريا، وأنَّ الأقطار المجزوءة بفعل الانتداب لا بدّ وأن تعود إلى حضن الأمّ. لكنَّ الحلم ليس حقيقة لأنَّ الواقع كان شظايا. هذا ما قال له جاره ابن أبو محمود. قال له وهما يخرجان من الاجتماع العظيم في نابلس حيث أقرُّوا الإضراب الكبير:

ـ خذ المثال من واقعنا. تنافس وتناحر بين الزعماء. زعماء القدس، زعماء نابلس، زعماء القرى، ثم الأحزاب، وكذا العائلات والقبائل، ثم العرب، أين العرب؟ كل في وادٍ. هذا الإضراب أكبر غلطة، لم نحسب له.

قاطعه بغيظ:

ـ أنت دائمًا تسخر وتشكّ. مقاومة الانتداب فرض وواجب.

وقف في منتصف الطريق وشدّ ذراعه:

ـ وكيف نقاومه؟ بهذا الإضراب؟ هذا الإضراب سيجوّعنا. سيميت الناس ويحبطهم، سيضرب الاقتصاد ومصالحنا. سنخرج منه أقلّ وأضعف.

ـ لماذا لم تقل رأيك هذا في الاجتماع؟

ابتسم بسخرية مرّة:

ـ أنا أقول؟ أتريد أن يقال أحمر وكافر؟ أتريد أن يقال خرج على الصفّ؟ لا يا سيِّدي، أنا مع الصفّ، أنا معكم. لكنَّ الإضراب بلا نتيجة. سنخرج منه أقلّ وأضعف.

لكن الإضراب بدأ قويًّا. قادة الاجتماع في نابلس قالوا للناس نأخذ المثال من الوطن الأمّ. سوريا أضربت ٥٠ يومًا فأذعنت فرنسا لمطالبها ومنحتها معاهدة الاستقلال. ما حدث هناك سيحدث هنا إن أضربنا. اقتنع الناس، فأضربت المدن، وأضربت القرى، وحتى الأحزاب وزعماء القدس ركبوا الموجة بعد مقاطعة فاشلة، خافوا أن يتخلَّفوا عن الركب فيسبقهم. اختفت الحركة من الشارع. توقَّفت الشاحنات والسيّارات. أضرب العمّال في الميناء والبحّارة والصيّادون والمهنيّون والحجّارة وعمّال الطرق والزبّالة. حاول الإنجليز أن يثنوهم فازدادوا حماسًا وتمسُّكًا بمطالبهم. وكانت مطالبهم واضحة: إيقاف الهجرة اليهوديَّة وبيوع الأرض وتشكيل حكومة وطنيَّة. لكنَّ الإنجليز لم يحقِّقوا أيًّا من ذاك ونشطوا بتطبيق قانون الطوارئ ومنع التجوّل واعتقال الزعماء وألوف المواطنين، والنسف والتدمير ونقل الميناء إلى تلّ أبيب بدل يافا، وبذلك ضيّقوا الخناق على الاستيراد فشحّت الموادّ

الغذائيّة والمحروقات، فقامت المظاهرات ووقعت اشتباكات ومعارك بين الطرفين، بل الثلاثة، وامتلأت السجون والمعتقلات وكثر التأبين. لكنَّ الناس كانوا ما زالوا مقتنعين أن ما حلَّ بسوريا سيحلّ هنا، سيرضخ الانتداب الإنجليزي كما رضخ الفرنسيون في سوريا.

ـ لكنَّ الإنجليز غير فرنسا. الإنجليز وعدوا اليهود.

رمقه أمين بغيظ وغضب وكأنَّه المسؤول عن ذاك الوعد:

ـ ووعدوا العرب!

ـ هذا صحيح. وعدوا اليهود ووعدوا العرب. وفوا لليهود وحنثوا للعرب. تعرف لماذا؟

هزّ رأسه وهو يحدجه بغيظ وألم.

ـ الإنجليز مع الواقف، لمن له ظهر، ولديه المال، لمن ينفعهم.

تمتم مسلّمًا:

ـ ونحن بلا ظهر. حتى العرب تخلّوا عنّا.

وهذا ما كان. زعماء العرب كزعماء القدس، بدلاً من أن يعملوا على دعم الثورة المسلّحة التي بدأت في الظهور في قمم الجبال، جاؤوا يتواسطون لفكّ الإضراب ففرطوا الموقف، وقد كان مفروطًا أصلاً، فزادوه انفراطًا على انفراط حتى بتنا كحبات العقد المفروطة كلّ حبّة بوادٍ. وكان الإضراب قد بدأ ينفرط هو الآخر لأنَّه طال وامتدّ وتمّخ فافتقر الناس، زادوا فقرًا، زادوا هزالاً، وبدأ قادة نابلس يراجعون موقفهم. هذا يقول تسرّعنا، وآخر يقول زدنا ضعفًا، وثالث يقول

فلنتوقف(١). لكنَّ التوقُّف بعد امتلاء السجون والاستشهاد ونسف البيوت وتجويع الناس ليس سهلاً. ماذا يقولون لمن تبعوهم؟ ماذا يقولون لمن صدّقوهم حين قالوا لهم إنَّ ما حدث لسوريا سيحدث لهم وإِنَّ الاستقلال، وهجرة اليهود، وتشكيل حكومة وطنيَّة أمر ممكن. لا الانتداب تراجع، ولا الهجرة توقَّفت، ولا نالوا حكومة وطنيَّة، فلماذا إذن فقروا وجاعوا؟ لماذا إذن احتملوا الأذى وفقدوا الأعمال والأشغال ورؤوس المال وقطع الأعناق والأرزاق وسيل الشهداء؟ يقولون لهم فكُّوا الإضراب لأنَّ الإضراب بلا نتيجة؟ لأنَّ الإضراب سيضربنا؟ لأنَّ الإنجليز ليسوا فرنسا؟ لأنَّ الإنجليز وعدوا اليهود وخانونا؟

عزّ عليهم قول الواقع لمن تبعوهم فطلبوا من العرب أن يقولوه لهم. وحين قال العرب فكُّوا الإضراب فكّوه بأسرع ما يمكن، وتنفَّسوا الصعداء كغريق انتشلوه من تحت الماء. وهذا ما أدَّى إلى ثورة اندلعت في رؤوس الجبال، بعيداً عن القدس والمدينة، على الإنجليز، على اليهود، على الأحزاب والزعماء والقادة، وعلى إضراب جوعهم وهدّ قواهم بدون مقابل(٢).

---

١ ـ المحامي عادل زعيتر وقلّة آخرون نبّهوا إلى خطورة الإضراب فلم يستمع القادة لعقلانيّتهم إلاّ في ما بعد. أكرم زعيتر، المحرِّض الأكبر على الإضراب، اعترف في يوميّاته: «المشكلة التي لم نعالجها أو التي أعجزتنا الظروف وطبيعة الحركة الوطنيَّة عن معالجتها، هي ارتباط الثورة بالإضراب ارتباطًا وثيقًا... فلتكن ثورتنا القادمة غير مقترنة بإضراب». **يوميات أكرم زعيتر**، مدخل «وقف الإضراب».

٢ ـ استمرّ الإضراب ١٧٥ يومًا. الخسائر: انهيار الاقتصاد الفلسطيني انهيارًا تامًّا ونسف مئات البيوت بما في ذلك شوارع بأكملها بالإضافة إلى استشهاد ٢٥٠٠ شهيد، و٧٠٠٠ جريح، ومقتل ٨٠٠٠ من المدنيّين، واعتقال ١٩٧٣.

حصار

اعتاد الذهاب إلى ليزا. في دارها يجتمع المثقّفون والسياسيّون وزعماء الأحزاب والطوائف. ورثت الدار عن أبيها، وكذلك ورثت أحلامه في جمع الناس من كلّ الملل والاتّجاهات، رغم اختلاف المعتقدات. قبل وفاته كان نشيطًا، يقيم الحفلات والولائم ويستقبل الناس كلّ كريسماس فيضيّفهم نبيذًا أحمر وجبنًا وكافيارًا وشوكولاتة. كان الحجّاج يقصدونه إمّا للبيع وإمّا للشراء فتتكدّس لديه زجاجات الخمر من اليونان وعسل وكافيار من البلقان. كانت القدس أمّ الدنيا، وأيّام الحجّ فيها مآدب ورقص وغناء وتراتيل وشموع وصلاة. وفي الأمسيات، بعد ذهاب المتزمّتين، يدير أبوها الفونوغراف فيرقص الساهرون على أنغام الفالس والتانجو لمنتصف الليل، وبعد ذلك يتوجّهون للقيامة لحضور القدّاس وعزف الأرغون. كانت أمّها ابنة راهبات وتجيد العزف وعدّة لغات إلاّ العربيّة لأنّها من أصل يوناني وتجد صعوبة في لفظ الشين والجيم، فتقول عن الشوكة سوكة، وتنادي زوجها مسيو زبران بدل جبران فيضحك الناس، لكن بأدب.

في ذاك المساء ذهب إليها. كان كريسماس، وكان الإضراب قد تبدّد وابتدأت ثورة جبليّة بعيدًا عن المدن وضواحي القدس. وكانت

القدس ما زالت تنعم بالأنس، أو بعض الأنس، لأنَّ الأديان رغم الفرقة، تنسى في غمرة الاحتفالات بعض الأحقاد.

كانت ليزا تقف في الوسط وحولها شلّة أعيان من كلّ لون وخلفيَّة، فيهم خوارنة وقناصل وقادة أحزاب وجمعيّات. وكان واصف، مرافق الحاكم، يدور بصينيَّة شوكولاتة. استقبله بضحكة عريضة وذكَّره بسهرة الأنس قبل أيّام ومعرض المنتوجات الوطنيَّة حين رفض الرقص مع روزا ثم أكلوا كنافة وتمريّة. ابتسم أمين بتواطؤ وتناول حبّة شوكولاتة وسأل همساً: وصلت روزا؟ قال بسرعة: وصلت، وصلت، وابتعد عنه بالصينيَّة قبل أن يأخذ حبّة أخرى وذهب إلى الباب ليستقبل ضيفاً آخر.

كانت ليزا قد قالت له إنَّ روزا، بعد أن فشلت في إقناع اليهود مثل خضوري، قرَّرت إنتاج الفيلم الضخم عن السكاكيني وآلتر ليفين. لكنَّ الفيلم بحاجة لباحث لينبش ما وقع من الأحداث. القصّة وقعت قبل سنين، زمن الأتراك، يعني قديمة. والوضع الآن تغيَّر جدًّا، والسكاكيني تغيَّر جدًّا، وآلتر ليفين فشل كشاعر وبات يعمل موظّف تأمين. يعني الواقع غير الواقع، فلو أنَّ القصة تُعاد الآن، في هذا الجوّ، هل كان يقوم السكاكيني بتخبئة ليفين ويضحّي بأمنه وحياته من أجل يهودي مستوطن؟ قال بفضول: لم لا نسأل السكاكيني؟ قالت همساً: لا يهمّ السؤال، المهمّ يا أمين، نحن بحاجة لمن يروي القصّة بلا تشويه. أنا لا أثق بالأميركان. أيّ شيء يصل إليهم يصبح مسخاً، مجرّد تهريج. لماذا إذن نعمل معهم؟ سأل بجدية وبساطة. قالت بحماس:

نظلّ نحاول. هذه فرصة. علينا استغلال أيَّة فرصة. أفهمت الآن؟ هزّ رأسه وقال بحيرة: طبعًا طبعًا. وهكذا اتَّفقا على أن يكون هو الباحث وهمزة الوصل بين الأطراف. وها هو بانتظار روزا ماير ليفهم منها ما هو مطلوب، وما هو دوره، وربما تحديد ذاك الدور.

هو غير مقتنع بذاك الدور، ليس تمامًا، وخصوصًا بعد الصدام مع أخيه وحيد. وحيد قال بغضب ونفور: تعمل معهم؟ هذا تطبيع! أنا لا أسمح. فنظر إليه من تحت لتحت، ورأى لحيته قد طالت، ورأسه حليق كالأقرع، والزيبق خلفه لا يفارقه ويوسوس له. وانتهى الحديث بقول الزيبق: نحن نعرف كيف نؤدّب.

والحقيقة أن ما قيل على لسان أخيه والزيبق لم يكن غريبًا على الجوّ. بعد الأحداث الدامية ثم الإضراب ثم الثورة وحرب العصابات، أصبحت الأجواء أكثر تعقيداً وسخونة. اختبأ الوسط وانهار الوسيط وعلت أصوات التزمّت. ازداد التعصّب بسبب الحقد والإحباط والخسائر. من فقد الابن أو فقد البيت أو فقد الرزق صار مليئًا برغبة جارفة للانتقام والتوعُّد. خفتت أصوات المعتدلين وعلت أصوات التشدّد. صار الوسط بلا أرضيَّة، وكان أصلاً بلا أرضيَّة، ومع انسداد الأفق وتشبّع الجوّ برائحة الدم، فُقد الاتّصال والتواصل. لكنَّ الندرة ما زالت، رغم الأحداث، ترى الأمور بنظرة بعيدة، أبعد بكثير من واقعهم. ربّما كانت إنسانيَّة، ربّما كانت رومانسيَّة، أو ربّما، كما فسّر له ابن أبو محمود، نظرة بعيدة للمستقبل. يعني ماذا؟ يعني نطأطئ في وجه الريح وننتظر اللحظة كي نضرب. نضرب ماذا؟ البرجواز...

والرجعيَّة، أفهمت الآن؟ ابتسم بشكّ. لا لم يفهم. فقد القدرة على الاستيعاب. اختلط الحابل بالنابل. ما بين الأخضر والأحمر صعب تحديد كل الألوان.

نادته ليزا: تعال يا أمين، تعال سلّم. خوري الأورثوذكس وسماحة الشيخ ومسيو ثيودوروس من اليونان. فاقترب منهم وسلّم بحياء وانسحب بسرعة واختبأ خلف عمود الرخام ليسترق النظر ويراقبها. شابّة جميلة وذكية، مختلفة جداً عن الأخريات. تجيد اللبس، تجيد الحديث تجيد اللغات، وترقص شارلستون وتغنّي.

سمعها مرّة تغنّي بالإفرنجي. تعزف بيانو وتغنّي، تنطق كلمات إنجليزية بصوت رجراج مثل العصافير. معظم الكلمات لم يفهمها لأنَّ صوتها يعلو ويهبط مثل أسمهان حين تغنّي «يا طيور وليالي الأنس». وحين ترفع صوتها وتقول «هوهوهوهو» يبدأ كريستال الثريات بالاهتزاز كالشناشل. ولا يعرف حينذاك هل يبتسم أم يغضّ خجلاً ليداري جهله وقلّة ذوقه. ذوقه لا يستسيغ «الهوهوهو»، يحسّه غريباً على أذنه كصرصار الصيف حين يصرصر، وتزييق الباب حين يزيّق، وخدش الطبشور على لوح صقيل. لكنَّ الخوري قال لها برافو يا ملاك، أنكور، أنكور. والستّ رفيعة ـ أمّ أحمد قالت يا سلام، ولا أسمهان. وفي عيدٍ ما، حين عزمته إلى الكنيسة، غنَّت للصبح وإحدى الراهبات بكت من الشوق والتأثُّر، وعجوز نامت على المقعد ورجلها تهتزّ مثل البندول. هذا الغناء لا يحبّه، يفضّل واصف حين يغنّي صبا ونهاوند. واصف يغنّي على العود كعبد الوهّاب، يغنّي أمان ويا ليل ويا عين،

يغنّي لمنيرة المهدية وسيِّد درويش. أخذه مرّة لليالي الأنس في بيت عريق كالسرايا. حمل له أدوات الغناء وادّعى أنَّه يعمل في «الكار». كار المغنى أحلى الكارات، قال واصف، لكن لا يُغني ولا يُسمن. لو أنا في مصر لجعلوني أمير الطرب كعبد الوهاب. لكنَّ القدس، اسم اللّه على القدس. قال أمين وهو يضحك: نابلس أحسن ولِلاّ غزّة؟! صاح واصف: سلامة تسلّمك، ناس زيّ اللَّوح، لا ذوق ولا كيف ولا كاسة عرق. احمل، احمل. وحمل له أدوات الغناء للسرايا وجلس يراقب. جوّ غريب، جوّ رائع. جوّ ينطلق فيه القلب من عمق السجن. عرق وتسالٍ والمازات والحور العين زيّ الملبن، قال واصف: لوز وملبن. ضحك للوصف وردَّد بحياء: لوز وملبن. دغره واصف في كتفه: عندكم في نابلس هذا الجوّ، لوز وملبن؟ عندكم صدور زيّ المرمر؟ عندكم سهرات لطلوع الصبح ويمكن أكثر؟ عندكم؟ عندكم؟ طأطأ أمين. تذكَّر أخاه في حبس الدم ثم مغارة بقمّة عيبال محاطة بالشباب وأشواك الصبر. لحية ومسبحة وتزمّت وقيام الليل، اللّه أكبر. قال بحسرة: مالك ومالنا، في القدس. وهو هنا يهرب من هناك ويلجأ للقدس. نابلس عجوز يقتلها الهمّ. سأله البيك في السرايا بين الوصلات: ابن القحطان؟! معقول تكون ابن القحطان؟ الشيخ قحطان كان يا ما كان، سقا اللّه الأيّام، كان وكنَّا، كيف حال داركم بعد الزلزال؟ معقول تكون ابن القحطان؟ وحدجه بنظرة زاجرة وحدج واصف. يستكثر عليه صحبة واصف. واصف يغنِّي في السهرات. واصف يغنِّي في الحفلات. واصف معروف بالحركات ويعمل هناك عند الحاكم. لكنَّ واصف يسعده بأحاديثه. يحكي له عمّا يجري في بيوت الناس. يحكي له عمّا يقال.

عند الحاكم. يحكي له عمّا يدور في الجمعيّة. يحكي له عمّا يدور في جوّ القدس. مغرفة القدس، هذا واصف. قالت ليزا: واصف منّا، وأنت منّا، وخوري الكاثوليك، والستّ رفيعة ـ أمّ أحمد، وحتى الحاكم. سأل بذهول: حتى الحاكم؟! قالت همسًا، هذا الحاكم غير الحكّام، لا يحبّ اليهود. ويحبّنا نحن؟ سأل بدهشة. لم تتراجع: هذا الحاكم غير الحكّام. قال بحيرة: لكن حاكم! ابتسمت له: الناس أجناس يا ابن الناس، لكنَّ القدس أمّ الدنيا. أنت من القدس أو من نابلس؟ وضحكت منه وهو يحمرّ فأعادت السؤال: أنت من القدس أو من نابلس؟ قال ساخرًا: حظّي في الخرج!

هذا الحاكم غير الحكّام، هل تعني فعلاً ما قالته، أم أنَّه التبس عليها؟ الحاكم يحبّ الستّ ليزا. هذا ما همس به واصف، وهذا ما صاحت به روزا: Oh my goodness! وحين تكرَّرت تلك الصيحات بدأ يلاحظ، وتمنَّى لو يصرخ هو الآخر: Oh my goodness! كيف الحاكم ابن الستّين، ويمكن سبعين، يحبّ شابة ابنة عشرين وربّما ثلاثين؟ فارق السنّ، على الأقل ٣٠ سنة، وربّما ٤٠، فارق السنّ لم يمنعه، وفارق السنّ لم يمنعه هو الآخر من أن يحسّ بحسرة وغيرة. يحسّ بغيرة وهو يرى تلك النظرات. يحسّ بغيرة وهو يرى جموع الرجال تحيط بها. يحسّ بالخوف وهو يراها تغنّي وترقص فيدوخ الرجال. هذا يحدِّق، وآخر يلهث، وثالث يرتمي على ركبتيه ويقول بصوت تعتعه السكر: أموت بربّك. لماذا يحسّ بالغيظ والخوف وهو يرى كل هذا السخف؟! رجال يتذلَّلون كالشحاذين، جوقة أيتام، ككلاب الصيد المحرومة. وهو أيضًا، ألا يشبههم؟ الفرق الوحيد أنَّه يخجل. ألا يتمنَّى أن يَقَع على

الأرض كما يُقعون ويقول لها ما قال فلان، أموت بربّك؟! أليس الخجل هو ما يكبِّله، وفارق السنّ، وضيق اليد، وهي الستّ ليزا أندراوس، ستّ الستّات، ستّ البهوات، وقاسم أمين والجمعيّة، ثم هذه الدار شبيهة بالقصر! لكنَّ السنّ، لا بدّ السنّ هي ما يشحنه، ثم الحرمان، وخيال محشوّ بالهرمون. أهو الهرمون؟ أهو الخيال أم الواقع؟ وأين الواقع؟ أهناك ثبات في الواقع؟ أهناك ثبات في الإنسان؟ وذاك الحاكم، أهو حقًّا غير الحكّام؟ أهو حقًّا يحبّنا نحن أم يحبّ ليزا؟ أهو الإحساس أم الحرمان عند الحاكم، أو عنده هو؟ ليته يعرف. لهذا ألحَّ على واصف أن يأخذه لسهرات الأنس حتى يعرف. وكانت سهرة امتدّت للصبح. ورأى النساء البيضاوات والسمراوات والحمراوات، ورجال السهرة الأفاضل يسقط عنهم رداء الهيبة وأبّهة العزّ ويصبحون ككلاب الصيد، مثل الأيتام، ومع أوّل كأس أو ثاني كأس يسقط الواحد على ركبتيه ويصرخ بأنين: أموت بربّك! فتقوم الحلوة وتولول بدلع محسوب: ابعد، ابعد. فعاد من السهرة مصعوقًا. قرف من الأنس(١).

لكن ليزا العزيزة لا هي شقراء، ولا هي حمراء، ولا دلّوعة. وحين يتذلّل أحدهم تبتعد برفق وتصعد درجات رخاميّة وهي تغنّي، تغنّي من فوق. وها هي الآن تغنّي من فوق، ومسيو ثيودوروس يعزف لها فيهتزّ السقف ويرتجف كريستال الثريّات ويطلق ألوانًا كالفسفور.

١ ـ اقرأ عن حياة الأعيان كما صُوّرت في **القدس الانتدابيّة في المذكرات الجوهريّة**.

وصلت روزا، ورآها تكرج كالبطّة. صدرها منتصب كالمدفع وقفاها يمخر كسفينة، وشعرها هائج كعشّ دبابير. من عتبة الباب سمع صوتها تداعب واصف وتقول له: ترقص معي؟ أين الكافيار؟ عندك ويسكي؟ ثم صوت الحاكم من خلفها: Good evening sirs, merry Christmas. التخم الجميع وساد سكون، وانسحب الشيخ حامي الحرم ثم قنصل حامي الحرمين وامتقع وجه ليزا المشرق. كانت تتوقّع أن تحضر روزا مع فريق الأميركان من أجل الفيلم، لكنّ روزا بكتف الحاكم والضرب شغّال بين جنوده وفرق الثوّار والاجتياحات والقمع والشنق والقنابل والطيّارات، كل هذا يحدث هناك وهو هنا لأجل كريسماس؟! أيّ كريسماس؟! وبدأ الزوّار ينسحبون، يعني القناصل والأعيان، مع أنّهم لم يتوقّفوا عن زيارته والتودّد إليه في أيّ يوم من الأيام، رغم الإضراب ورغم الثورة وقتل الثوّار والمدنيّين ونسف البيوت واجتياح المدن. كانوا يزورونه ويعزمونه على مناسف وخراف محشوّة وفتّة كرشات. كانوا يزورونه ويزورهم تحت جنح الظلام، بلا رقيب، ولا صحافة. كانوا يزورونه كلٌّ على حدّة، ويفاوضونه، كلٌّ على حدّة، ويساومونه ويحتفلون معه بعقد الصفقات، كلٌّ على حدّة، ثم يسرّبون الأخبار للصحافة أنّ التفاوض

والاجتماعات من أجل السلام وكسب مواقع لدى الإنجليز لدحر اليهود[١]. وكان الإنجليز يضحكون عليهم ويسايرونهم ببعض الألقاب والهدايا ويرسلون رسائل رسميَّة يملأونها بالديباجات فيقولون لهذا يا جلالة الملك حامي المشرقين والمغربين وعُلى السموات، ولآخر يا صاحب الملك والسعادة والكرم والمجد والرخاء العظيم، ولثالث يقولون يا فخامة الرئيس ذا الشأن الكبير والوجه المنير والعقل الخطير رمز الأمّة. كانوا يقولون كلّ هذا وذاك في رسائلهم، أمّا في الصحف، هناك في لندن، فَصُور ورسوم وعناوين بالبَنط العريض للحى ولفّات وطرابيش لجوقة بلهاء أو قتلة. إرهابيون، وفضائح من ملكت أيمانه طابور نساء، عشرين امرأة، خمسين امرأة، مئة ومئتين، ثم الأولاد، خمسمئة ولد، ولد وبنت، لدرجة أنَّه لا يعرف خلقتهم ولا يميِّز هذا من ذاك، ولا هذي من تلك. فإن كان لا يعرف أولاده، ولا يميِّز هذا من ذاك، ولا يميّز بين زوجاته، هذه من تلك، فكيف إذن يعرف شعبه ويميِّز بين طبقاته واحتياجاته، هذه من تلك؟ كان السفراء في لندن يُخفون الصحف عن أصحاب الجلالة والفخامة حتى لا يُقال فشلوا وخابوا وبالتالي تطير مناصبهم. وإذا حدث وتسرّب خبر من الأخبار يقولون لأصحاب السموّ والجلالة إنَّ المقصود بلحية التيس في ذاك الرسم هو الجار الملاصق لدولتكم، والشيخ فلان البعيد القريب، لا جناب العرش وحضرتكم، وإنَّ الملك جورج، حفظه اللّه، يحفظ العهد ويحفظكم. وهكذا صلح الموقف وظلّت علاقتنا حميدة في أحسن حال، نحمد اللّه ونحمدكم.

---

١ - أنظر: "Between Mohammed and Mr. Cohen," in **One Palestine, Complete.**

لكنَّ الحاكم، سير آرثر، مذ أحبّ ليزا وكره اليهود ونبش آثارا عربيَّة وكسب منها، اكتشف فيها ما يعجبه رغم أنفه. كما أنَّ مفعول المنسف ووقاحة وايزمان وبن غوريون جعلاه يتعاطف مع العربان وقضاياهم. وربّما بسبب ليزا، ليزا الحلوة، ليزا الأنيقة ببرنيطة، تحكي إنجليزي وفرنسي وترقص تانجو وتعزف وترتِّل في الكنيسة، كل هذا وذاك جعله رخواً لا يحزم بقراراته، أحياناً يضرب بوحشيّة، وأحيانا يهدأ ويهادن لكسب ودّ ليزا الحلوة ويردّ المجاملات والجمائل لمن عزموه على المنسف وفتّة كرشات. لكنَّ وايزمان وبن غوريون كشفا سرَّه فبعثا برسائل وإدانات يشكوان فيها المظالم وتحيّز الإنجليز للعرب والمطالبة بنقل الحاكم قبل إحالته على المعاش ببضعة أشهر. وبالفعل، نشأ توتّر بين اللوردات في مجلسهم. هذا يقول ننقل آرثر ونستبدله بآخر حازم، وذاك يقول لا نظلمه قبل إحالته على المعاش والتقاعد لأنَّ آرثر له مآثر وله عزوة بين الوجهاء وأعيان القدس. هذا يشجب وذاك يدافع، هذا ينفي وذاك يؤكِّد حتى وصل اللغط إلى سير آرثر فبدأ يهبُك لأنَّه لا يرغب أن يترك أجواء القدس قبل الموعد وتطبيق ليزا. فأخذ يركض من أجل الفيلم حتى يثبت أنَّه لم يفشل بالتمريض مثل خضوري من أجل السلم والتعايش بين الشعبين. مشروع الفيلم هو البديل لمشروع روزا، ومن خلال السكاكيني وآلتر ليفين سيثبت لهم أنَّ فلسطين، رغم القسمة وجوّ التقسيم، ستكون الرمز والنموذج فتصدق فيها نبو... الإنجيل الجديد والعهد القديم وسورة مريم. وهكذا تأبَّط روزا و... يصاحبها لأيِّ مكان حتى يساعدها على الإنجاز رغم الأعياد و... كريسماس. وحين سمع أنّها ستجتمع بليزا من أجل البحث...

الأحداث وسيناريو الفيلم قال بجدِّيَّة، بدون ابتسام: أذهب لأسلِّم على ليزا وأهنّئها بالعيد المجيد. وحين ابتسمت، قال بجدِّيَّة، بدون ابتسام: حتى أحميك من جابوتنسكي وأعوانه، نسيت الزعران؟ نسيت الجامعة العبريّة؟ فقالت: فعلاً، وابتسمت له، ووضعت ذراعها في إبطه.

لم يعرف أمين ماذا يفعل. هل ينسحب من السهرة فيصبح منافقًا مثل الأعيان أم يبقى مكانه حتى يعرف ما هو دوره لإعداد الفيلم؟

نادته ليزا ونادت واصف. قالت: لا بدّ أن نتصرَّف بذوق وحكمة. هذا الحاكم أحرجني اليوم. حضوره هنا سيصبح مضغة على كل لسان. لماذا شجَّعته يا واصف؟ قال واصف مدافعًا عن نفسه: واللّه العظيم ما شجّعته. أنا لم أعرف. قالت بهمّ: بكرا الطائفة وخوري الأورثوذكس يفتحوا محضر، وكل الزعماء يلعنوني. ابتسم واصف ساخرًا: خايفة منهم؟ أنا عارفهم، وأنت عارفة، زيارات وولائم طول الليل. أنت عارفة. هزّت رأسها: عارفة، عارفة. والتفتت لأمين: لكن يا أمين أخوك عارف؟ أخوك وجماعته والثوّار، أخوك يا أمين لازم يعرف. هزّ رأسه ولم يعدها بشيء لا يقدر عليه، لكنَّه قرَّر الوقوف معها والدفاع عنها وإبلاغ وحيد بالحقيقة حتى يعرف موقف ليزا ومكانة ليزا وأهمّية ليزا وما تفعل. سيقول له: ليزا مهمّة. سيقول له: ليزا نظيفة. سيقول له: ليزا أمينة ووطنيّتها فوق الشبهات. زيارة الحاكم لا تعني

ـ عصابات اليهود؟

ابتسم لها ولم يجب على السؤال، واتّجه نحو إبريق الماء وأخذ يشرب. علّقت روزا من بعيد وهي ما زالت جالسة وسط الأميركان:

ـ أو العرب؟ نحن هنا في هذا الفخّ بين الطرفين.

صحّحها المخرج الأميركاني:

ـ بل ثلاثة.

قهقه الحاكم وقال مازحًا:

ـ مالكم؟ خايفين؟ أنتم خايفين وأنا معكم.

رشقته ليزا بنظرة لئيمة كي تذكّره بما قاله عن هذا الجحيم وحياته وقبّعات القش والتكيلا، فابتسم لها وغمز بعينه.

قال بمرح ليطمئنهم:

ـ يا جماعة الخير، ولا يهمّكم، الضرب بعيد، بعيد جدًّا. أنتم بأمان، أنا معكم. أنتم محاطون بحراسة جيِّدة جدًّا. لو تنظرون من النافذة ترون الحرس في كل مكان. اشتغلوا بالفيلم، ولا يهمّكم.

عادت روزا تستعجل أمين:

ـ مالك يا أمين؟ اقعد، ركّز.

جاء واصف بالقهوة فأخذ الحاكم قهوته ووقف بالقرب من النافذة يراقب الجوّ من خلف الزجاج. نادى ليزا لترى ما يراه ولتشرب قهوتها معه وليستكمل جولة بدأها ولم يكملها. سألها معاتبًا:

ـ أين الشجرة؟ كلّ كريسماس كنت تزيّنين تلك الشجرة فتصبح كالعروس، كالمهرجان، كفتاة حلوة مزوّقة بأحلى النجمات وشموع الحبّ. أحبّ كريسماس. أحبّ الأجواء الحميمة وكريسماس تري وولائم الأهل والأصدقاء وهم يجتمعون حول المائدة يأكلون ويشربون ويرتّلون للعيد السعيد، يرتّلون للحبّ والأمل والعام الجديد. ما أحلى الأمل. ما أحلى الحبّ. أهناك أمل؟ أهناك حبّ؟

لم تجبه، بل رمقته بنظرة مهذَّبة ماكرة. كانت تعرف ما يرمي إليه. كانت تعرف ما هو مطلوب وما يحلم به، وتعرف أيضًا أنَّ ما يطلبه بعيد جدًّا، أبعد بكثير ممّا يحلم. فلماذا يصرّ؟ لماذا يلحّ؟ ألا يعرف أنَّه المستحيل؟ رجل بريطاني متزوّج وعمره ستّون وربّما سبعون. كيف يفكِّر أنَّه ممكن؟ أهو الهروب؟ أهي الوحدة؟ أم هي الحرب أم المينوبوز وما شابه؟ في هذا العمر يصبح الرجل مثل الضائع، يفقد رشده، يفقد توازنه وميزانه. يصبح كمراهق أناني لا يرى إلاّ نفسه، مثل ذاك الشابّ المراهق الذي لا يملّ الملاحقة بنظراته. شيء مؤسف، من بين الرجال، كلّ الرجال، من تعرفهم ولا تعرفهم، ألاّ وجود لرجل واحد بدون مشاكل؟ هذا مسنّ ومتزوِّج وذاك مراهق وآخر نصّاب ومتخلِّف ورابع وخامس. لم لا تجد في هذا الجوّ أيّ واحد، فقط واحداً، واحداً يرضيها ويقنعها؟ العيب فيهم أم فيها؟ ألأنَّها تطلب أكثر ممّا يوجد؟ ألأنَّ العلم أفسدها؟ ألأنَّ الغربة جعلتها ترى الأشياء بتلسكوب يصل النجوم ولا يرى ما هو حوله؟ ويظلّ القلب بلا مأوى، بلا مرساة ولا ميناء، سفينة هائمة تمخر في البحر بلا نهاية، من غير شراع، ولا مرفأ. وروزا أيضًا من غير شراع؟ أليست أنثى وتحلم بالحبّ؟ أليست امرأة

رفع الكلفة ولا الصداقة وعقد الصفقات. مشروع الفيلم كان السبب. روزا المجنونة هي من أحضرته. وحتى روزا أيضًا هامّة. مقصدها نبيل، إنسانيَّة. سيقول لأخيه كلّ هذا حتى يفهم دوافع ليزا وأهداف روزا وموضوع الفيلم. موضوع الفيلم يدور حول رجل عربي يضحّي بأمنه وحياته من أجل يهودي مستوطن. هل يفهم وحيد ويتفهَّم أبعاد الفيلم؟ وحيد المسكين لم يتعلّم، بسيط ومحدود وقلبه طيِّب. لكنَّه غير مثقّف، ومحاط بالزيبق وأمثاله. حتى لو فهم وتفهّم بسبب نبله وطيبة قلبه، هل يفهم الزيبق ما المقصود من ذاك الفيلم؟

طوال السهرة وهو يفكِّر ماذا سيقول لأخيه وحيد؟ هل يستطيع إقناعه؟ هل يحكي له عن ذاك الفيلم؟ وما هو أفضل، أن يحكي لأخيه عن ذاك الفيلم أم يدافع فقط ويقول زيارة عابرة لن تتكرَّر؟ حتى وهو يستمع لروزا والأميركان عن دوره كباحث وموثِّق لأحداث الفيلم لم يركّز. كان مشغولاً مهمومًا يفكِّر بوحيد وما سيقول له حتى أنَّه فكَّر للحظات أن يقوم بإهمال وحيد وعدم إبلاغه بالموضوع. لكنَّه عاد وتذكَّر أنَّ زيارة الحاكم مع روزا والأميركان ستصبح غداً على كلّ لسان. إن لم يقل عنها بنفسه فسيسمع وحيد من الآخرين، ومن الآخرين تصبح ملحمة دراميّة. ستصل مفلفلة مبهّرة وفيها ما قيل وما لم يُقلْ، فيها ما حدث وما لم يحدث، فيها آفات وخيانات ودسائس. من الأفضل إذن إبلاغ وحيد.

قالت روزا:

ـ مالك يا أمين؟ ركّز معنا، أنت سامعنا؟

أجاب واصف عنه بسرعة كما لو كان يدافع عنه:

ـ سامع، سامع.

ودغره في كتفه وهم يأكلون حول الطاولة، ومال عليه وقال همسًا:

ـ ركّز، ركّز.

ففتح عينيه وفتح أذنيه وبدأ يركّز.

الحاكم كان يحكي بهدوء. لهجته ناعمة رقيقة فيها سلاسة وانسجام عميق، كما لو كان في بيته، كما لو كان بدون سلاح ولا كاكي، كما لو كان بدون جنود ودبّابات وطيّارات تقاتل في الجبال وتجتاح القرى بحثًا عن أخيه وأمثاله. هذا الحاكم غير الحكّام. تذكّر ما قالته ليزا الطيِّبة بغيظ بارد، فهل تعني فعلاً ما قالته؟ أم أنّ الحبّ غيّرها وأعمى عينيها وجعلها تظنّ أنَّ الحاكم غير الحكّام؟ وهل هذا حبّ متبادل؟ فتح عينيه وأخذ يراقب.

قالت ليزا إنَّ القصّة، قصّة الفيلم، قصّة رائعة كنموذج، إنسانيَّة، فيها إحساس، فيها تجاوز لكلّ الحدود المصطنعة بين الأديان. القدس لنا والقدس لهم والقدس للجميع. لكنَّ اليهود جاؤوا إلينا كما جاء الغرب، للاستعمار، مثل أوروبا.

صاحت روزا: طبعًا، طبعًا، مثل بريطانيا والمستعمرات والكولونيل كيش. الكولونيل كيش؟ سأل الحاكم وهو يضحك وأفرغ كأسه وطلب من واصف أن يملأ له كأسًا أخرى.

التفت واصف وهمس لأمين: هذا مسطول، هذا سكران، أسكره النبيذ وأسكره الحبّ. مالك؟ زعلان؟

طبعًا زعلان، طبعًا مغتاظ، طبعًا غيران. ليزا تساير الحاكم وتحاول أن تجعله يوافق على أقوالها، والحاكم يحاول أن يقنعها أنّه موافق، موافق جدًّا. لكنّ الضّرب وصوت الرصاص هناك من بعيد في رؤوس الجبال ينفي ما يقول هذا الحاكم. كما أنّ مسايرة ليزا للحاكم زادت عن الحدّ. تبدو معجبة بكلامه، تبدو معجبة بقوامه، تبدو معجبة بهندامه، تبدو معجبة بزرقة عينيه وبالنياشين فوق صدره، نياشين ملوّنة كقطع الكرتون والفسيفساء والطوابع. شعره أبيض، ليس كثيرًا، وصلع واضح، ليس كثيرًا، وغليون ضخم رائحته تُسكر من كانت مثل ليزا درست هناك ورقصت هناك وتعلّمت الشارلستون والهوهوهو. وهو أنيق في كلامه وأكله وغليونه وشرب الكأس. رجل يتصرّف كاللوردات، كالجنتلمان، لأنّه لورد، لأنّه جنرال. كبير في السنّ، لكن جنرال.

وأحسّ بغيرة لا توصف. وحين قالت روزا للأميركان، رجل وامرأة ومصوّر، نقوم لنكمل في الصالون؟ لم يقم هو وحاول أن يبقى على الطاولة ليمنع الجنرال من التّمادي ويمنع ليزا من الانسجام، وليمنع ما يمكن أن يحصل. فها هو يرى الجنرال يحدجها، يحدّق فيها، يرميها بنظرات تجعلها تغضي خجلاً. لماذا الخجل؟ لو لم تكن تحسّ بإحساسه وإشاراته هل كانت تخجل أو تحمرّ؟ لماذا تحمرّ؟ لماذا تبتعد بعينيها وتنظر إليه ثم لواصف كما لو كانت تتأكّد أنّ أحدًا لا يراقبها أو يلحظ ما بها وبماذا تحسّ؟

نادته روزا صارخة: تعال يا أمين. فقام متثاقلاً وقام واصف. واصف قال: أغلي القهوة، وروزا سحبته من أذنه وقالت زاجرة بتحبّب: ركِّز معنا، اقعد معنا، ركّز، اسمع، اسمع ما يقول هذا المخرج.

* * *

قال المخرج:

ـ اسمع يا أمين. القصّة حدثت زمن الأتراك. أريد تفاصيل عن ذاك الجوّ. الحرب والجيش والضابط عارف والبوليس ومن قبضوا عليه. صور لعارف وجمال باشا. صور للدار من الداخل. السكاكيني رفض التصوير ورفض التمثيل.

علّقت روزا بشبه احتجاج:

ـ هذا كاتب، مربٍّ وكاتب!

أهملها المخرج وواصل بجدِّية مهنيَّة:

ـ علينا أن ندرس التفاصيل، كل التفاصيل. علاقة السكاكيني بآلتر ليفين، أهي صداقة؟ أهي زمالة؟ أهي إعجاب؟ نريد التفاصيل. وكذلك نريد أن نعرف لماذا لجأ آلتر ليفين إلى السكاكيني ولم يلجأ لليهود بني قومه؟ نريد تفاصيل. وتلك العجوز اليهوديَّة من دلَّت عليه وقادت الأتراك إلى مخبئه، نريد تفاصيل، من هي؟ كم عمرها وقت الحادث؟ أهي حقًّا حماته؟ نريد تفاصيل. وإذا استطعت الحصول على فصول من مذكّرات السكاكيني فهذا عظيم، سيُحسب لك. حاول، أقنعه، أو ادفع له.

امتعض أمين:

ـ تقصد المال!

نظر المخرج إلى روزا فعضّت شفتها وقالت بسرعة:

ـ انس الموضوع.

واصل المخرج طلباته، ونريد كذا ونريد مذا وأمين يدَّعي أنَّه يسمع وهو لا يسمع. كان يراقب ليزا والحاكم على الطاولة وقلبه يخفق. ماذا يقول لها الحاكم؟ ماذا تقول له ليزا؟ هل ينجح معها ويقنعها؟ هو متزوِّج، لكنَّ الزواج ليس عبرة. كلّ من رآهم في سرايا الأنس كانوا متزوّجين جدًّا جدًّا. كل واحد منهم بزوجة واحدة أو اثنتين وعلى الأقلّ عشرة أولاد، لكنَّ الزواج لم يمنعهم. فماذا يمنعه هو الآخر؟ سنّه؟ لا بأس، قال واصف: لـمّا الرجّال يكبر ويشيخ يصغر عقله ويصير يركض زيّ المصروع ورا الكتاكيت. كتاكيت صغار زيّ الملبن، لوز وملبن. أحسّ بالقرف، لوز وملبن؟ ليزا الأنيقة المحترمة لوز وملبن؟! قال واصف: مسكين معذور، مرته جوكر وشايفه حالها. صاح بغضب: وإذا كانت جوكر وشايفه حالها يعني يركض ورا حريمنا؟ ضحك واصف وقال ساخرًا: ليزا حريمك؟ ليزا أرجل منِّي ومنّك. هزّ رأسه: فعلاً أرجل. وتذكَّرها وهي تخطب بجموع الناس. كانت تخطب بالإنجليزي والستّ رفيعة ـ أم أحمد تلقي بيانها بالعربي، العربي الصرف، العربي الفصيح مثل الخوري وسماحة الشيخ، لكنَّ ليزا تلفظ القاف وكأنَّها كاف، ابنة راهبات مثل أمّها. قال واصف: على الأقلّ تقول جبران وليس زبران. وضحك الاثنان، لكنّه الآن لا يضحك، يحسّ بالغيظ، الخوف والغيظ.

* * *

قال الحاكم:

ـ لو تعرفين معنى الوحدة!

غضّت بنظرها وادّعت أنَّها لا تفهم ما يقصد، فغيَّر الموضوع بسرعة وذكاء ومهارة. نظر بعيداً عبر الصالون وأعمدة الرخام وقال معلّقًا وهو يتطلَّع من بعيد نحو روزا:

ـ لو كانوا كلّهم مثل روزا!

هزّت رأسها هزّة خفيفة. قال بحسرة:

ـ هم لا يعرفون أنِّي مخلص.

ونظر إليها نظرة طويلة ومشحونة. فاستمرَّت تعبث بالتطريز على المفرش وكأنَّ التطريز بحاجة لتحديد. عاد يواصل نفث الأشجان:

ـ أنا مخلص للجميع، لهم ولكم. لكنِّي أحيانًا أحسّ بالغيظ لأنِّي لا أعرف كيف أرضيهم ولا أرضيكم. أنتم على حقّ وهم على حقّ.

حدجته بصمت فأردف بذكاء:

ـ أنت لا تعرفين كم أنا مخلص.

وانتظر منها ردّة فعل لكنَّها لم تتحرَّك، وظلَّت تتابع نقش التطريز بأصبعها. حاول أن يثيرها فقال بصوت عميق كما لو كان يتأمَّل:

ـ هم على حقّ، يريدون مكانًا يؤويهم.

قالت ببرود:

ـ أعطوهم قطعة من بريطانيا.

ابتسم لها وكأنَّها قالت نكتة ظريفة، وحاول أن يضع يده فوق يدها فسحبت يدها. انتظر لحظة ثم واصل وكأنَّه يشكو همّه لمن تفهمه وتشعر معه:

ـ بعثوا عنِّي رسائل شكوى.

سألت بفضول:

ـ رسائل شكوى؟ ماذا يشكون؟ ألا يشبعون؟

لوى رأسه وحدَّق لبعيد:

ـ لو أنَّ العرب ...

وانتظر أن تسأله أن يكمِّل، فلم تفعل:

ـ لو أنَّ العرب ... لو يعملون بجدِّيَّة.

لم تعلّق، فواصل بلهجة تدلّ على الأسف:

ـ أحيانًا أدخل على الموظّفين في الحاكميَّة، فأراهم يغنّون ويرقصون ويطبّلون على مكاتبهم مثل الأطفال.

ابتسمت بدهشة وعدم تصديق:

ـ معقول؟!

ـ معقول جدًا، اسألي واصف. قبل يومين سمعت لغطًا، طبل وزمر وتصفيق ويا ليل ويا عين. دخلت عليهم فوجدت واصف في

الوسط يدبك وينطّ ويغنّي: شكشوكة يا شكشوكة، يا أمّ اللحية المدكوكة[١].

صاحت ليزا وهي تضحك بغيظ وعدم تصديق:

ـ لا مش ممكن!

وضربت على الطاولة بيدها علامة الغيظ والاستهجان، فمدّ يده ليمسك يدها، فسحبتها بسرعة ووضعتها فوق فمها. واصل شكواه من الجانبين:

ـ العرب، العرب، أنا لا أفهم! وهؤلاء اليهود بعثوا يشكون. أنا بين المطرق والسندان. أنا متضايق. لا أحد يشعر بما أشعر به. لا أحد يحسّ بي أو يشفق عليّ. أحيانًا أحسّ أنّي سأهرب من هذا الجحيم إلى جمايكا، إلى أستراليا، إلى أميركا أو حتى هاواي. هل زرت هاواي؟

هزّت رأسها نفيًّا.

ـ كنت في أميركا ولم تزوري هاواي؟!

ـ لا زرت هاواي ولا المكسيك.

صاح بدهشة كما لو كانت ارتكبت جرمًا فادحًا، أو ربّما ليسايرها على قدّ عقلها، حتى يُشعرها أنّه صغير واهتماماته لا تقلّ صخبًا ومجونًا عن اهتمامات الشباب:

---

١ ـ انظر: مدخل: «حياتنا المرحة في دائرة حاكم القدس العسكري» في **القدس الانتدابيّة في المذكرات الجوهريّة**.

ـ ولا المكسيك؟! آه المكسيك! قبّعات كبيرة من القشّ وبرانس ملوَّنة قوس قزح وتكيلا وتورتيلا وجيتارات ورقص وموسيقى لطلوع الصبح. شعب يعيش، يعرف الكيف والحبّ والحياة. أنا ممكن أهرب للمكسيك.

ـ وتترك شغلك؟

ـ أترك الدنيا وما فيها من هذا الجحيم.

سألت بأسف وبداية إشفاق:

ـ وتترك لندن؟!

حدَّق في وجهها وكأنَّه اتَّخذ قراراً حاسماً:

ـ أنا بدّي أعيش.

وحين رأى في وجهها عدم التصديق قال بصوت عميق حزين:

ـ أنا مش عايش، انا بدّي أعيش.

ومدّ يده ليمسك يدها، وهذه المرّة سحبها هو حين رأى أمين فوق رأسه يمدّ يده إلى إبريق الماء.

سمعوا هدير طيّارة، ثم اثنتين، ثم ثلاث ورصاصًا كثيفًا وانفجارات تدوّي في البعد، فارتعد الجميع وصاحت روزا: My God, my God, oh my goodness، فقام الحاكم عن الطاولة ونظر من النافذة ثم فتح الباب وخرج إلى الردهة ليستطلع، والكلّ سكوت، ينتظرون تعليقاته وتطميناته. لكنَّه عاد إليهم وهو يفرك يديه ووجهه أحمر من شدَّة البرد في الخارج. قال بسرعة إنَّ الانفجار ليس قريبًا وذاك الرصاص بين القوات وتلك العصابات في رؤوس الجبال. سأله أمين بقلق واضح: أيّة عصابات؟ تأمّله الجنرال ببرود شديد لأنّه متضايق من نظراته ومن حركاته وإحساسه المستمرّ بمراقبته. طوال جلوسه مع ليزا كان يراقبه ويراقبها. ما دخله هو؟ ماذا يريد؟ ماذا يقصد؟ أهو الآخر معجب بها؟ أهو الآخر مغرم مثله؟ هذا الهلفوت، هذا الولد، بعد مراهق، حتى أنه من غير شنب، وبَر ناعم، وخدّاه مثل خدود البنات، وصوته خافت، ربّما مبحوح. هذا الهلفوت، مراسل صغير بلا قيمة، وجد نفسه بين الكبار فظنَّ نفسه صار كبيرًا. من هو؟ ما هو؟ ولماذا يحسّ أنَّه كفؤ أو متكافئ؟!

سألت ليزا:

ـ عصابات اليهود؟

ابتسم لها ولم يجب على السؤال، واتّجه نحو إبريق الماء وأخذ يشرب. علّقت روزا من بعيد وهي ما زالت جالسة وسط الأميركان:

ـ أو العرب؟ نحن هنا في هذا الفخّ بين الطرفين.

صحّحها المخرج الأميركاني:

ـ بل ثلاثة.

قهقه الحاكم وقال مازحًا:

ـ مالكم؟ خايفين؟ أنتم خايفين وأنا معكم.

رشقته ليزا بنظرة لئيمة كي تذكّره بما قاله عن هذا الجحيم وحياته وقبّعات القش والتكيلا، فابتسم لها وغمز بعينه.

قال بمرح ليطمئنهم:

ـ يا جماعة الخير، ولا يهمّكم، الضرب بعيد، بعيد جدًّا. أنتم بأمان، أنا معكم. أنتم محاطون بحراسة جيِّدة جدًّا. لو تنظرون من النافذة ترون الحرس في كل مكان. اشتغلوا بالفيلم، ولا يهمّكم.

عادت روزا تستعجل أمين:

ـ مالك يا أمين؟ [illegible].

جاء واصف بالقهوة [illegible] الحاكم قهوته ووقف بالقرب من النافذة يراقب الجوّ من خلف الزجاج. نادى ليزا لترى ما يراه ولتشرب قهوتها معه وليستكمل جولة بدأها ولم يكملها. سألها معاتبًا:

ـ أين الشجرة؟ كلّ كريسماس كنت تزيّنين تلك الشجرة فتصبح كالعروس، كالمهرجان، كفتاة حلوة مزوّقة بأحلى النجمات وشموع الحبّ. أحبّ كريسماس. أحبّ الأجواء الحميمة وكريسماس تري وولائم الأهل والأصدقاء وهم يجتمعون حول المائدة يأكلون ويشربون ويرتّلون للعيد السعيد، يرتّلون للحبّ والأمل والعام الجديد. ما أحلى الأمل. ما أحلى الحبّ. أهناك أمل؟ أهناك حبّ؟

لم تجبه، بل رمقته بنظرة مهذَّبة ماكرة. كانت تعرف ما يرمي إليه. كانت تعرف ما هو مطلوب وما يحلم به، وتعرف أيضًا أنَّ ما يطلبه بعيد جدًّا، أبعد بكثير ممّا يحلم. فلماذا يصرّ؟ لماذا يلحّ؟ ألا يعرف أنَّه المستحيل؟ رجل بريطاني متزوّج وعمره ستّون وربّما سبعون. كيف يفكّر أنَّه ممكن؟ أهو الهروب؟ أهي الوحدة؟ أم هي الحرب أم المينوبوز وما شابه؟ في هذا العمر يصبح الرجل مثل الضائع، يفقد رشده، يفقد توازنه وميزانه. يصبح كمراهق أناني لا يرى إلاّ نفسه، مثل ذاك الشابّ المراهق الذي لا يملّ الملاحقة بنظراته. شيء مؤسف، من بين الرجال، كلّ الرجال، من تعرفهم ولا تعرفهم، ألاّ وجود لرجل واحد بدون مشاكل؟ هذا مسنّ ومتزوّج وذاك مراهق وآخر نصّاب ومتخلّف ورابع وخامس. لم لا تجد في هذا الجوّ أيّ واحد، فقط واحداً، واحداً يرضيها ويقنعها؟ العيب فيهم أم فيها؟ ألأنَّها تطلب أكثر ممّا يوجد؟ ألأنَّ العلم أفسدها؟ ألأنَّ الغربة جعلتها ترى الأشياء بتلسكوب يصل النجوم ولا يرى ما هو حوله؟ ويظلّ القلب بلا مأوى، بلا مرساة ولا ميناء، سفينة هائمة تمخر في البحر بلا نهاية، من غير شراع، ولا مرفأ. وروزا أيضًا من غير شراع؟ أليست أنثى وتحلم بالحبّ؟ أليست امرأة

كَكلِّ النساء؟ وهذا الرجل، هذا الجنرال، أليس من حقّه أن يهرب من هذا الجوّ، من هذا الجحيم، من وحدته، من وحشته ومسؤوليّاته. يثير الإشفاق رغم جماله. جميل الشكل رغم سنّه. لو لم يكن كبيراً في السنّ. لو لم يكن بزوجة وأولاد. لو لم يكن من بريطانيا. لو لم يكن الانتداب، هو بعينه!

* * *

اقترب الضرب فهرعت روزا نحو النافذة لتستطلع فسمعوا طرقات على الباب. أرادت ليزا أن تفتح ففتح الحاكم ذراعيه ليمنعها وقال بحزم: أنا أفتح. وأشار لروزا أن تبتعد عن النافذة وتعود إلى الصوفا بجانب المخرج والأميركان. سحب مسدّسه وخبّأه خلف ظهره فساد الصمت وتوقّفوا عن التنفّس وتعلّقت أعينهم بالمسدّس وظهر الحاكم. حين فُتح الباب رأوا جنديًّا من جنوده. أدّى السّلام وهمس للحاكم بكلمات لم يسمعوها، فهزّ الحاكم رأسه واستدار لهم وقال بوجوم:

ـ الجندي يقول إن من الأفضل عدم الوقوف قرب النوافذ.

قالت روزا:

ـ يقصدني أنا.

أهملها الحاكم وشمل الجميع بنظراته وقال بجدّيّة، بدون ابتسام:

ـ لا أحد يقترب من النوافذ.

سألت روزا:

ـ يعني المسألة صارت حامية. يعني ممنوع أن نتحرَّك. يعني ممنوع أن نتطلَّع. يعني صرنا مثل المساجين. يعني ممكن أن يكون الضرب قريبًا من الدار.

هزّ الحاكم رأسه وقال باقتضاب:

ـ اقترب الضرب.

صاحت بخوف:

ـ من هم؟ كم هم؟ عرب؟ يهود؟ من هم؟ قل لي؟

هدّأها الحاكم مشيرًا بيده:

ـ هش هش، هش هش، الدار مطوَّقة بالحرّاس وبعثنا نطلب طيّارة.

صاحت برعب:

ـ طيّارة؟ لتحمينا نحن؟ يعني المسألة صارت سخنة!

همس أمين وقد شحب لونه:

ـ صرنا بحصار؟

قال الحاكم:

ـ مالكم خايفين؟ لا حصار ولا طوق، هذي إجراءات أمنيَّة. إهدأوا. روقوا. مالكم شاحبين زيّ الأموات؟ ها يا واصف، عندك ليكور؟ عندك ويسكي؟ هات اعطينا.

أحضر واصف صينية الليكور وصبّ جرعات صغيرة في كل الكؤوس ودار عليهم. فقال الحاكم مداعبًا:

ـ اشربوا، اشربوا، انسوا الموضوع. غنٍّ لهم يا واصف شكشوكة.

ضحك واصف وقال متملِّقًا:

ـ واللّه يا سيِّدي ما شفت مثلك، لا تخفى عليك أيّة خافية!

انطرب الحاكم للإطراء ونظر لليزا وغمز بعينه وقال مردِّدًا كلمات واصف حتى تستقرّ في مسمعها:

ـ لا تخفى عليّ أيّة خافية.

قالت ليزا بخبث ساخر:

ـ ممكن تخفى.

احتضنها بعينيه وهزّ برأسه وكأنَّه يقول: سبحان اللّه! ريتك ستّي! اللّه خلقك وكسر القالب! ما هذا الجمال؟ ما هذا الذكاء؟ ومع خفّة دم؟ أنا محسوبك!

* * *

همست روزا للأميركان:

ـ يمكن جابوتنسكي وجماعته. أنا خايفة منهم يا جماعة.

قال أمين برعب مماثل:

ـ ويمكن الزيبق وجماعته.

سأله المخرج بتهكّم:

ـ يعني جماعتك؟

حدجه أمين بنظرة غاضبة ولم يجبه، لكنَّه تذكّر ما قال أخوه حول التطبيع وما قال الزيبق من بعد أخيه: نحن نعرف كيف نؤدِّب. أخوه لم يقل، الزيبق قال، وربّما قول الزيبق هو ما ينفّذ. يخاف من الزيبق أم من أخيه؟ يخاف من أخيه؟ هذه مأساة.

قالت روزا:

ـ يمكن جابوتنسكي وأعوانه.

سألها المخرج وهو يمسح نظّارتيه:

ـ خايفة منه؟

وضعت قلمها ونظرت لبعيد وقالت همساً:

ـ خايفة منهم.

أحاطها بذراعه فاسترخت بضع لحظات ثم أفاقت وقالت بعناد:

ـ ولا يهمّني، هذا الفيلم لازم يخلص. لازم نكمِّل هذا الفيلم.

ضحك المخرج:

ـ ولو على روحك؟

فزّت قائمة واتَّجهت نحو النافذة وقالت بعناد:

ـ ولو على روحي.

صاح الحاكم:

ـ ارجعي روزا. روزا مكانك. ممنوع. ممنوع.

صاحت بغيظ:

ـ ما هذا؟ حصار؟

ابتسم لها:

ـ لسه شو شفت!

حملقت برعب فأسرع نحوها وأحاطها بذراعه وقال ضاحكًا:

ـ أمزح، أمزح. أنت بأمان. أنا أضمن لك.

سمعه واصف فصاح ضاحكًا:

ـ أغنِّي لها يا سيِّدي شكشوكة؟

نهره باسمًا:

ـ اسكت، بلا مسخرة، أنا جدّي وأقول الجدّ. أنا لا أمزح. هي بأمان وأنت بأمان وكلُّنا بأمان.

رجعت روزا مكانها، ورجع الحاكم للطاولة ورجعت ليزا لتحديد التطريز بأصبعها. كانت تحسّ بالشكّ والخوف. كانت تحسّ أنَّ الحاكم خائف مثلها وأكثر منها. كانت تعرف ما يهدّده. هو اعترف لها أنَّ اليهود لا يحبّونه واشتكوا منه. هو اعترف لها أنّه منحاز لجانبها لكنَّ العرب، كما قال بأسف، مثل واصف، غير جدّيين، يحبّون الرقص والغناء والطبل والزمر وشكشوكة. اعترف لها أنَّه لا يحبّ اليهود. لكنّ أمين سألها سؤالاً بقي يدور في رأسها عدّة أيّام: ويحبّ العرب؟ يحبّها هي، ربّما، بل أكيد. في وضعه هذا بحاجة للحبّ. كما أنَّها هي

بحاجة للحبّ، مثل كلّ الناس، في هذا الوضع، شيء طبيعي، بحاجة للحبّ. لو كان أصغر بعشرين سنة، ثلاثين سنة، أو هي أكبر. لو أنَّ الدنيا تكرمها. لو تجد الحبّ.

قال الحاكم:

ـ الحياة في جامايكا كانت حلوة. الناس في جامايكا زيّ المكسيك. رقص وأغانٍ وموسيقى وحبّ في الطرقات. لا همّ ولا غمّ ولا عنف ولا حرب. ناس مسالمون، مش زيّ ناسكم.

حدجته بابتسامة طيّرت عقله:

ـ ناسنا نحن؟ مالهم ناسنا؟

لم يجبها، بل هزَّ رأسه وكأنَّه يقول: آه يا خسارة! أو كأنَّه يقول: أموت بربّك! أو كأنَّه يقول: خذي عقلي وروحي وأعطيني. لكنَّه كان يعرف، أو كان يشكّ، ألاّ عطاء وألاّ أمل، لكن لا بأس، فهو يحاول.

اقترب أمين من الطاولة ومدّ يده نحو الإبريق وحدج ليزا بنظرة عتاب وغيظ مكبوت. قال مهدِّداً حتى يمنعها من الانسجام:

ـ يمكن الزيبق عرف عنَّا.

سألت بدهشة واستهجان وكأنَّها تزجر شكّه:

ـ عرف عنَّا؟!

لوى شفتيه:

ـ يعني عن الفيلم والزيارة . . .

وتوقَّف عند كلمة «الزيارة» ليذكِّرها بمخاوفها من زيارة الحاكم وما سيقول خوري الأورثوذكس والطائفة ولعن الزعماء، فظلَّت صامتة تحدِّق فيه بغيظ مكتوم. فمن هذا الولد ليهدِّدها أو يزجرها ويذكِّرها؟ من هو؟ من يظنّ نفسه بالنسبة لها؟ أبوها؟ أخوها؟ وليّ أمرها؟ هو ولد مراهق لا أكثر.

ناداه واصف:

ـ تعال يا أمين، تعال خذلك كأس.

التفت إليه وقال بغضب:

ـ حلّ عن ديني.

ضحك واصف وقال ساخراً:

ـ أحلّ عن دينك؟ لو دينك نافع ما حلّيت.

نهره الحاكم لأنَّ التعدِّي على الأديان أمر مشين، أمر مؤسف، فهو المسؤول عن دين القدس، دين الإسلام ودين اليهود والنصارى وكلّ الأديان، وعيب جدّاً التلفّظ بألفاظ تخدش الدين أيّة خدشة. هذا ممنوع.

ـ عيب يا واصف. اسكت، اخرس. هذا ممنوع.

ورفع عينيه ورأى أمين فوق رأسه يحدِّق فيه فقال بغيظ:

ـ وأنت شو بدّك؟!

حمل أمين كأس الماء واستدار بظهره ولم يقل أيّة كلمة.

* * *

انطفأ النور فهبَّ الحاكم واقفًا وصرخ الجميع وعلّق واصف: يا يسوع المسيح، انتهينا! لكنَّ الحاكم صاح به:

ـ اسكت يا واصف وهات شمعة.

صاح واصف محتجًّا:

ـ أنا عندي شمع؟

سأل الحاكم ليزا:

ـ ما عندك شمعة يا ليزا؟

قالت ليزا بصوت خافت:

ـ ما عندي شمع.

ـ ولا كبريتة؟

ـ ولا كبريتة.

ـ ولا قدّاحة؟

ـ ولا قدّاحة.

ـ لا عندك شمع ولا كبريتة ولا قدّاحة؟! أمّا حكاية!

والتفت نحو روزا وفريق الأميركان:

ـ مين عنده شمعة أو كبريتة أو قدّاحة؟

سألت روزا فريق الأميركان:

ـ عندكم يا جماعة كبريتة أو قدّاحة؟

لم يجبها أحد، فقالت للحاكم معتذرة:

ـ ولا واحد منهم يدخّن. لا كبريتة ولا قدّاحة.

اتّجه الحاكم نحو النافذة حيث النور الشحيح من الشارع وتمتم بغيظ:

ـ لا شمعة ولا كبريتة ولا قدّاحة؟ أمّا حكاية!

واقترب كثيرًا من النافذة. ألصق وجهه بزجاج النافذة ليرى الحرّاس، فلم ير شيئًا سوى الظلمة. فتح النافذة وصاح مناديًا:

ـ سيرجنت آيزاك. كابتن روبرت. روني، ألبرت. من يقف هناك؟ من أنت؟ من أنت؟

انطلقت رصاصة استقرّت فيه فسقط على الأرض. صرخ الجميع وصرخ الحاكم. ركضت ليزا، وركضت روزا، وهرع واصف فارتطم بالطاولة وإبريق الماء وصاح بأنين:

ـ سيّدي سلامتك. أنا مش شايف.

أحسّ بيد تلمس جرحه. لم يعرف من. أهي ليزا؟ أهي روزا؟ أم الاثنتان؟ اشتدّ الألم واشتدّ الظلام ولم يعرف إن كانت الظلمة في عينيه أم من حوله، وأيضا لم يعرف ماذا يقول ولمن يقول وبمن يمسك. لوى رأسه وقال بأسى:

ـ آه يا ليزا. غريبة الدنيا! لا عندك شمع، ولا كبريتة، ولا قدّاحة، ولا عندك حبّ؟! أمّا حكاية!

(انتهى الجزء الأوّل)

في هذا العمل الفني الإنساني الشاسع، ترسم ريشة سحر خليفة لوحة بنورامية لمجتمع يحاول صياغة هويته الثقافيَّة ـ الأخلاقيَّة ـ القوميَّة للخروج من خواء سياسي فادح، من خلال سيرة عائلة فلسطينيَّة عريقة تقف عند مفترق طرق.

سحر خليفة روائيَّة فلسطينيَّة. صدرت لها عدّة روايات، جميعها عن دار الآداب، حازت رواية «صورة وأيقونة وعهد قديم» جائزة نجيب محفوظ. كما حازت رواية «ربيع حار» جائزة Prix des lecteurs du Var 2008 تُرجمت رواياتها إلى لغات عدّة.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت